فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

414-413
تموز 2020

مقالات
ثامر الصفار
حاكم محسن محمد الربيعي
معتز محي عبد الحميد
لطفي حاتم
موفق جواد الطائي
هاشم نعمة

ملف الأزمة الاقتصادية الراهنة في العراق
صبري زاير السعدي
مظهر محمد صالح
نبيل جعفر المرسومي
باسم جميل أنطوان
ماجد الصوري

ملف انتفاضة تشرين
حيدر سعيد
سرمد الطائي
طالب عبد الأمير
علاء حميد إدريس

نصوص قديمة
ذكريات من أدب العشرينيات ..

حوارات
الثقافة الجديدة تحاور
الاستاذ ناجح المعموري

نصوص مترجمة
انغار سوتلي

أدب وفن
حسب الله يحيى
مؤيد جواد الطلال
سعد الحسني
خالد الحلي
إيفون فيرا
جبار صبري
معتز عناد غزوان
نادية هناوي
ثامر الحاج امين
محمد رشيد السعيدي
مؤيد عبد الستار

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 413-414
تموز: 2020

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
Culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد
رقم الحساب: 11153
سويفت كود: MBIVIQBA

بالدولار:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment– Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- بالعربية لأول مرة ..مراسلات ماركس – فيرا زاسوليج ..... ثامر الصفّار
13- وباء كورونا وتداعيات انخفاض اسعار النفط ..... حاكم محسن محمد الربيعي
27- المنظومة الأمنية وتداعيات عسكرة المجتمع ..... معتز محي عبد الحميد
38- الرأسمالية المعولمة والنزعة الوطنية الديمقراطية ..... لطفي حاتم
42- إسكان المهمشين ..... موفق جواد الطائي
52- قراءة في كتاب «كركوك: جدل الأرقام والسرديات» ..... هاشم نعمة

ملف الأزمة الاقتصادية الراهنة في العراق

63- العراق أمام التحديات: تَغيير السياسات الاقتصادية المُعيبة ..... صبري زاير السعدي
71- الاقتصاد الحكومي في العراق:الواقع والمستقبل ..... مظهر محمد صالح
83- تداعيات انهيار أسعار النفط على الاقتصاد العراقي ..... نبيل جعفر المرسومي
94- نحو رؤية جديدة للاقتصاد العراقي بعيدا عن الريعية ..... باسم جميل أنطوان
104- التطور الاقتصادي في العراق واللبرالية الجديدة منذ 2003 ..... ماجد الصوري

ملف انتفاضة تشرين

114- ثورة تشرين..رهانها وأفقها السياسي ..... حيدر سعيد
121- تشرين.. ضد الخروج من التاريخ ..... سرمد الطائي
126- دور وسائل التواصل الاجتماعي في الانتفاضة العراقية ..... طالب عبد الأمير
133- النظام السياسي والاحتجاج..القدرة والتأثير ..... علاء حميد إدريس

نصوص قديمة

138- ذكريات من أدب العشرينيات .. في حوار مع الأستاذ مصطفى علي

حوارات

146- (الثقافة الجديدة) تحاور رئيس الاتحاد العام للأدباء الاستاذ ناجح المعموري

نصوص مترجمة

164- لينين منظر الثورة ومنفذها بقلم: انغار سوتلي ..... ترجمة: رشيد غويلب

أدب وفـــــن

في البدء
178- تموز .. مفاتيح ثقافية ..... حسب الله يحيى
فكر
180- مشاعر الاغتراب والتباعد الاجتماعي..الحصاد المرّ للرأسمالية ..... مؤيد جواد الطلال
رأي
185- المؤلف.. موضوعاً ..... سعد الحسني
شعر
192- لوحاتٌ لم تكتمل ..... خالد الحلي
قصة قصيرة
194- لماذا لا تنحت حيوانات أخرى؟ لـ (إيڤون ڤيرا) ..... ترجمة: جودت جالي
مسرح
197- وهم الضوء وانكساره بين مكبث شكسبير وأوديب سوفكلس ..... جبار صبري
تشكيل
200- حورات الجسد في اعمال معاذ الالوسي ..... معتز عناد غزوان
رواد
204- عبد القادر حسن أمين والرّيادة الأكاديمية في النّقد (ج2) ..... نادية هناوي
ذاكرة
216- (نقرة السلمان).. جمهورية مضيئة في ليل العراق ..... ثامر الحاج امين
كتب جديدة
218- الاحتفاء بالمرأة في عتبات رواية (موت الأم) ..... محمد رشيد السعيدي
جذور
221- مصطلحات عراقية سومرية مشتركة مع اللغة الكردية ..... مؤيد عبد الستار

الأزمة الاقتصادية الراهنة والاصلاح
جدل المتناقضات!

خلال الفترة الماضية، وعلى خلفية تعاظم الريوع النفطية نتيجة زيادة اسعار النفط الخام في السوق العالمية **تنامت** سمات الطابع الريعي والخدماتي والتوزيعي للاقتصاد العراقي والتي وظّفتها «النخبة السياسية» في توسيع شبكة «الزبائنية» الاقتصادية - الاجتماعية - السياسية، وتطوير آليات الاستيعاب والسيطرة. وقد استفادت بعض الطبقات والشرائح الاجتماعية بدرجات متفاوتة من هذه الطبيعة المزدوجة للاقتصاد العراقي: الريعية - الخدماتية. وقد نما في إطار ذلك فئة بيروقراطية مترسملة متموضعة في الشرائح البيروقراطية الحكومية والسياسية والعسكرية والأمنية العليا. وقد آلت إلى هذه المجموعات، بفعل عملية «نهب» المال العام الشديدة، حصة كبيرة من ثمار «النمو الاقتصادي المرتفع جداً» الناجم بالأساس عن تعاظم الريوع النفطية. ويعني ذلك، بمصطلحات العلوم الاجتماعية، أن هذه «الطبقة» قد امتلكت مصدراً اقتصادياً جديداً و«خاصاً» لقوتها يعزّز قدرتها على تطوير الشبكات «الزبائنية».

ومنذ عدة سنوات والقوى الماسكة بالسلطة تروج، بمناسبة او بدونها، «الاصلاح». لكن التجربة بينت ان هذا «الاصلاح» هو عبارة عن **تكتيك** يندرج في اطار استراتيجياتها للبقاء لأطول فترة ممكنة معاندة رياح التغيير المطلوبة، بعد ان ثبت عجزها عن ايجاد حلول ومخارج مقبولة للازمة البنيوية والمتعددة الصُعد، بل ادت كل ممارستها الى اعادة انتاج هذه الأزمة، وأيضا عجزها عن التعاطي مع التغيرات العاصفة التي شهدتها البيئة الاقليمية والدولية خلال السنوات الاخيرة.

نعم. في مواجهة تحديات الازمة الاقتصادية المتفاقمة التي اقترنت بانخفاض اسعار النفط الخام في الاسواق الدولية والتحديات الكبيرة التي طرحها فيروس كورونا المستجد، تحتاج البلاد الى اصلاح اقتصادي حقيقي وليس شكليا، اصلاحا يركز ويستند على **طائفة من الشروط**، من بينها:

• الإصلاحات مشروطة بمناخها، لذا ليس صحيحا الحديث بالعموميات. وهذه «الإصلاحات» المقترحة لمواجهة الازمة عليها أولا وقبل كل شيء الاجابة على **سؤال استراتيجي** وهو: هل هذه الاصلاحات المطروحة هي استجابة للازمة البنيوية الراهنة، وما تحمله من تحديات خطرة أم أنها تطبيق لمفردات خيار نيوليبرالي تمليه المؤسسات المالية والنقدية الدولية وخصوصا الاذعان لوصفة صندوق النقد الدولي السيئة الصيت؟

- **الانطلاق من الاحتياجات الفعلية الموضوعية** لمجتمعنا في اللحظة الراهنة والتي تكمن في **تحقيق** التنمية المستدامة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية بالاستناد إلى الإمكانات الذاتية من جهة، مع السعي لبناء **علاقات** متفاعلة ومتوازنة ومتكافئة مع الاقتصاد العالمي **والاستفادة** من الجوانب الايجابية لعملية العولمة، **وتجنب الخلط** بين مضمونها وطابعها الموضوعي من جهة، وتجلياتها الرأسمالية الراهنة من جهة أخرى.

- **تجاوز الجدل حول دور كل من القطاعين الحكومي والخاص** من خلال **التغلب** على «المسلمات» الشائعة عند البعض بأن القطاع العام يعني الخسارة، وأن القطاع الخاص يعني الربح وبالتالي يجب المباشرة بخصخصة فورية، إذ أن الواقع يشير الى وجود أمراض اقتصادية تنتاب كلا القطاعين، ويتعين العمل على تجاوزها بدل الانشغال في «حرب المتاريس» بشأن من يتحمل المسؤولية.

- **الحاجة إلى تفعيل التعددية الاقتصادية** في هذه المرحلة. إن المطلوب اليوم هو **تحسين** أداء الاقتصاد الوطني، بقطاعاته المختلفة، **انطلاقا** من حقيقة أن لكل قطاع دوره المرسوم، فالتنمية المطلوبة في هذه المرحلة، **تعني** من بين ما تعنيه **الاستفادة** الصحيحة من كافة القطاعات.

- **توفير إجماع مجتمعي حول الإصلاح المطلوب، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال العلنية والمشاركة الفاعلة من مختلف أوساط المجتمع ومفكريه وخبرائه** عبر تدشين نقاش عام من اجل **بلورة** الموقف بشأن القضايا الكبرى أو المفاصل الأساسية للإصلاح المطلوب.

- **ضرورة توفر إرادة سياسية حازمة وقوى اجتماعية قادرة على وضع مشروع الإصلاح موضع التطبيق وتحويل مفرداته الى واقع ملموس**. وبمقابل ذلك لا بد من **تجاوز** كل تردد أو تأجيل أو الاكتفاء بخطوات ترقيعية.

- **أن يحظى الإصلاح بالمصداقية المطلوبة من مختلف قطاعات المجتمع**، وهذا يتطلب أن يرافق الإصلاح الاقتصادي جهود مركزة وحثيثة وصادقة للقضاء على الفساد وآليات إنتاجه و» ثقافته». ويعني ذلك ان برنامج الإصلاح والتطوير لن يحظى بالدعم والتشجيع الشعبي، ما لم يترافق بخطوات جادة للمحاسبة، تستهدف خلق مناخ نظيف ونزيه في معرض أداء الخدمة العامة، ويرتبط وجود هذا المناخ بمحاسبة وإبعاد رموز الفساد والحد من النزف. وبخطوات جدية لاستعادة الأموال العامة المنهوبة.

- أن **يترافق** الإصلاح الاقتصادي أيضا **بتحقيق إصلاح النظام الإداري والمالي والنقدي** بما في ذلك النظام الضريبي، بهدف تحقيق العدالة الضريبة المطلوبة.

- إن **مظلة اجتماعية** مطلوبة، وينبغي أن **تتوفر** لها الشروط الضرورية لتجاوز التهميش والاستقطاب الاجتماعي، وبالتالي الانخراط في الديناميكية الاجتماعية عبر تأمين العمل أو ضمان حد أدنى معقول من الدخل، وبما يضمن الارتقاء بنوعية الحياة في البلاد.

عدا ذلك يصبح الحديث عن «الاصلاحات» مجرد رطانة سياسية، وكسب للوقت.. أي **جعجعة بلا طحين.**

ولا بد هنا ايضا من بضع كلمات بشأن العجز المتفاقم في ميزانية 2020 وما يطرح من حلول بشأنه:

• إن اتجاه العجز في الموازنات السنوية وتفاقمه يعكس اختلالا هيكليا وليس شكليا، كما يجري تصويره من طرف البعض.

• لمواجهة العجز، نحتاج اذن الى مقاربة أخرى ينبغي تدشين نقاش مجتمعي بصددها، والتي تنطلق من **إعادة النظر في نمط الأولويات** المعتمدة من طرف الحكومة. وهذا لا يتطلب حلولا ترقيعية بل رؤية اجتماعية سياسية، تختلف عن تلك الرؤية التي حكمت نمط توزيع الأولويات للإنفاق. رؤية تنحاز للعقلانية الاقتصادية، والتنمية، وللعدالة الاجتماعية. وهذه، في الواقع العملي، قضية كثيرا ما أهملت عند صياغة الموازنات السنوية السابقة ووسائل تمويل العجز الحاصل فيها.

• ليس الأمر مجرد لعبة أرقام بين عجز وفائض.. بل إن الامر يتعلق بالرهانات الكبرى للمجتمع والرؤية الواضحة في تحقيقها. نحتاج هنا، في الواقع، الى تعريف دقيق للعجز وطبيعته وليس اللجوء الى لعبة الأرقام التي هي إحدى وسائل التعتيم على واقع يتمرد على «صانعيه».

• من المهم أن تتجنب الحكومة اختزال القضايا التنموية الكبرى وسد العجز في الموازنة بالمراهنة على التوصل الى اتفاقات مع المؤسسات المالية والنقدية الدولية الرأسمالية، للتغلب على المشكلات التي تواجه اقتصادنا في لحظة تطوره الملموسة، بما في ذلك أمر تمويل العجز من خلال الاقتراض من صندوق النقد الدولي او المؤسسات المالية الرأسمالية الكبرى. إن نهجا كهذا سيؤدي الى الإبقاء على ذات البنية الاقتصادية الأحادية الجانب، التي تهيمن فيها الريوع النفطية، رغم محاولات البحث عن مصادر أخرى للإيرادات غير النفطية.

والخلاصة، نحن **شهود مشاريع وخيارات عديدة، متصادمة ومتضاربة**، ولهذا فإن **الحاجة ملحة** اليوم أكثر من أي وقت مضى لتدشين حوار وطني شامل، يساعد على **تحديد** الإطار المطلوب للاقتصاد الذي تريده بلادنا، **وبناء** اقتصاد وطني، ذي بنية ديناميكية **قادرة** على **التكييف** مع المتغيرات الناشئة على ارض الواقع العراقي، وكذلك مع **متطلبات** التحولات الاقتصادية والسياسية العالمية، وما تطرحه من استحقاقات. ونأمل ان تثير المقالات المنشورة في هذا العدد المزدوج، 413-414، ضمن ملف الازمة، اهتمام باحثين آخرين يدخلون الى حلبة النقاش، بأفكار ومقاربات جديدة.

مقـــــالات

بالعربية لأول مرة
مراسلات ماركس - فيرا زاسوليج

ثامر الصفّار

تضم المادة التي نعرضها للقارئ العربي لأول مرة، مع مقدمة توضيحية، رسالة بعثتها فيرا زاسوليج الى ماركس بتاريخ 16 شباط/ فبراير 1881، وسعي ماركس للاجابة عليها من خلال صياغته أربع مسودات (الأولى من 4500 كلمة، والثانية من 2000 كلمة، والثالثة من 2000 كلمة، والرابعة من 300 كلمة)، لينتهي اخيرا الى صياغة رسالة قصيرة من 350 كلمة، ارسلها الى فيرا في آذار/ مارس 1881. وقد نُشرت الرسالة ومسودات الاجابة عليها لاول مرة بالروسية عام 1924، ثم خضعت لبعض التصحيحات ونُشرت بلغتها الأصلية عام 1985 ضمن مشروع المؤلفات الكاملة لماركس وأنجلز MEGA. وفي عام 2014، في شهر ايار تحديدا، تمت ترجمتها الى اللغة الإنجليزية من قبل أندي بلوندين. وها نحن اليوم ننشر ترجمتها الى العربية لأول مرة اعتمادا على الترجمة الإنجليزية، اضافة الى فقرات مقتطفة من المسودات الاربعة الاولى.

مقدمة:

في عام 1881 كتب ماركس رسالة إلى فيرا زاسوليج (1849 - 1919) ، وهي من أهم متابعيه الروس، تتناول مسألة النظرية والتنبؤ عندما يتعلق الأمر بالتفكير في المسار المستقبلي للتاريخ. خصوصا، نكرانه بأن نظرياته قد حددت الآثار التنبؤية للتطور الرأسمالي أو الاشتراكي في روسيا. وسأورد لاحقا بعض الفقرات.

القضية مهمة: هل فكر ماركس في منظومته المعرفية باعتبارها نظرية تنبؤية عامة؟ الرسالة نفسها تشير بوضوح إلى أنه لم يفعل ذلك.

الرسالة مثيرة للاهتمام من عدة نواح. أولاً، انها ترفض، جهارا، فكرة أن نظريات ماركس الاقتصادية والتاريخية مناسبة لمهمة تحديد المسار الضروري أو الحتمي للتطور التاريخي. وإنها ترفض فكرة التسلسل الضروري لأنماط الإنتاج. بدلاً من ذلك، يُظهر ماركس نفسه على أنه يدرك الاحتمالية الموجودة في التطور التاريخي، فضلاً عن الدرجة التي يخلق بها التاريخ ظروفا جديدة في مساره، تؤثر على التطورات المستقبلية.

السمة المهمة الأخرى للرسالة هي تحليلها الجوهري للخصائص المادية للمشاعة الفلاحية الروسية، والإمكانات التي يمتلكها

هذا الشكل الاجتماعي لتشكيل اللب المادي لطريق بديل الى الاشتراكية في روسيا. ومثلما توضح الرسالة، يعتقد ماركس أن العلاقات الاجتماعية المرتبطة بالمشاعة الفلاحية توفر أساسا اجتماعيا محتملاً لاقتصاد اشتراكي حديث. وسيكون هذا اقتصادا ليس "ما بعد الرأسمالي" ولكنه مع ذلك متقدم تقنيا واجتماعيا.

على نحو ما، تتنبأ طروحات ماركس بنظرية "من جاء بعده من المطورين" - على سبيل المثال، ألكسندر جيشنكرون (1904 – 1978) في مؤلفه "التخلف الاقتصادي في المنظور التاريخي"(1962). يقول ماركس إن الاشتراكية في روسيا كانت ممكنة من خلال مسار بديل. إذ يمكن لنسخة من الاشتراكية في روسيا مستندة على مشاعة "قديمة، مهجورة" ان تستفيد من التطورات في التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعي التي خلقتها الرأسمالية المتطورة. وليس من الضروري أن يمر المجتمع الروسي بعملية التحديث الزراعي والتكنولوجي التي مرت بها إنجلترا لعدة قرون. ويمكن لروسيا، بدلاً من ذلك، اعتماد التقنيات الحديثة المتاحة الآن.

لا تكمن أهمية هذه الرسالة في التنبؤات التاريخية التي تطرحها، بل في المثال الذي تقدمه عن الطريقة التي عمل بها عقل ماركس. يمثل المنطق هنا مثالا جيدا على نهج ماركس المادي للتاريخ. إنه يريد الوصول إلى مستوى، مفصل إلى حد ما، من فهم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية - علاقات الملكية - التي شكلت شكلاً تاريخيا للمشاعة الريفية. ثم يسعى إلى تقديم تحليل للطريقة التي يُتوقع أن تتطور بها هذه العلاقات في ظل مجموعة محددة من الظروف التاريخية. والمفتاح في هذا التحليل، هو خلق الشكل المعين للملكية، والذي يتوافق مع هذا النظام الاجتماعي – أي، علاقات الإنتاج الاجتماعية.

سأسمح لنفسي لأن أفترض أن الرسالة توضح شيئا آخر أيضا: اهتمام ماركس في اواخر حياته بإيجاد مسار بديل للاشتراكية. فقد مضى زمن طويل على ثورات 1848، ولم تنشأ ثورة بروليتارية. اما كومونة باريس فقد جرى قمعها بشكل حاسم وعنيف عام 1871. ولم تكن حالة الطبقة العاملة مؤاتية في البلدان الرأسمالية المتقدمة - فرنسا أو ألمانيا أو بريطانيا. لذا فإن آفاق الثورة في العالم الرأسمالي المتقدم، لم تكن مشجعة لماركس. ولذا فإن العثور على بعض الأمل في عملية بديلة للتطور الاجتماعي، يمكن من خلالها تحقيق أهداف الاشتراكية، كان احتمالا جذابا لماركس.

فيما يأتي الفقرات المقتطفة من المسودات الاربعة للرسالة:

1) في التعامل مع نشأة الإنتاج الرأسمالي، ذكرت أنها تقوم على "الفصل التام للمُنتِج عن وسائل الإنتاج" (ص 315، العمود 1، الطبعة الفرنسية لرأس المال)، وأن "أساس كل هذا التطور هو سلب المُنتِج الزراعي. وحتى الآن، لم يتم تحقيق ذلك بطريقة جذرية في أي مكان باستثناء إنجلترا... ولكن جميع دول أوروبا الغربية الأخرى تمر بنفس العملية" (المصدر السابق، العمود الثاني).

لذا فقد حددت "الحتمية التاريخية" صراحة، على دول أوروبا الغربية. ووضحت لماذا حددت ذلك؟ أتمنى عليك العودة الى الفصل الثاني والثلاثين للمقارنة، حيث أقول:

إن "عملية التخلص من تحويل وسائل الإنتاج الفردية والمتفرقة إلى وسائل إنتاج مركزة اجتماعياً، التخلص من ملكية الخنازير للكثير عبر سلب مؤلم وعنيف لممتلكات العمال، وحصرها بأيديهم فقط، التي تشكل الأصل لنشأة رأس المال... الملكية الخاصة، المستندة على العمل الشخصي... ستحل محلها الملكية الرأسمالية الخاصة، المستندة على استغلال عمل الآخرين، على العمل المأجور" (ص 341، العمود الثاني).

وبالتالي، في التحليل النهائي، انها مسألة تحويل شكل من أشكال الملكية الخاصة إلى شكل آخر من أشكال الملكية الخاصة. وبما أن الأرض التي هي في حوزة الفلاحين الروس لم تكن، يوما، ملكا خاصا لهم، فكيف يمكن تطبيق هذا التطور؟

2) من الناحية التاريخية، فإن الحجة الجدية الوحيدة التي طُرحت لصالح حل المشاعة الفلاحية الروسية هي: من خلال العودة إلى الوراء، يمكن العثور على ملكية مشاعية من نوع غابر بهذا القدر او ذاك، في جميع أنحاء أوروبا الغربية، وقد اختفت بفعل زيادة التقدم الاجتماعي. فلماذا تتمكن من تفادي نفس المصير في روسيا وحدها؟ أجيب: لأنه في روسيا، وبفضل مجموعة فريدة من الظروف، فإن المشاعة الريفية، التي لا تزال قائمة على نطاق وطني، قد تفصل نفسها تدريجياً عن خصائصها البدائية وتتطور مباشرة كعنصر للإنتاج الجماعي على نطاق وطني. وبفضل معاصرتها للإنتاج الرأسمالي بالتحديد، فإنها قد تلائم عمليات الاستحواذ التامة التي قام بها الانتاج الرأسمالي، دون أن تواجه كل مصائبه المخيفة. ان روسيا لا تعيش بمعزل عن العالم الحديث. كما أنها ليست فريسة غزاة أجانب مثل جزر الهند الشرقية.

الخلاصة المهمة هنا إذاً، من الناحية النظرية ، يمكن "للمشاعة الريفية" الروسية أن تحافظ على نفسها من خلال تطوير أساسها، الملكية العامة للأراضي، ومن خلال القضاء على مبدأ الملكية الخاصة المتضمن فيها أيضا؛ يمكنها أن تصبح نقطة انطلاق مباشرة للنظام الاقتصادي الذي يميل المجتمع الحديث نحوه؛ يمكنها قلب صفحة جديدة دون أن تباشر قتل نفسها؛ يمكنها جني الثمار التي أغنى بها الإنتاج الرأسمالي البشرية، دون المرور بالنظام الرأسمالي، وهو نظام، لا يُنظر إليه إلا من وجهة نظر مدته المحتملة في حياة المجتمع. ولكن علينا أن نهبط من النظرية البحتة إلى الواقع الروسي.

رسالة من فيرا زاسوليج الى ماركس

16 شباط/ فبراير 1881

المواطن النبيل،

لا بد انك تعي تماما مقدار الشعبية الكبيرة التي يحظي بها مؤلفك رأس المال في روسيا. فعلى الرغم من مصادرة الطبعة، فقد جرت قراءة النسخ المتبقية، واعادة قراءتها من قبل جمهرة من الناس المتعلمين، بهذا القدر او ذاك، في بلدنا؛ كما تمت دراسته من قبل أناس جادين. لكنك ربما لا تدرك الدور الذي يلعبه مؤلفك رأس المال في سجالاتنا حول المسألة الزراعية والمشاعة الريفية (Rural Commune) في روسيا. وانت تعرف، اكثر من أي شخص آخر، مدى راهنية هذه المسألة في روسيا. وتعرف ايضا رأي تشرينيجيفسكي عنها. ولا تزال مطبوعاتنا – أوتشيستفينيا زابسكي على سبيل المثال –

تروج افكاره. ولكن من وجهة نظري، انها، وقبل كل شيء، مسألة حياة او موت بالنسبة لحزبنا الاشتراكي. فحتى المصير الشخصي لاشتراكيينا الثوريين يعتمد، بطريقة او اخرى، على الاجابة على هذه المسألة. اذ ثمة احتمالين فقط. أما ان تتمكن المشاعة الريفية، المتحررة من مطالب الضرائب الباهظة والدفع للنبلاء والادارات التعسفية، من التطور باتجاه اشتراكي، أي، التنظيم التدريجي للانتاج والتوزيع الخاص بها على أساس جمعي. وفي هذه الحالة يكون على الاشتراكي الثوري تكريس كل قوته لتحرير وإنماء المشاعة.

واما، اذا ما كان قدر المشاعة هو التلاشي والفناء، فإن كل ما يتبقى للاشتراكي، في حال كهذا، مجرد حسابات غير دقيقة، بهذا القدر او ذاك، لعدد السنين التي تحتاجها ارض المزارع الروسي لتصل الى ايدي البرجوازية، وعدد القرون التي ستستغرقها الرأسمالية في روسيا، لتصل الى مستوى يشابه بعض الشيء في تطوره المستوى القائم الان في اوروبا الغربية. وستكون مهمتهم حينذاك القيام بالدعاية بين اوساط عمال المدن، حيث سيستمر توافد هؤلاء العمال ذوي الاصول الفلاحية في اعقاب حل المشاعة، ويتم رميهم في شوارع المدن الكبيرة بحثا عن أجر.

إننا، في ايامنا هذه، نسمع كثيرا بان المشاعة الريفية هي شكل قديم محكوم عليه بالفناء من قبل التاريخ والاشتراكية العلمية، وباختصار، لا داعي للنقاش. ان من يحمل مثل هذا الرأي يسمون انفسهم تلاميذك المتميزين: ''ماركسيين''. فكثيرا ما تكون حجتهم: ''هكذا قال ماركس''. ''كيف يمكن اشتقاق ذلك من رأس المال؟'' والبعض الاخر يحتج قائلا ''انه لم يناقش المسألة الزراعية، ولم يقل شيئا حول روسيا''. فيرد عليهم تلاميذك بحسم، وربما بقليل من التهور ''كان بامكانه قول الكثير لو ناقش الاوضاع في بلدنا''.

لهذا فانك ستفهم، ايها المواطن، كم نحن متلهفون لمعرفة رأيك. ستقدم لنا خدمة عظيمة لو تمكنت من صياغة افكارك حول المصير المحتمل لمشاعيتنا الريفية، وحول فكرة الضرورة التاريخية لكل بلد في العالم في ان يجتاز جميع مراحل الانتاج الرأسمالي.

اسمح لي، باسم أصدقائي، ان اطلب منك، ايها المواطن، تقديم هذه الخدمة لنا.

اذا كان الوقت لا يسمح لك بصياغة افكارك بالتفصيل، يمكنك على الاقل ان تفعل ذلك على شكل رسالة تسمح لنا فيها بترجمتها ونشرها في روسيا.

مع خالص التحيات

فيرا زاسوليج

عنواني هو: امبريميري بولونيس، رو دي لوزان رقم 49، جنيف

الرسالة الجوابية لماركس

8 آذار/مارس 1881

41، شارع ميتلاند بارك، شمال غرب لندن

عزيزتي المواطنة،

منعتني ألامي، التي تؤثر عليّ بشكل دوري على مدى السنوات العشر الماضية، من الرد على رسالتك المؤرخة 16 شباط/فبراير. يؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم لكم نصا موجزا صالحا للنشر من قبلكم حول السؤال الذي شرفتموني بإثارته. قبل بضعة أشهر، لقد وعدت، فعلا، ان أقدم نصا حول

نفس الموضوع إلى لجنة سانت بطرسبرغ. ومع ذلك، آمل أن تتمكن الاسطر القليلة التي سأكتبها من إزالة شكوكك حول الطريقة التي أسيء بها فهم ما يسمى نظريتي.

في تحليلي لمنبع وأصل الانتاج الرأسمالي قلت:

"في قلب النظام الراسمالي ثمة انفصال تام... للمُنتِج عن وسائل الانتاج... سلب ملكية المُنتِج الزراعي هو الاساس في كل العملية. هذ السلب لم يتحقق حتى الان بصورة جذرية الا في انجلترا.... لكن جميع البلدان الاخرى في اوروبا الغربية تسير في السبيل ذاته (رأس المال، الطبعة الفرنسية ص 315)".

ان "الحتمية التاريخية" لهذا السبيل، لهذا السبب، محصورة، بشكل جلي، في بلدان اوروبا الغربية. وسبب هذا التحديد موضح في الفصل 32: "الملكية الخاصة" المؤسسة على العمل الشخصي، قد حلت محلها الملكية الخاصة الراسمالية التي تقف على استغلال عمل الاخرين، على العمل المأجور (ص 340).

وعليه، ففي الحالة الغربية، هناك شكل من اشكال الملكية الخاصة تحول الى شكل آخر من اشكال الملكية الخاصة. ولكن في حالة الفلاحين الروس، فان ملكيتهم الجماعية سيكون عليها ان تتحول الى ملكية خاصة.

ولهذا فان التحليل في رأس المال لا يوفر اسبابا لصالح او ضد حياة المشاعة الروسية. لكن دراستي الخاصة، التي تضمنت العديد من المواد الاصلية، اقنعتني ان المشاعة هي نقطة ارتكاز للتجديد الاجتماعي في روسيا. ولكن لكي تقوم بهذا الدور يجب عليها اولا ان تزيل كل المؤثرات الضارة التي تحيط بها من كل جانب، ومن ثم يتوجب عليها ان تؤمن الشروط الطبيعية لتطورها العفوي.

يشرفني، عزيزتي المواطنة، ان اكون مخلصا لك، وتقبلي فائق الاحترام.

كارل ماركس

وباء كورونا وتداعيات انخفاض اسعار النفط وأسعار الأسهم مع الإشارة الى العراق

أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي

سيتم التركيز في هذه المادة على اربعة محاور؛ الاول، وباء كورونا من حيث اين ومتى ظهر هذا الوباء الذي ادى الى توقف كل انواع الانشطة الانسانية باختلاف مهامها وانواعها وتداعيات هذا التوقف معززا بانهيار اسعار النفط والذي ترتب على كل من وباء كورونا وانهيار اسعار النفط، انهيار في اسعار الاسهم في الاسواق المالية للدول الاكثر اصابة، وعلى النحو الاتي:

اولا- وباء كورونا :

كانت بداية ظهور فايروس كورونا، عندما تداول (8) افراد من المجموعة الطبية في مدينة ووهان الصينية التي كانت بؤرة هذا الفايروس، وبدلا من ان تقوم الحكومة في هذه المدينة من الطلب الى المختصين بالتأكد من صحة المعلومات واتخاذ الاجراءات الوقائية واعلام الجهات ذات الاختصاص، وجه لوم الى هذه المجموعة بل وتوبيخ من قبل الشرطة الصينية. وكان الطبيب المتوفى (وينليا نغ)، والذي تناقلت الفضائيات موضوع وفاته كونه كان في الخط الاول لمكافحة هذا الوباء، هو احد افراد هذه المجموعة. حيث ارسل الى زملائه على وسائل التواصل الاجتماعي معلومات حول الفايروس قبل اغلاق ووهان Wuhan بـ 21 يوما. وقد اعترف عمدة ووهان بعدم نشر المعلومات مبكرا، او في الوقت المناسب، رغم ان وكالة شينخوا الصينية قدمت تقريرا بـ 37 صفحة، تذكر فيه انها بينت المعلومات على المستوى الدولي من اجل مكافحة الفايروس وايجاد العلاج الناجح لكن بعض الاطراف الدولية. وكالعادة الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ودول على ذات المسار تتهم الصين انها هي المسؤولة عن هذا الوباء، كما ورد في صحيفة الديلي ميل البريطانية. وذكر بعض المختصين ان هذا الفيروس ينتقل بالملامسة والعطاس والتقبيل، واية اشكال اخرى من حالات الملامسة وقد انتقل الى العديد من دول العالم ومنها الولايات المتحدة الامريكية وايران وايطاليا واسبانيا وفرنسا ودول مختلفة. إلا ان اكثر الاصابات كانت في ايطاليا واسبانيا وايران والولايات المتحدة الامريكية، ودخل هذا الفيروس الى العراق يوم 24 شباط من العام الحالي، وكانت الاصابة حالة طالب ايراني يدرس العلوم الدينية في النجف وقد سفر الى بلاده. ثم بدأ بالانتشار بعد عودة

عراقيين من الخارج ومن بين الدول التي عادوا منها هي إيران التي انتشر فيها هذا الوباء بشكل واسع. والجدول رقم (1) يبين مجموعة الدول الاكثر انتشارا للفيروس من حيث الاصابات والوفيات. وكانت البداية لظهور هذا الوباء في السابع عشر من تشرين الثاني لسنة 2019، كما سبق ذكره في مدينة ووهان Wuhan الصينية، وبلغت الاصابات في الصين لغاية يوم 1 مايس/ 2020 بعدد 84,384 وكانت الوفيات 4,643 متوفى. لكن العدد الاكبر في الولايات المتحدة، اذ بلغ عدد المصابين 1,035,383 فرد وعدد المتوفين 55,337 فرد ايضا لغاية 1/ مايو(1). ويشير ذلك الى هشاشة النظام الصحي في هذا البلد الذي يشاغل حاله بإثارة الحروب ومحاربة الدول الضعيفة، واثارة المشاكل فيها، بينما بناؤه الصحي هش. وتلي الولايات المتحدة كل من اسبانيا وايطاليا التي يوصف نظامها الصحي بانه جيد، لكن الاجراءات التي اتخذتها السلطات الصحية في ايطاليا تجاه الحجر الصحي غير كافية. كما ان السكان لم يكونوا بمستوى الالتزام. ثم تأتي المملكة المتحدة وايران واخيرا العراق. وكانت اكثر الاصابات للأشخاص القادمين من دول الجوار وبعض الدول الاوربية والصين. ويتطلب الاستمرار في اتخاذ الاجراءات الوقائية من بينها الاكثر ضمانا لتفادي اتساع انتشار الوباء هو الحجر الصحي. لكن بالمقابل يحتاج ذلك الى ان تقوم الحكومات بدورها في تقديم العون والمساعدة لأصحاب الدخول الضعيفة. اولئك الذين يعتمدون في مصدر عيشهم على ما يحصلون عليه من الاعمال اليومية. وبالتالي فان الحجر جعل هذه الجماعات بلا مورد. كما يقتضي الحال ان تأخذ الجمعيات الخيرية ومنظمات المجتمع المدني دورها في ذلك، مع ان الدور الاكبر يقع على الدولة.

جدول (1)

عدد الاصابات والوفيات بوباء كورونا في الدول الاكثر انتشارا للفيروس

ت	الدولة	تاريخ اول اصابة	عدد الاصابات	عدد الوفيات
1	الصين	Nov.17	84.385	4.643
2	USA	Jan20	1.035.353	55.337
3	فرنسا	Jan24	128.121	24.342
4	ايطاليا	Jan29	205.463	27.967
5	اسبانيا	Jan31	213,435	24.543
6	المملكة المتحدة	Jan31	171.257	26.771
7	ايران	Feb19	94.640	6.028
8	العراق	Feb 24	2.085	93

Source:" COVID-19" World Health Organization

ثانيا: وباء كورونا وانخفاض أسعار النفط

ا ـ الطلب العالمي على النفط:

يتراوح الطلب العالمي على النفط بين 100 - 105 مليون برميل يوميا، ويوضح الجدول (2) الطلب العالمي لسنة 2019. وفي شهر كانون الثاني 2020 ارتفع الطلب بنسبة 0.2 مليون برميل يوميا، اي بمقدار 200 الف برميل يوميا ليصل الى100.7 مليون برميل يوميا، بسبب انخفاض طلب المجموعة الصناعية التي انخفض طلبها على النفط الى 47.0 مليون برميل يوميا. وكان الانخفاض بنسبة 1.9%. وفي المقابل ارتفع الطلب لمجموعة بقية دول العالم الاخرى ليصبح 53.7% وفي ذات الوقت ارتفع المعروض بمقدار 500 الف برميل يوميا ليصل الى 101.0 مليون برميل يوميا(2). وقد ادى انتشار فيروس كورونا الى توقف الانشطة الاقتصادية لأغلب القطاعات الاقتصادية مع حجر اجباري لتفادي انتشار الفايروس، وبذلك توقف الطيران ووسائل النقل بكل انواعها، وادى الهلع الناتج عن انتشار الوباء الى ان يتفادى الناس ممارسة اعمالهم. هذا الركود في النشاط ادى الى انخفاض الطلب على النفط، اضافة الى الخلافات بين اللاعبين الكبار في منظمة اوبك بلاس، والذي حصل بين روسيا والسعودية، حول تخفيض الإنتاج بمقدار مليون ونصف برميل، وموافقة 22 دولة على المقترح السعودي. لكن روسيا رفضت ذلك، ورفض روسيا للمقترح بهدف الضغط على النفط الصخري الامريكي، والذي تطور انتاجه، ومكن الولايات المتحدة ان تكون المنتج الاول متفوقة على كل من روسيا والسعودية. وكان الرفض الروسي، قد حفز وزير الطاقة السعودي للإعلان عن زيادة في ضخ النفط الى الاسواق، مع خصم 8 دولارات لكل برميل، وهو الامر الذي ادى الى انهيار اسعار النفط قبل خروج المجتمعين من قاعة الاجتماع. وكان كل من الوزيرين يقول انه قادر على ضخ المزيد من النفط. وبسبب ردود الفعل هذه مصحوبة بانتشار فايروس كورونا، وتوقف الطلب الصيني بسبب القيود على حركة النقل البرية والجوية وهي اكبر المستوردين للنفط. هبطت الاسعار الى ادنى مستوياتها تاريخيا، والى اقل من 30 دولارا، إلا ان العودة الى المباحثات مرة اخرى عبر وسائل الاتصال في اذار الماضي لمنظمة اوبك، اضافة الى روسيا تم الاتفاق على تخفيض الانتاج من 1/ 5 - 30/ 6/ 2020 بمقدار 10.3 مليون برميل ومن 1/ 7 – 31/ 12 /2020 بكمية 8 مليون برميل، ثم من 1/ 1/ 2021 – 30/ 4/ 2022 بمقدار 5 مليون برميل. والجدول رقم (2) يبين الطلب العالمي على النفط لسنة 2019.

ان الطلب نهاية سنة 2019 هو 99.7 مليون برميل، كما موضح في الجدول (2)، وقد ازداد الطلب العالمي على النفط بمقدار 200 الف برميل في كانون الثاني سنة 2020. وكان النفط الصخري في الولايات المتحدة الامريكية، قد شكل تهديدا لمنظمة اوبك وروسيا والسعودية، وهو احد انواع النفط الخفيف ومصدر انتاجه من صخور تحتوي على ترسبات مادة الكيروجين، ويتم تحويلها بالحرارة الى سائل هيدروكربوني بديل للنفط الخام، وتكلفة استخراجه اعلى، ويختلف عن النفط الخام الرملي او الغاز الصخري، والنفط الخام الطبيعي، وتحديدا

جدول (2)
الطلب العالمي عل النفط خلال سنة 2019

المجموعة	1st quar.	2nd quar.	3rd quar.	4th quar.	المعدل
الدول العربية:	7.1	7.1	7.1	7.1	7.1
الدول العربية الاعضاء في اوبك	6.1	6.1	6.1	6.1	6.1
الدول العربية الاخرى	1.0	1,0	1.0	1,0	1,0
منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية امريكا الشمالية اوروبا الغربية المحيط الهادي	47.7 25.1 14.1 8.0	47.2 25.3 14.3 7.6	48.5 26.1 14.8 7.7	48.5 26.1 14.5 8.1	48.0 25.7 14.3 8.0
الدول النامية الشرق الاوسط ودول اسيوية افريقيا امريكا اللاتينية	33.0 22.2 4.5 6.0	32.8 21.8 4.4 6.6	33.3 22.2 4.4 6.9	33.2 33.2 4.5 6.5	33.1 22.1 4.4 6.6
الصين	12.6	13.2	13.0	13.5	13.1
روسيا	4.7	4.7	5.0	5.0	4.8
اوروبا الشرقية	0.8	0.7	0.8	0.8	0.8
العالم	98.8	98.6	100.6	101.1	99.7

المصدر: النشرة الشهرية حول التطورات البترولية في الاسواق العالمية. اوبك، كانون الثاني، 2020.

في ولاية تكساس الغنية بهذا النوع من النفط حصلت ثورة في انتاجه(3). وان زيادة انتاج هذا النوع من النفط، تشكل تهديدا لمنظمة اوبك والدول المنتجة الاخرى، لان ذلك يجعل الولايات المتحدة الامريكية اكبر منتج للنفط، وتحتل مكانة السعودية، وقد حصل ذلك كما تمت الاشارة إليه. وقد ارتفع النفط الصخري خلال شهر كانون الثاني من هذه السنة بمقدار 2 مليون برميل يوميا، ليصل الانتاج الى 9.05 مليون برميل على الرغم من انخفاض عدد الحفارات العاملة خلال اربعة عشر شهرا، وبنحو حفارة واحدة قياسا بشهر كانون الاول 2019 الى ان اصبح عدد الحفارات 716 حفارة، إلا ان الطلب بدأ بالانخفاض التدريجي بسبب الوباء والناتج عن توقف المصانع ووسائل النقل – قطاع الطيران الذي يستهلك يوميا 11 مليون برميل، وتوقف المستهلكين عن الطلب، واول المستهلكين هو الصين، باعتبارها اكبر المستوردين للنفط، وموسم صيانة محطات التكرير، ولا سيما في اسيا والمحيط الهادي واوروبا، وتراجع التوترات

في الشرق الاوسط، اضافة الى وجود مخزون تجاوز 3461 مليون برميل، ووجود ناقلات في البحار، لا تجد مخازن لتفريغ حمولتها. وفي ظل ظروف كهذه لا تتحسن اسعار النفط خلال الاشهر القادمة، إلا ضمن حدود متدنية، ولن تعود الى اسعارها السابقة قريبا.

ب- أسعار النفط:

انخفض الطلب على النفط بسبب وباء كورونا. والذي ادى الى توقف الاعمال والنشاط الاقتصادي في كل العالم، وبسبب هذا التوقف ينخفض الطلب بالتأكيد. وهناك فائض وخزين كان بمستوى عالٍ، لكن السبب الاول لانخفاض اسعار النفط هو تصريح وزير الطاقة السعودي حول سياسة السعودية في انها ستزيد الصادرات بمقدار2.5 مليون برميل يوميا. وقد اثر الخلاف الروسي - السعودي. ومن مراجعة الجدول رقم (3) الذي يتضمن اسعار النفط لسنة 2019، يمكن ان يستنتج بان الاسعار سنة 2020 كان من الممكن ان تبقى ضمن حدود اسعار 2019, حيث السعر في كانون الثاني هذه السنة 2020 كان بحدود 65.1 دولارا، واستمر في شباط عند حدود 50 - 66 دولارا، بدليل كان سعر بيع النفط العراقي بـ51 دولارا، بانخفاض 5 دولارات عن السعر الذي اعتمد في بناء الموازنة العامة في العراق لسنة 2020، التي لم تقر لحد الان. حيث اسعار البيع للنفط العراقي خلال شهري اذار ونيسان هو 28,182 و13,801 دولار، وهي اسعار متدنية، وتشكل احباطا للحكومة، كونها ستكون امام ازمة مالية خانقة.

جدول (3)
أسعار سلة اوبك وبعض النفوط الاخرى خلال الفترة من كانون الثاني 2019 ولغاية آذار 2020

الشهر	سلة اوبك	العربي الخفيف	خليط الصحراء الجزائري	البصرة الحفيف	الكويت	موريان الامارا تي	السدرة الليبي	دبي	برنت	قطر البحري	غرب تكساس
كانون 2	58.7	59.6	59.3	58.2	58.7	60.8	58.3	59.1		59.5	51.6
شباط	63.8	64.9	64.3	63.3	63.9	65.6	63.2	64.4	64.0	65.10	55.0
اذار	66.4	67.4	66.4	66.1	66.8	68.0	65.4	66.9	66.1	67.6	58.2
نيسان	70.8	71.9	71.2	70.5	71.2	71.5	70.5	70.9	71.2	71.8	63.9
مايس	70.0	70.8	64.8	69.8	70.1	69.7	70.3	69.6	70.9	71	60.7
حزيران	62.9	63.5	63.9	62.7	62.6	62.8	63.6	61.6	64.0	63.5	54.7
تموز	64.7	65.6	58.2	64.4	64.0	64.9	63.4	63.2	63.9	64.8	57.5
اب	59.6	60.8	58.8	59.2	60.4	60.2	58.38	58.9	58.8	60.8	54.8
ايلول	62.4	62.7	62.5	61.9	62.2	62.4	62.32	61.1	62.6	63.1	56.9
ت1	59.9	61.0	60.5	59.5	60.5	60.9	59.8	59.5	59.7	61.8	54.0
ت2	62.9	64.0	63.9	62.5	63.7	63.5	63.5	61.9	63.1	64.9	57.3

ثالثا: أسعار الاسهم ومؤشرات الاسواق المالية:

ا- اسعار الاسهم

كان لتداعيات انتشار فيروس كورونا آثار كبيرة وواضحة على الاقتصاد العالمي. هذا الوباء الذي كانت بدايته في الصين، كما تمت الاشارة إليه. وترتب على ذلك توقف النشاط الاقتصادي تماما إلا بعض القطاعات التي تتولى تقديم الخدمات الصحية لمكافحة هذا الوباء، وما تقوم به القوات الامنية ومحال التسوق لتلبية اختياجات الناس. وتبعا لذلك توقف الطيران والنقل والمصانع وحركة الناس عموما، ما ادى الى حجر اعداد هائلة من البشر، وترتب على ذلك تكاليف باهظة بشرية لا تعوض، ومالية مؤثرة. وبالتأكيد تتأثر اسواق المال العالمية والمحلية، وحصلت تغييرات في عمليات البيع والشراء لأسهم الشركات بسبب تفشي هذا الوباء. وهذا ادى الى التاثير على العديد من الاستثمارات وتوقف العمليات الانتاجية وتراجع النمو الاقتصادي. وقد حاولت بعض الدول التقليل من آثار هذا الوباء كما حصل في الولايات المتحدة، حيث قدمت 2 مليار دولار كمساعدات مالية الى العمال والشركات الصغيرة، كما ضخ الاحتياطي الامريكي 500 مليار دولار كسيولة، لتشجيع الانفاق. كما فعلت البنوك المركزية في بريطانيا وكندا واليابان وكذلك تخفيض اسعار الفائدة للتخفيف من آثار الوباء. كما جرى في دول اخرى ومنها الصين التي ألزمت الناس بالحجر الالزامي، وقدمت المساعدات بتلبية الاحتياجات الى المساكن. كما اتحذت مؤسسة الاحتياطي الفيدرالي خطوة على سبيل خفض الفائدة من اجل تقليل كلف الاقتراض والتشجيع على الانفاق للتقليل من آثار هذا الفيروس. لكن ما زال التخوف مستمرا من ان تكون الآثار اكثر وقعا.

ب – مؤشرات الاسهم:

يعد مؤشر الاسواق المالية الاكثر موثوقية في اسواق الاسهم، كما يقول Onell)) الذي ينصح المستثمرين الذين يتابعون الاختلافات بين مؤشرات الاسواق المالية باعتماد هذا المؤشر، لان هذا المؤشر يدرس حركة اسعار اسهم الشركات المسجلة في الاسواق المالية، والتي تتداول اسهمها في هذه الاسواق. وهذا المؤشر يعبر عن حركة الاسعار التي تتاثر بعوامل سياسية واقتصادية عديدة، وجاء هذا الوباء كواحد من العوامل المؤثرة والمفاجئة، وقد انعكست آثاره بشكل مباشر على اسعار الاسهم، حيث توقفت حالات التداول المباشر باستثناء حالات التداول الالكتروني الذي انعش بعض الاسواق عن حالات الانخفاض في البداية، اي استخدامات التكنولوجيا المتطورة التي سهلت الاستثمارات الالكترونية في الاسواق المالية، لكن التردد موجود من قبل المستثمرين. ويوضح الجدول (4) تأثر مؤشرات مجموعة من الاسواق المالية، وفي بعض الدول الاكثر في عدد الاصابات والوفيات؛ فالبعض من المؤشرات استمر في الهبوط، فمثلا شهد مؤشر شنغهاي تحسنا في شباط الماضي، لكنه تأثر اكثر في شهري آذار ونيسان. اما مؤشر باريس ونيويورك وميلانو ولندن وطوكيو وهونغ كونغ فاستمرّ بالانخفاض، كذلك كان موشر العراق. اي ان هذه المؤشرات تأثرت بالوباء وبالتاكيد كان لانخفاض اسعار النفط اثر في ذلك ايضا.

جدول (4)
مؤشرات الاسواق المالية للأشهر كانون الثاني – نيسان 2020

ت	الدولة	مؤشرات الاسواق المالية	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
1	الصين	شنغهايSSE	3,085,20	2,746,61	2,970,93	2,734,52
		هونغ غونجHSI	28.543,52	26,356,98	26,291,68	23,085,79
2	امريكا	ناسداكIXCI	9,092,19	9,273,40	8,952,17	7,360,58
		نيويورك NYSE	14,002,49	13,677,92	12,827,99	9.844,85
3	فرنسا	باريسCAC40	6,041,50	5.832,51	5,333,52	4,207,24
4	ايطاليا	ميلانFTSE MIB	23,836.26	23,460,01	21,655,09	16,544,97
5	اسبانيا	مدريدIBEX	9,691,20	9,404,70	8,741,50	6,579,40
6	بريطانيا	لندنFTSE 100	7,604,30	7,326,31	6,654,89	5,454,57
7	ايران	طهرانTEDPIX	340,601,60	358,646,62	400,751,88	492,982
8	العراق	العراقISX60	494.38	378,371	462,81	444,90

وتبين الاشكال البيانية لمؤشر الاسواق المالية (1 - 10) حركة اسعار الاسهم للأشهر الاربعة من سنة 2020، حيث استمر مؤشر اسواق هونغ كونغ ونيويورك وباريس وميلان ومدريد ولندن والعراق بالانخفاض. في حين استمر مؤشر سوق طهران للأوراق المالية بالارتفاع، رغم انتشار الفيروس في هذا البلد. ويبدو ان استمرار تعرض ايران الى الحصار، دفع هذا البلد الى الاستمرار في التداول المباشر الى جانب التداول الالكتروني. اما في مؤشر شنغهاي فقد حصل تحسن في شهر اذار قياسا بشهر شباط. في حين أظهر مؤشر نيويورك انخفاضا واضحا، يشير اليه الجدول رقم(4).

شكل رقم (1)

مؤشر سوق شنغهاي – الصين

شكل رقم (2)

مؤشر سوق هونغ كونغ - الصين

شكل رقم (3)

مؤشر سوق ناسداك – الولايات المتحدة

شكل رقم (4)

مؤشر سوق نيويورك – الولايات المتحدة

شكل رقم (5)

مؤشر سوق باريس – فرنسا

شكل رقم (6)

مؤشر سوق ميلان - ايطاليا

شكل رقم (7)

مؤشر سوق لندن – المملكة المتحدة

شكل رقم (8)

مؤشر سوق مدريد – اسبانيا

رابعا : العراق ووباء كورونا وتداعيات انخفاض اسعار النفط

سيواجه العراق ازمة مالية حادة تماما في ضوء انخفاض اسعار النفط بشكل غير مجدي، لتنفيذ موازنة 2020، التي اعدت على اساس سعر برميل النفط عند حدود 56 دولارا، الا ان الاسعار تدهورت الى ما دون 30 دولارا، كما شهدت ذلك اسعار النفط العراقي في شهر اذار؛ حيث كان معدل السعر 28.182 دولار، وإيرادات شهرية بلغت 2,962.429, 920,08 مليار دولار. ثم انخفاض الاسعار الى 13.801 دولار في شهر نيسان، باجمالي ايرادات قدرها 1,423,499، كما يوضح ذلك الجدول (5).

جدول (5)
جدول الايرادات النفطية للفترة من كانون الاول 2019
ولغاية 30 - 4 - 2020 (9)

الشهر	كمية الصادرات - برميل	حجم الايرادات $	معدل السعر$
ك1-2019	10626534677	697622433,026	63.027
ك2-2020	10748559180	616338357724	60.139
شباط	9834794743	484189091199	49.232
اذار	10511852372	296242992008	28.182
نيسان	10314411	1423499	13.801

المصدر: موقع وزارة النفط العراقية

ويشير ذلك الى ان الموازنة ستواجه عجزا باكثر من 75%، اذا ما عرفنا ان الاسعار مستمرة بالانخفاض، وان التحسن الذي سيحصل عند انتهاء وباء كورونا لن يؤدي الى عودة اسعار النفط الى ما كانت عليه في الشهرين الاول والثاني من هذه السنة، 2020. وبالتالي فان الازمة المالية قادمة وشديدة التأثير على الدولة بالكامل، وعلى الفئات منخفضة الدخل اكثر تأثيرا. وقد نشرت صحيفة الواشنطن بوست الامريكية The Washington Post بعددها الصادر في الخامس من مايس/ 2020 مقالا بعنوان (انهيار اسعار النفط وهبوطها كان صدمة للاقتصاد العراقي). وما جاء في هذا المقال (وهي معلومات يعرفها المتخصصون العراقيون، وكتبوا عنها كثيرا، ولا تحتاج للنشر في مثل هذه الصحيفة لتنال المصداقية؛ اذ ان اهل القرية ادرى بشعابها): ان فيروس كورونا دفع بالاقتصاد العراقي الى حافة الكارثة، وهذا ناتج عن سياسة نظام اقيم بعد احتلال العراق عام 2003، والذي اعتمد سياسات ادت الى زيادة في اعداد العاطلين، الامر الذي دعا العراقيين بأعمار اقل من 24 سنة، ومن الشباب العاطل، الى الاحتجاج الذي توقف حاليا بسبب فيروس كورونا، وان العراق سيواجه عجزا كبيرا ويحتاج الى 40 مليار دولار (9). وهذا يوجب اعادة النظر في الموازنة الى 1/3، وستواجه الحكومة مشكلات مالية كبيرة، لا سيما ما يتعلق برواتب الموظفين والمتقاعدين، وشريحة الموظفين شريحة واسعة، يغلب عليها التضخم والبطالة المقنعة. ولأجل التخفيف من الازمة المالية الحادة، هناك بعض الخطوات التي لو عملت عليها الحكومة لكان لهذه الخطوات او الإجراءات اثر في التخفيف، وليس العلاج لهذه الازمة المالية الخانقة، ومن بين هذه الخطوات ما يأتي:

1/ السيطرة الكاملة على الايرادات من مصادرها المختلفة وتشمل:

1-1 الايرادات النفطية من جميع مصادرها وفي كل العراق.

1-2 تحصيل استحقاق العراق من شركات الاتصالات دون تأجيل والزامها من قبل الدولة للتقليل من اجور الخدمة وكلف الارصدة.

1-3 السيطرة الكاملة على ايرادات المنافذ الحدودية الرسمية وغير الرسمية واحالة المخالفين الى القانون.

1-4 السيطرة على ايرادات المطارات جميعا،

1-5 تحصيل الضرائب والرسوم بشكل قانوني وسليم.

2/ اصدار سندات مديونية بمبلغ مليون دينار للسند، بدلا من الدين الخارجي.

3/ توجه الدولة لإحياء قطاعاتها الاقتصادية، الزراعية، الصناعية، خدمات وسياحة، فالعراق فيه امكانيات كبيرة وشعب يعمل.

4/ حماية المنتج الوطني من خلال ايقاف الاستيراد لكل منتج ينتج في العراق، والامثلة كثيرة.

5/ دعم وتشجيع القطاع الخاص، والزام دوائر ومؤسسات الدولة باقتناء المنتج الوطني.

6/ الغاء الحلقات الزائدة والتي تشكل اثقالا ماليا على الموازنة العامة، والتي لم يكن لوجودها ضرورة بل كانت معرقلة لسير الاعمال الاقتصادية، لانها بنيت على اساس المحاصصة، ووفقا لذلك لا وجود لمصلحة بلد، بل ينظر الى مصلحة حزب او تشكيل او مذهب او قومية او اقلية، فهي مشكلة البلد الرئيسة.

7/ تقليص الانفاق العام والخاص بمختلف الاساليب؛ فهناك شعب يملك هذه الثروة، ولا يحصل القسم الاكبر منه على شيء يذكر منها.

8/ تخفيض رواتب الرئاسات الثلاث الى الحدود المعقولة، كونها تمثل ارقاما خيالية.

9/ تخفيض اعداد الحمايات والسيارات، فهي تشكل نفقات عالية كرواتب ونفقات اطعام وصيانة ووقود وكذلك تخفيض الايجارات لدور السكن للوزراء والنواب.

10/ الانفاق كما معروف، وفي كل دول العالم، يتم وفقا للقانون، لأناس موجودين ومعروفين، وبالتالي يكون دفع الرواتب لهم شخصيا، بعد التأكد من سلامة صدور اوامر تعيين أصولية. ويعني ذلك انه لا يجوز اعطاء مبلغ والطلب الى المسؤول ان يقوم هو بالتوزيع، وهذه الظاهرة معمول بها لسنوات عدة، ويبدو من عام الاحتلال. فالنائب مثلا مخصص له 20 او 30 فرد حماية، تسلم رواتبهم الى النائب، وهو يقوم بتسليم الرواتب اليهم. وليس صعبا ان يأتي بقوائم تواقيع لأشخاص لا وجود لهم. مع العرض ان الواجب تخفيض هذا العدد الى اربعة اشخاص. وعليه يجب حضورهم شخصيا للتأكد من سلامة الصرف.

11/ محاسبة الفاسدين أيا كان موقعهم، واحالتهم الى المحاكم، والاستعانة بقضاة دوليين، على ان تجري المحاكمة علنية في بغداد، وتعرض في الفضائيات ليكون الشعب على معرفة باللصوص الذين سرقوه، كي لا يبقى مساند لسارقيه وقاتلي ابنائه.

12/ الغاء الرواتب المتعددة، والاكتفاء بالراتب الافضل في حالة احقية المشمول بالراتب، حيث منحت رواتب الى اناس هم ليسوا سياسيين، بل كانوا سجناء لجرائم جنائية مختلفة، وليس صعبا التعرف إليهم.

13/ الغاء الرواتب التي اعطيت بشكل غير قانوني الى جماعات عبثت في البلاد، من حيث السرقة والقتل وحرق دوائر ومؤسسات الدولة، وتتسلم حاليا شهريا ارقاما خيالية، بعدد افراد العائلة، واكتسبت جنسيات اجنبية، وليس لديها ادنى انتماء للبلد، بل تقذفه

بأقذع الالفاظ. انه قرار لا تبيحه شريعة ولا يرتضيه قانون الا شريعة الغاب.

14/ دراسة وتلبية طلبات المتظاهرين لمدة زادت على ستة اشهر، واحالة قتلة المتظاهرين الى المحاكم المختصة، لينالوا جزاءهم العادل.

وان دعم هذه الخطوات، يتطلب الاسراع بتبني اجراءات كفيلة بتأهيل جيش حرفي ومهني، خال من الطارئين وحصر السلاح بيد الدولة فعلا لا قولا، لان في ذلك مع استقلالية القرار، وضمانا لتخفيف الازمة والسير في طريق اصلاح ناجح من خلال مؤسسات حكومية محوكمة، ومحاسبة الفاسدين وفقا للقانون مع استعادة الاموال منهم.

خامسا: الخلاصة والاستنتاجات

كان لظهور وباء كورونا اثر واضح على أسر البشرية، وبحدود 6 مليار نسمة. وعدد بهذا المستوى يعني توقف الأنشطة المختلفة. وكان للنشاط الاقتصادي الذي يشمل النشاط الصناعي والزراعي والتجاري والنقل والخدمات والانتاج بكل مفاصله، وبالتالي توقف هذا النشاط، له انعكاسات سلبية على كل الانشطة. فتوقف النقل جوا وبرا وبحرا، وهذا يعني توقف استهلاك الطاقة، حيث يستهلك قطاع الطيران لوحده 11 مليون برميل يوميا. ويسري ذلك على وسائل النقل البري والبحري. وكان لهذا الفيروس تأثير على حجم التداولات في الاسواق المالية، بحيث انعكس على مؤشرات الأسواق المالية، الامر الذي ادى الى هبوط المؤشرات لبعض الاسواق المالية. وقد استمر المؤشر في الانخفاض في الاسواق المالية في بعض الدول الاكثر اصابة بوباء كورونا. وكان للتداول الالكتروني دور في التداول، لكن الانخفاض في الاسعار استمر بسبب الرعب والتخوف الذي خلفه الوباء. يدعم هذا التخوف انخفاض اسعار النفط الذي كان الخلاف الروسي/ السعودي السبب في هبوط الاسعار على اثر تصريح الوزير السعودي، وقبل خروج المؤتمرين من قاعة المؤتمر. كان هدف الوزير الروسي هو الضغط على الشركات المنتجة للنفط الصخري، ورغم ذلك كانت الولايات المتحدة الامريكية مستمرة في انتاج النفط الصخري، بحيث اصبحت الدولة الاولى في انتاج النفط، واحتلت مركز السعودية، وكان الخلاف حول خفض الانتاج بمقدار 2,5 مليون برميل، الامر الذي رفضه الوزير الروسي، بهدف الضغط على الشركات التي تتولى انتاج النفط الصخري ذي الكلفة الاعلى. اما العراق فانه يعاني من ازمة مالية لم يشهدها في تاريخه، في حالة ليس لديه صناعة او زراعة او سياحة، فالسياحة تحتاج الى الامن. ويبدو انه ليس هناك تفكير في تأهيل القطاعات الاقتصادية. وقد شمل بتخفيض انتاج النفط بمقدار 1 مليون و60 الف برميل بأسعار

دون 30 دولارا، في حين موازنة سنة 2020 حددت على اساس 56 دولارا مع مديونية تتجاوز 100 مليار دولار، وتسديد سنوي للفوائد بحدود 8 مليار. هذا اضافة الى ان هناك بقية من تعويضات الكويت (وبحدود 2 مليار وزيادة)، جراء دخول الجيش العراقي إليها عام 1990، علما ان المبلغ الذي تم تسديده تجاوز الـ 65 مليارا. اضافة الى احتمال ان الشركات المنتجة للنفط، ترفض تخفيض الانتاج، لان ذلك يجعلها تخسر بمقدار كمية التخفيض مضروبا في ما تحصل عليه عن كل برميل، ولكن يجب ان تلزم بالتخفيض، وتخفيض اجورها ايضا. الازمة غير محسوبة، وهو الخطأ الذي وقعت فيه الإدارة التي ادارت واقرت ووقعت على هذه التراخيص. ولا بد ان تتولى الحكومة التي شكلت اخيرا (حكومة الكاظمي) اجراءات حازمة لتفادي انهيار قادم، وبالتأكيد يجب اعادة النظر بموازنة 2020 وتلبية طلبات المحتجين الذين سيعاودون نشاطهم الاحتجاجي، بعد انجلاء وباء كورونا .

المصادر:

1 - World Health Organization, https://covid19 who.in

2 - منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول (اوابك)، النشرة الشهرية حول التطورات البترولية في الأسواق العالمية، اذار، 2020.

3 - منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول (اوابك)، النشرة الشهرية حول التطورات البترولية في الاسواق العالمية، كانون الثاني، 2020.

4 - موقع وزارة النفط العراقية .

5 - The wall street Journal , vol ,cdc xv NO.101,30-4-2020.

6 - https// www.ceicdata.com

7- http//www.google .com/finance

8- https: //mubasher.info

9- The Washington Post, 5,may, 2020.

المنظومة الأمنية وتداعيات عسكرة المجتمع

د. معتز محي عبد الحميد

د. معتز محي عبد الحميد، مدير المركز الجمهوري للدراسات الاستراتيجية. كاتب وباحث في العلوم الشرطية ومكافحة الجريمة والارهاب. معد صفحة (ناس وعدالة) في جريدة (المدى)، وبرنامج حكمت المحكمة في اذاعة (المدى). نشر العديد من الدراسات والبحوث في الدوريات والصحف المحلية العربية والاجنبية. له العديد من الكتب والمؤلفات في علم الجريمة والارهاب، منها الشرطة المجتمعية بين النظرية والتطبيق، الارهاب وتجديد الفكر الامني.

تمهيد

تعتبر القضية الامنية من اكثر القضايا المهمة التي تستدعي التعامل معها بمنتهى الحرص والانتباه، ومنحها الاولوية في الدراسة والتحليل، خصوصا ما آلت إليه الاجواء السياسية في العراق، والتي اصبحت قاصرة احيانا على توفير مستلزمات التصدي للارهاب والعنف وقطع الطريق على تحركاته الخالية من الرقابة. وعلى هذا الاساس اصبحت القضية السياسية وادارة الملف الامني من القضايا المجتمعية التي تتأثر وتؤثر بالاخرى ومن المتعذر التعاطي مع قضية بمعزل عن القضايا الاخرى. اذ لا يمكن معالجة القضية الامنية وادارة هذا الملف المهم دون معالجة قضية الصراعات السياسية بين المكونات الحزبية والاجتماعية الاخرى. عليه يقتضي تشكيل تصور يعالج كل القضايا مجتمعة والتحرك صوبها في آن واحد. وهذا من الصعب تصور امكانية حدوثه ما لم يتوفر توافق سياسي حقيقي، بين اقطاب العملية السياسية، يرتقي الى مستوى الحاجة الموضوعية لتجاوز معطيات واقع، بات يهدد امن الوطن والمواطن من خلال مجموعة من الادارات الامنية التي اصبحت تشكل عبئا لصانع القرار الامني.

ان هدف الارهاب والعنف المنظم ليس قتل اكبر عدد من المواطنين فقط بل زرع بذور الفتنة والبغضاء والكراهية بين مكونات المجتمع والوصول بها الى حالة من الصراع والمواجهة والاقتتال الدائم لغرض استنزاف القوى السياسية والامنية، تمهيدا للقفز والهيمنة على السلطة واسقاط النظام السياسي برمته. وتأسيسا على ذلك فغياب الحدود المنهجية ما بين ماهو امني وماهو عسكري، وبين الواجبات العسكرية والواجبات الامنية الصرفة وبين الامكانات العسكرية والامكانات الامنية المتاحة وايضا بين مصادر القرار والتنفيذ

في الجانبين، ساعد على تغييب الهيكلية المؤسساتية لجهة كونها ليست فقط لا تفهم آلية انتقال القرار العسكري او الامني من التخطيط الى التنفيذ، وانما لأنها المدخل الوحيد لتحديد المسؤوليات وتدقيق ومعالجة الاخطاء والثغرات. وتأسيسا على ماسبق سوف يستند البحث على افتراض مؤداه: ان اسباب العجز في ادارة الملف الامني وثغراته المتكررة ونمطية الاداء العسكري والسياسي، تتطلب نوعا من الاستقرار السياسي في التحالفات بين القوى السياسية، كما ان هشاشة الوضع الامني تتطلب ضرورة للتعجيل في تاسيس شراكة حقيقية بين كافة الاطراف والقوى السياسية، على اختلاف توجهاتها وانتماءاتها والمذهبية، بحيث تستند الى صيغة متفق عليها ومقبولة من جانب تلك القوى.

• عسكرة المجتمع وانتشار السلاح

تعيش اغلب الشعوب الشرق اوسطية والعالم الثالث، مفهوم العسكرة بثقافتها وسلوكياتها، واساليب تفكيرها منذ مئات السنين. والعسكرة بمفهومها الفني المحض استراتيجية تعبوية وتدابير احترازية، لا غبار عليها، قد تلجأ لها الدول في حالة الطوارئ او لمواجهة عدوان خارجي او اختلال في الوضع الامني الداخلي، إلا انها تبقى حالة طارئة، تنتج بوجود المؤثر وتنتهي بزواله وبانقشاع الظروف التي شكلت تواجده، في دولة اوجدته في وضع معين.

والعسكرة رغم اهميتها في بعض الاحيان، إلا انها تبقى ضيفا غير مرحب به على الجسد المدني للمجتمع، يرغب برحيلها باسرع الاوقات؛ حيث يرى اكثر الباحثين بان المفهوم بشموليته، كمنظومة فكرية ومؤسساتية، هو امتداد للنموذج (الاسبارطي)، وهو النظام الاول من نوعه، على المستوى التنظيمي والتعبوي والفكري.

ولا نقصد بالعسكرة هو ان يكون الجميع في حالة خضوع للماكنة العسكرية ومنظومتها الاستخبارية، بل ان العسكرة قد تنتج بشيء تتابعي، ناتج من خضوع الدولة بسائر مؤسساتها لقرار المنظومة العسكرية، تخطيطا وتنفيذا. وهذا ما يحدث في عموم دول العالم الثالث تقريبا؛ حيث يعيش حالة من التسلط المقيت للاجهزة الامنية وتدخلها السافر في جميع نواحي الحياة، بحيث ان المواطن البسيط لايمكن تعيينه او توظيفه في دائرة ما إلا بموافقة اجهزة الامن والاستخبارات، وكذا الحال في الترشح لمنصب معين او حتى التنافس على مقعد دراسي وغير ذلك. بل ويصبح الفرد في مثل تلك الدول لا يخاف من اي جهاز قضائي ورقابي بقدر خوفه من الاجهزة الامنية والاستخبارية بعنوانها القمعي لا القانوني.

ان الاجهزة الامنية في الانظمة العربية، تعتبر صاحبة القرار النهائي، الذي تبنى عليه الحكومات سياساتها، ولا عجب في ذلك فالكثير من رؤساء تلك الدول هم جزء طبيعي من المنظومة العسكرية، وهو يحمل رتبة معينة فيها، بل ان الكثير منهم جاءت به تلك المنظومة المرعبة الى سدة الحكم، ولم يكن للشعب اي دور في تنصيبه او اقالته.

لقد شكلت العسكرة في اكثر الدول الشرق اوسطية حالة من الكبت النفسي

للشعوب وطوقته باسوار متعددة اولها التنصت السري والمتابعة (الظلية) واخرها الاعتقال التعسفي لتكون بذلك ثقافة مستشرية وحالة معاشة يوميا. اما شعارات الاجهزة الامنية المنفذة لمفهوم العمل العسكري من خدميتها للمجتمع وحفظها لأمنه فهي اصبحت لدى المواطن العربي لا تتعدى أن تكون كلمات توضع على الجدران، لتغازل مشاعر المسؤولين المهمين، على اساس انهم يملكون دولة مثالية الحكم والادارة.

الحديث بهذا الاتجاه ليس الغاية منه التهجم على المنظومة العسكرية بمعناها المهني ووظيفتها المقدسة بالدفاع عن ارواح الابرياء وسلامتهم؛ فهي مؤسسات وطنية في انشائها وتكوينها، إلا ان اغلبها انحرف عن مهمته الاصلية، ليكون اداة بيد الدكتاتورية لقمع الشعوب، ووأد الحريات. فبدلا من أن تكون في خدمة المجتمع وحمايته أصبحت عبئا عليه، وينخر جسدها، فترى اغلب المنتسبين فيها يخجل من أن يكشفوا وجوههم للناس، وبشكل خاص بعد انتهاء مدة الخدمة، مما يعني أنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أن المجتمع لا يقبل بسلوكياتهم.

هذا الفكر والطريقة المستخدمة بشتى الاعذار من قبل الانظمة المتعاقبة في العراق، جعلت منها ثقافة ملازمة لمفهوم الحكومة، وغيبت وابعدت سيادة القانون المدني والتعايش الحضاري، وابدلته بثقافة الخوف من شخوص العسكر ودوائر الامن، ايا كان نوعها. وهذا بدوره ولّد خوفا مستشريا حتى في قمة الهرم لدى الحكومات من الانقلابات العسكرية.

ولتسليط الضوء بصورة مختصرة على اسباب ونتائج ظاهرة العسكرة، يمكن استخلاص ما يأتي:

1- التاريخ الطويل من استخدام الآلة العسكرية في الاستحواذ على الحكم والمتمثلة بالانقلابات والمؤامرات والاغتيالات وغير ذلك من تصفيات جسدية وشخصية.

2- السياسات اللامنضبطة وغير المحسوبة من قبل الانظمة المتعاقبة على سدة الحكم في التاريخ الحديث والمعاصر، والتي تجعل هدفها الاول محاربة العدو الخفي المتمثل بـ(المؤامرات) التي رافق اسمها جميع الحكومات المعاصرة والسابقة والسياقات العسكرية المتبعة في اداریاتها.

3- الخطاب المتشدد والمعزز بالقوة المفرطة المستخدم في ادارة امور الدولة الامنية منها والخدمية على طول الفترات السابقة، بحيث ينظر الكثير من الموظفين والمواطنين لمدير الدائرة على انه جزء من منظومة عسكرية.

4- خوض الحروب المتتالية وجعل المجتمع عجلة تدور في فلكها، بدون اي دور له في ايقادها او ايقافها.

5- تقديم الجوانب العسكرية والامنية ووضعها على امتداد السنوات السابقة بالمرتبة الاولى قبال الجوانب التثقيفية والقانونية والاقتصادية ومؤسسات المجتمع المدني، ما حدا بالاغلب الاتجاه نحو ايجاد فرص العمل داخل السلك الامني والعسكري، طلبا للمال والسلطة.

6- عدم الجدية في معاقبة ومحاسبة القيادات الامنية في حال تجاوزها على المواطنين، حتى لو خرقت تلك القيادات القوانين والانظمة.

7- منح الرتب الفخرية لمرات متتالية لشخصيات لا تجيد ابجدية العمل العسكري والامني، وتسنمها مناصب ذات حساسية عالية بامن الدولة عموما والمواطن خصوصا، مع عدم مراعاة السيرة والسلوك لمن يمنح تلك الرتب.

8- تدني ثقافة المنظومة الامنية، بحيث يفتقر اغلب منتسبيها الى الثقافة العامة وخصوصا ثقافة حقوق الانسان. وتصل في مواقع عديدة الى امية بعض افرادها، والتصاق ظاهرة الفساد والرشوة باغلب نشاطاتها.

9- نشر المواقع العسكرية وثكنات الجيش في مراكز المدن او بالقرب منها، والاحتكاك اليومي لتلك القوات بحياة المواطن، بحيث اصبحت جزءا من التركيبة الاجتماعية والعشائرية للمدن.

10- تغييب ومنع كامل لمنظمات المجتمع المدني والمنظمات المعرفية والثقافية، في اخذ مكانها الموازي والموازن لمنظومة العسكر، وجعل القليل الموجود منها، لسانا ناطقا باسم الحكومات المهيمنة.

• خطورة فكرة تسليح العشائر

إذا كان الدستور قد حظر تكوين وتشكيل الميليشيات العسكرية خارج إطار القوات المسلحة، فأين نضع صورة مطالبة بعض السياسيين المستمرة في تسليح العشائر؟

هذه المطالبات تتناقض مع بناء الدولة وترصين اسسها. كما انها تتعارض مع تكوين القوات المسلحة التي تخضع بدورها الى القيادة المدنية ولا تتدخل بالسياسة. وليس لها أي دور في عملية التداول السلمي للسلطة، فالدولة تلتزم بمحاربة الإرهاب بجميع اشكاله، كما انها ملزمة بالعمل على حماية الأراضي العراقية، وتمنع أن يتخذ الإرهاب أيا كان شكله ونوعه من هذه الأرض مقرا أو قواعد أو ممرات أو ساحة لنشاطه الإرهابي.

لذا فإن المطالبات المستمرة بتسليح العشائر، تعني شل المهمات العسكرية للقوات المسلحة. كما انها تعني تكوين ميليشيات مسلحة، تعود تابعيتها الى شيوخ العشائر، وتأتمر بأوامرهم، وتنفذ رغباتهم ومواقفهم وفقا لعلاقاتهم ومواقفهم الشخصية. وبذلك نكون قد ساهمنا في تعزيز الشرخ الوطني بخلق بدائل مسلحة خارج نطاق القوات الوطنية المسلحة، وخالفنا المنطق الدستوري في حصر السلاح بيد الدولة، كما خلقنا فجوة بين العشائر حين يتم تسليح عشائر دون اخرى، وساهمنا بالتفريط بكيان الدولة العراقية بإنتاج دول كارتونية صغيرة هشة داخل دولة لا تمسك زمام الأمور، ولا تستطيع أن تنفذ مهماتها الوطنية في الدفاع عن الأرض العراقية مهما كانت وأينما كانت، وتفقد ركنا اساسيا من اركانها بإرادتها لتسهم في هدم بنيانها الذي رسمه لها الدستور.

إن محاربة الإرهاب والعنف والجريمة من بين أولى مهمات الدولة العراقية، وهذه المهمة تحتاج الى المساندة والمواقف الوطنية التي تعبر عن الموقف العراقي الأصيل في دعم هذه القوات الامنية باعتبارها تمثل جميع مكونات الشعب العراقي وتدافع عن كل العراق، لذا فأن مهمة العشائر تكون في المساندة والتأييد والتعاون الاستخباري، وليس في استخدام السلاح والقتال غير المشروع.

وفي الوقت الذي ترتفع فيه الأصوات التي تطالب بأن يكون السلاح بيد الدولة حصرا، وتطالب بإيقاع العقوبات الصارمة بحق كل من يحمل او يحوز السلاح الناري دون اجازة او اذن من السلطات المختصة، فأن الاصوات المطالبة بتسليح العشائر تدفع بشكل غير مباشر الى تهديم البناء الوطني والدفع باتجاه الحروب الأهلية والعشائرية البغيضة. وبالتالي تكريس لزمن هجين يكون فيه السلاح متوفرا بيد الأفراد والعشائر، قبل ان تتوفر لقمة العيش والحاجات الأساسية الأخرى. وذلك فضلا عن خطورة حالات الدمج التي يطالب بها بعض السياسيين لأفراد العشائر في القوات المسلحة. وكان ينبغي على الحريص وصاحب النية الحسنة أن يطالب بانضمام افراد العشائر الى القوات المسلحة ضمن تكويناتها العسكرية وحاجتها وبما يراعي التوازن دون اقصاء أو تهميش. وبذلك فإن الدمج الذي يريده البعض ينقل المكون العشائري الى داخل القوات المسلحة وينقل ولاءه والتزاماته معه، وبذلك ايضا نخلق حالة مرضية وبعيدة عن المنطق في دمج عشيرة بالقوات المسلحة باعتبارها عشيرة، وليس افرادا من مكونات الشعب العراقي، لا يتدخلون في الشأن السياسي.

وحتى يكون الولاء للعراق، وحتى نساهم جميعا في منع تكوين الميليشيات العسكرية داخل بنية الدولة وخارج إطار القوات المسلحة الوطنية ينبغي علينا جميعا مهما كانت مواقفنا السياسية المتباينة أن نكون مع توحيد القوات المسلحة وحصر السلاح بيدها وتمكينها من أداء واجبها الوطني في الدفاع عن العراق كل العراق، وان تكون لنا المواقف الوطنية التي سيسجلها تاريخ العراق الحديث في مساندة هذه المهمات وتسهيل عمل القوات المسلحة ، وتأجيل الاختلاف والتعارض ، وعدم سيطرة الموقف السياسي على الموقف الوطني.

إن فرض القانون والمساواة بين العراقيين دون تمييز وصيانة حرية الانسان وكرامته وكفالة حرية الرأي والتعبير والتظاهر السلمي جميعها من الحقوق والحريات الأساسية التي ينبغي ان تلتزم بها الحكومة، ودون تلك الحقوق والحريات لا يمكن ان نصل الى القواعد الأساسية لبناء الدولة المدنية الديمقراطية ، ولأن النهوض بالعشائر العراقية من قبل الدولة يعتبر من المهمات الحريصة التي عليها الالتزام والعمل على اساسها، فإنها تقوم بتعزيز قيمها الانسانية النبيلة ، وتدفع باتجاه تطوير المجتمع، كما تمنع الأعراف والقيم البالية المتعارضة مع حقوق الإنسان والتي عافها الزمن. وهذه وحدها من مهمات الدولة وليس تسليح عشيرة دون أخرى، وليس تغليب موقف عشائري على موقف آخر، وعلى العشائر جميعها سواء في الجنوب او الوسط او الشمال ان تدرك أن القضاء على الإرهاب والعنف مطلب عراقي وطني على الجميع المساهمة به، والعمل على تنفيذه، ولأن الإرهاب لا يستهدف منطقة دون أخرى ولا عشيرة دون غيرها، وقد عرفنا جميعا الأهداف الشريرة والخائبة للقاعدة ولـ(داعش)، لذلك يصبح أمر مساندة القوات المسلحة في القضاء عليها وتنظيف الأرض العراقية من بقاياها، مهمة إنسانية قبل ان تكون مهمة عراقية.

• **الاجهزة الامنية وعسكرة المجتمع**

في نظرة سريعة لتاريخ الشرطة العراقية، نلاحظ بأن هذه المؤسسة كانت مدنية عند نشأتها مع تشكيل الحكومة العراقية 1921 ولغاية عام 1969 حيث كانت بداية عسكرتها من خلال (عسكرة رتبها) و(عسكرة قوانينها) وبالتالي (عسكرة سلوكها من المدني الى خشونة وصرامة السلوك العسكري)، فقد كانت الشرطة قبل صدور قانون 1969 تخضع لذات ضوابط ونظم الخدمة المدنية، وانضباط موظفي الدولة. وكانت رتب ضباطها تتلاءم مع التسميات الوظيفية المدنية (معاون مدير شرطة، مدير شرطة، الخ..). وسأعرض بشكل موجز التحولات الكبيرة التي حصلت في الجهاز بالانتقال من المهام الاساسية، الى غياب المهام الحقيقية للشرطة، بحيث لم يتم التفريق بين السياسة الدفاعية والسياسة الامنية والسياسة الجنائية بسبب غياب المهنية والعمل الاحترافي واستحواذ مؤسسة على مؤسسة اخرى. وبتقديري انها الفوضى في المهام. ان تكريس المفاهيم والقيم العسكرية في جهاز الشرطة كانت من المفاهيم الخاطئة ، حيث أنّ المهام المحددة لوزارة الداخلية من خلال قوانينها تهدف بشكل عام الى "تنفيذ السياسة العامة للدولة في حفظ الأمن الداخلي لجمهورية العراق وتوطيد النظام العام وحماية الحقوق الدستورية"، وبشكل خاص تهدف إلى "حماية أرواح الناس وحرياتهم والأموال العامة والخاصة وضمان سلامتها من اي خطر يهددها ومنع ارتكاب الجرائم واتخاذ الإجراءات القانونية بحق مرتكبيها"، والسعي لانجاز التشريعات من اجل تأطير الأداء بالنص القانوني، وكان الدستور العراقي ينص على: (تتكون القوات المسلحة العراقية والاجهزة الامنية من مكونات الشعب العراقي، بما يراعي توازنها وتماثلها دون تمييزٍ او اقصاء، وتخضع لقيادة السلطة المدنية، وتدافع عن العراق، ولا تكون أداةً لقمع الشعب العراقي، ولا تتدخل في الشؤون السياسية، ولا دور لها في تداول السلطة).

• **الشرطة.. عناصر سلام**

يُعَدّ جهاز الشرطة في أية دولة هو المُنفّذ لقرارات السلطة التنفيذية ويكلف في أحيان كثيرة بأداء واجبات قضائية وإدارية تكلفه بها الأجهزة القضائية (المحاكم على اختلاف أنواعها) أو السلطات الإدارية (رئيس الوزراء والوزراء والمحافظون والقائم مقامين ومديرو النواحي) وقد نصت المادة (1) من قانون واجبات رجل الشرطة في مكافحة الجريمة رقم (176) لسنة 1980 على أن (تختص قوى الأمن الداخلي بالمحافظة على النظام والأمن الداخلي، ومنع ارتكاب الجرائم، وتعقيب مرتكبيها، والقبض عليهم، والقيام بالمراقبة المقتضاة لها، وحماية الأنفس والأموال، وجمع المعلومات المتعلقة بأمن الدولة الداخلي وسياستها العامة، وضمان تنفيذ الواجبات التي تفرضها عليها القوانين والأنظمة)، وجاء تفسير المقصود بقوى الأمن الداخلي في الفقرة (5) من المادة الأولى من قانون الخدمة والتقاعد لقوى الأمن الداخلي رقم (1) لسنة 1978 بأنها (الشرطة والأمن والجنسية والمرور) وينبغي لكلِّ مجتمع أن يتجهز بجهاز شرطة يكلِّفه بمهمةَ "حفظ النظام" و"فرض احترام القانون".. ومن

وظائف الشرطة ايضا، هي الإسهام في ضمانة حريات المواطنين وفرض احترام حقوقهم وضمان أمنهم. وينبغي على عناصر الشرطة أن يكونوا حرفيًا "عناصر سلام"، أي أنهم ينبغي أن "يصنعوا السلام" بين الأفراد والجماعات التي تعيش في المدينة نفسها. لذا ينبغي على الشرطة تحييد مثيري العنف وكفّ اذاهم عن المجتمع. إذًن فالمهمة الرئيسة للشرطة هي درء النزاعات، وحلها عند الاقتضاء، وذلك باللجوء إلى الطرائق اللاعنفية للتوسط والوساطة والمصالحة. لذا فمن الضرورة الماسة أن يتضمن التأهيلُ المقدَّم في مدارس واكاديميات الشرطة تدريبا على هذه الطرائق، كلما كان ذلك ممكنا. وقد وجدنا أن منطق وزارة الداخلية في العراق بالصورة التي نراها هو أن "الأمن قوة ضاربة"، وهو مفهوم لا علاقة له بفكرة الشرطة في الدول المدنية المتحضرة؛ ففي الدول الغربية نجد أن دور الشرطة لا يقتصر على تحقيق الأمن ولكن المساعدة على تنفيذ قرارات العدالة (enforcement). فالأساس هو القانون الذي تنفذه الشرطة. أي منطق الدولة وهو الدستور والقانون، ودور الشرطة أنها أداة من أدوات تنفيذ القوانين. أما في العراق وفي ظل الدكتاتوريات المتعاقبة منذ تموز 1968 ولحد الآن نجد أن الشرطة قد تحولت إلى قوة شبه عسكرية، والتدريب العسكري الذي تتلقاه قوى الأمن الداخلي يأخذها بعيداً عن دور الشرطة ليجعلها تمارس دور الجيوش. حيث الجيوش لها عقيدة قتالية. وفي الغالب تتنوع من دولة إلى دولة، ولكن القاسم المشترك بينها هو استخدام العنف ضد الأعداء لحماية أمن الوطن. العسكرة (militarization) هنا هي غير العسكرتارية، فالعسكرتارية (militarism) هي حكومة العسكر، او "سلطات الجند"، وهي مظهر عسكري للحكم الاستبدادي، من أشكاله الاجتماعية والتاريخية: هيمنة الجند على السلطة المركزية دون تحمل مسؤولياتها مباشرة. ومن مظاهرها ايضا – سيطرة الجيش على مؤسسات الدولة الاخرى، لا سيما التشريعية والاجرائية والقضائية، (بإنقلاب)، وسرعان ما يسمى ثورة أو حركة انقاذ او خلاص...الخ. واما (العسكرة) فهي عملية إلباس المجتمع لباس العسكر وتحويل وتنميط سلوكه الى سلوك عسكري، يختلف عن الطابع المدني او العادي في الغالب. وتعد العسكرة أحد أوجه وحلقات الانظمة الشمولية واشاعة الشعارات والاناشيد التي تمجد الحياة العسكرية ومظاهرها. كما ان هناك تقليداً اسبوعياً يتم تطبيقه في المدارس الابتدائية والثانوية والمهنية يتمثل بإطلاق الرصاص في الاصطفاف (أو الطابور) الاسبوعي للتلاميذ، ويدرب الطلبة (بنين وبنات) عادة على تنفيذ هذه الممارسات. ويتم بث وتجريع الروح العسكرية وتشريبها لهؤلاء التلاميذ، اضافة الى تلقينهم مقولات رأس النظام، حيث يلزم التلاميذ بحفظ مقولات نابعة من قيم بدوية ومفاهيم قبلية، تنشئ الجيل الجديد على سلوك (التنمر) العدواني، والبعيد عن المفاهيم الحضارية والانسانية.

نستطيع من خلال العرض للقوانين السارية آنفة الذكر أن نستخلص بأن الشرطة مهامها واضحة بمنع ومكافحة الجريمة والتصدي لها ، بينما مهام الجيش

تتركز في الدفاع عن الحدود العراقية، وان هناك اختلافا واضحا من حيث طبيعة المهام المناطة بكل واحدة من هاتين المؤسستين.

ولا شك في أن زحف الجيش على مهام الشرطة والانابة عنها، غاية في الخطورة لا يدركها السياسيون الحاليون لانشغالهم بصراعات حزبية وشخصية. إن عسكرة الشرطة العراقية وتسلطها أديا إلى عسكرة المجتمع برمته، فجعل العنف مكونا أساسيا في الشخصية العراقية. هذا المرض العضال لن ينتفي إلا بقرار يمنع الشرطة من استخدام رتب الجيش، وتغيير المسميات الحالية إلى مسميات تخدم اهداف الشرطة المنصوص عليها دستوريا. البداية تبدأ من تفكيك الجيش الموازي، وتحويل قطاع الشرطة الوطنية إلى قوة كفوءة ومدربة بمهارات عالية، تستخدم فقط وقت الضرورات الأمنية القصوى، وفي حالات الطوارئ. إن الامن والنظام والسلم الاجتماعي لا تفرضه مظاهر العسكرة واجواء الثكنات، وانما تفرضه وتضمنه الخطط والاجراءات المهنية والسليمة.

- **الأجهزة الامنية والصراعات السياسية**

إن قضية الامن في العراق قضية بنيوية شاملة.. ومعالجتها تحتاج الى جهود كبيرة تشارك فيها كل اجهزة الدولة وليس وزارتي الدفاع والداخلية. وكون ادارة الملف الامني قضية سياسية واجتماعية تطول بمردوداتها السلبية جميع المواطنين، يصبح معها ضرورة ان يشارك الجميع في وضع تصور ورؤى لمعالجتها، مما يستوجب اشراك الرأي العام والاحزاب والقوى السياسية ومراكز البحوث المتخصصة والخبراء الأمنيين في دراسة الاخفاقات الامنية المتكررة والاستئناس بكل الآراء، واضعين مصلحة الوطن فوق كل اعتبار.

إن هدف الارهاب ليس قتل اكبر عدد من المواطنين فقط، بل زرع بذور الفتنة والبغضاء والكراهية بين مكونات المجتمع والوصول بها الى حالة من الصراع والمواجهة والاقتتال الدائم لغرض استنزاف القوى السياسية والامنية، تمهيداً للقفز والهيمنة لإسقاط التجربة السياسية برمتها.

وتأسيساً على ذلك يبقى الارهاب والعنف مشكلة بنيوية، ولذلك يجب ان يكون الحل بنيوياً ايضاً، والبداية الاعتراف بان هناك مشكلة اسمها مشكلة "الارهاب والعنف" والاقرار بان هذه المشكلة ليست عارضة بل جوهرية.

ومن هذا المنطلق يجب توضيح الاسباب ومن ثم وضع الحلول الناجعة لمكافحتها والقضاء عليها.

الاسباب والمُسببات:

1- تراجع كبير وواضح لهيبة القانون والدستور والقضاء المستقل، وشيوع ثقافة الترهيب بالمنصب الامني والايحاء بالاعتقال العشوائي والاستقواء بالأقرباء في الاجهزة الامنية.

2- محاولة القيادات الامنية (شرطة وجيش) في اكثر المراحل بالتنافس في الظهور بمظهر الاقرب للحكم والولاء للحاكم مقدماً ذلك على الولاء للوطن والشعب.

3- انتشار الاسلحة المختلفة الانواع بشكل واسع بين فئات الشعب وبين الاجهزة الحزبية واستخدامه في النزاعات العشائرية

والفردية، أدى الى فقدان الأمن في مناطق واسعة في العراق.

4- سيادة ثقافة العنف على سلوك افراد المجتمع عموماً، رغبة بالظهور بمظهر الاقوى في مجالات الحياة المتعددة والالتجاء الى طرق القوة في حل اغلب المشاكل.

5- ابتعاد المجتمع عن الطابع المدني واندفاعه نحو الطابع التقليدي المتعصب وترسيخ ثقافة العسكرة بين افراد المجتمع يقابله ضمور في باقي المجالات العلمية والانشطة المدنية الفنية والرياضية.

6- انتشار واسع وكبير لعصابات الجريمة المنظمة والارهاب خصوصاً بين الفئات الاصغر عمراً، التي يعاني بعضها من فقر مالي وفكري.

7- غياب العقاب الرادع القوي والحاسم بحق من تثبت عليه تهم الارهاب او الانتماء الى حركات مسلحة ارهابية (داعش) وغيرها والتي بدأت تظهر تحت مسميات عديدة في مختلف المناطق.

8- الفشل المعلوماتي والعملياتي، وذلك لعجز اجهزة الاستخبارات عن التنبؤ بوقوع اعتداءات ارهابية او الاقتصار على المعرفة والامكانيات اللازمة للحيلولة دون وقوع الاعتداءات.

9- ارتكاب خروقات كثيرة بذريعة مكافحة الارهاب، بما في ذلك انتهاك حقوق المواطنين في خصوصياتهم وعمليات الاحتجاز غير القانونية (وإساءة معاملة الموقوفين وتعذيبهم)، واستخدام اساليب غير قانونية في التحقيق.

10- الاستهانة بالتنظير وتحليل الاسباب ضربة فادحة لاي محاولة جادة لمكافحة الارهاب؛ فيجب الاستعانة بالمراكز البحثية المتخصصة لدعم الوزارات الامنية، بصنع القرار وإيجاد إستراتيجية أمنية مستقبلية، وليست مرحلية.

الحلول:

1- تقليل وابعاد تواجد وحدات الجيش (عمليات بغداد وادارات العمليات الاخرى) وغيرها من المناطق المدنية داخل المدن والعاصمة بغداد والاكتفاء بقوات وزارة الداخلية لحفظ الامن والنظام ومكافحة الجريمة والارهاب، كما نصّ ذلك دستورياً.

2- وزارة الداخلية هي المسؤولة والمعنية بادارة عمليات مكافحة الارهاب والجريمة داخل العاصمة بغداد وبقية المحافظات والاقليم من خلال التعامل معها بقوات أمنية حديثة تخصصها لهذا الغرض (شرطة اتحادية، أفواج الحدود، أفواج الطوارئ)، لإدارة الملف الأمني ومكافحة الارهاب مع تنسيق كامل مع وزارة الدفاع وجهاز المخابرات والأمن الوطني.

3- وزارة الدفاع بكافة صنوفها ووحداتها هي المسؤولة عن ادارة العمليات خارج حدود المحافظات، من مسك الحدود وحماية المنشآت الحيوية والطرق الدولية والموانئ، وغيرها مع تنسيق عالي المستوى مع اجهزة وزارة الداخلية والاجهزة الأمنية الاخرى.

4- توحيد الجهد الاستخباري لمكافحة العنف والارهاب والجريمة المنظمة واصدار تشريعات جديدة من قبل مجلس النواب لبناء جهاز استخباري فعّال.

5- تقليص المنظومة العسكرية (شرطة وجيش واجهزة أمنية اخرى) المنتفخة والمترهلة الى الحجم الفعلي الذي تحتاجه

البلاد للدفاع عن أمنها وسيادتها، وعدم جعلها مساحة للتشغيل او لكسب الارزاق.

6- التركيز على ثقافة المنظومة العسكرية بذاتها ورفع مستوى افرادها لكي يتماشى وطبيعة المعارك القادمة، مع الاستفادة من الخبرات العسكرية والأمنية للدول المتقدمة وقوات التحالف الدولي، فضلاً عن تدريب القوات الأمنية بشكل يضمن الوصول الى مراحل الاحتراف الفعلي.

7- ترسيخ مبدأ المواطنة بثوابت الولاء للوطن, وإشاعة ثقافة التطوع في الاجهزة الأمنية والعسكرية وترسيخ مفهوم المنصب (كتكليف لا تشريف) فاحترام الآخرين وخدمتهم هو الهدف الحقيقي للتصدي للمسؤولية.

8- الدعوة الى إزالة حالة العسكرة التي تنتهجها بعض الاحزاب والمستخدمة في هيكليتها الداخلية من خلال نص قانوني، يشرّع من قبل مجلس النواب، يعاقب بحزم من يسلك وينتهج هذا السلوك غير الحضاري.

9- اشراك المواطنين في الجهد الأمني والاستخباري من خلال الترويج المستمر للثقافة الطوعية والانخراط في اعمال المجتمع المدني.

10- عدم الدعوة الى تشكيل أذرع (وحدات أمنية) جديدة بدواعي سياسية والتخلص من تلك التي لا مبرر لوجودها، او فقدت مبررات وجودها بطرق علمية مدروسة.

1-1 الدعوة الى تطوير القوانين والاجراءات الوطنية الكفيلة بمنع الارهابيين من استغلال قوانين اللجوء والهجرة للحصول على ملاذ آمن في بعض الدول العربية والأجنبية، أو استخدام اراضي بعض دول الجوار للتجنيد او التدريب او التحريض.

2-1 السعي الى إنشاء وحدة متخصصة لمتابعة ومكافحة الارهاب عبر الشبكات المعلوماتية والانظمة الالكترونية، وحث الوزارات المعنية (الأمنية والعسكرية) على التأكيد على أهمية الامتناع عن نشر المواد الاعلامية الداعية للتطرف والعنف.

3-1 بناء قدرات وطنية متكاملة خاصة باجهزة الاستخبارات، بحيث تتوفر لها إمكانيات فعّالة لجمع المعلومات الاستخبارية، على أن لا يشكل ذلك ذريعة للتخلي عن سيادة القانون التي يجب ان تسود في الدول الديمقراطية.

4-1 ان للشرطة في العراق وظائف أمنية واخرى اجتماعية، لذلك فان من اهم الواجبات الوظيفية للشرطة هي تحقيق الأمن والاستقرار لأفراد المجتمع، ولكي تؤدي هذه المؤسسة الأمنية واجباتها لا بد أن تكون مقبولة من المجتمع، حتى تظفر بمساعدته، لذا نرى ان من الضروري الخروج من نطاقها التقليدي والدخول في الخدمات الاجتماعية وتفعيل دور (الشرطة المجتمعية) من خلال اشراك المجتمع بكافة عناوينه بهذه المسؤولية الأمنية والوقائية.

5-1 انشاء غرف عمليات خاصة لكل منطقة (خلية أزمة) تشهد عمليات ارهابية متكررة ترصد هذه الخلية وتعالج هذه الحالات بصورة سريعة وتراقب أداء السيطرات والشرطة المعنية بالمحافظة على هذه المنطقة.

6-1 حق التصويت او الانتخاب يجب ان يختصر على المدنيين ويمنع اشراك اجهزة

الشرطة والجيش والقوى الأمنية الاخرى في التصويت حتى لا تستغل هذه الاصوات في التجاذب السياسي وبنتيجة الانتخابات، والمفروض بهذه الاجهزة ان تكون حامية للمراكز الانتخابية وليس المشاركة فيها.

7-1 تفعيل معايير الجودة الشاملة في الاجهزة الأمنية وحشد الطاقات والإمكانيات لتطويره، وجعل العمل الأمني (لا مركزية في المحافظات) في هياكل القيادات وصنع القرارات.

8-1 تطهير الشرطة والجيش من العناصر الدخيلة والمتسللة، ممن لا تتوفر فيهم ابسط مقومات وشروط الانتماء لهذه المؤسسة العسكرية. وان كثيراً من اصابع الاتهام تتوجه الى هؤلاء الدخلاء في ارتكاب اعمال العنف والارهاب والجريمة المنظمة.

الهوامش:

1 - جوزيف هينروتين وآخرون، حرب واستراتيجية – نهوج ومفاهيم، عالم المعرفة، العدد / مايو – 2019، الكويت.

2 - جاسم محمد، مشكلة الخلط بين الامن والدفاع في العراق، وكالة أور، بتاريخ 21 /11 /2012، http://www.uragency.net/2012-03-11-16-32

3 - خضر عباس عطوان - النظام السياسي في العراق بين الاصلاح والشرعية www.france24.com/ar/node/739673.

4- المادة (4) من قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية لسلطة الائتلاف المؤقتة 8 - آذار - 2004؛ وكذلك المادة (9) من الدستور العراقي لسنة 2005.

5- الفريق الركن رعد الحمداني، واقع المؤسسات الامنية والعسكرية العراقية الجديدة، مركز دراسات الاستقلال – تشرين الثاني – 2008.

6- علي عبد العزيز مرزه الياسري، استراتيجية الامن القومي العراقي - مقدمة اساسية في ثقافة بناء الدولة، اصدار المركز الوطني للتخطيط المشترك، بغداد، كانون الثاني 2009.

7- باراك سالموني، قطاع الأمن القومي العراقي ما بعد 2011، معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية والدولية- نشره المجهر السياسي.

8- د معتز محي عبد الحميد، وسائل مواجهة الارهاب وتحديات الامن الوطني، بحث مقدم الى الندوة الدولية – السياسات الامنية والمخاطر الارهابية، مراكش/ المغرب، 2017.

9- رياض هاني بهار، الشرطة العراقية مسيرة مهنية، موقع كتابات – kitabat. Com

الرأسمالية المعولمة والنزعة الوطنية الديمقراطية

لطفي حاتم

لطفي حاتم كاتب وباحث عراقي حاصل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون، عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له عدة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ آراء وافكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية، العولمة الرأسمالية والكفاح الوطني الديمقراطي. كما نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.

حملت الطبقة البرجوازية منذ نشوئها وعبر مراحل تطورها المختلفة، الكثير من موضوعات الفكر السياسي الغنية، وانعكس ذلك الثراء في خضم بنائها أسلوب انتاج اقتصادي - اجتماعي فاعل ومقرر في العلاقات الدولية، رغم ترابطه وكثرة النزاعات الوطنية والحروب الداخلية - الخارجية، ناهيك عن قوانين الاستقطاب الاجتماعي المتواصل المتمثل في فقر طبقات اجتماعية من جانب، والغنى الفاحش لطبقات اجتماعية أخرى من جانب آخر، وما نتج عن ذلك الاستقطاب بين الفقر وتراكم الثروة من اندلاع الثورات الاجتماعية الهادفة الى العدالة الاجتماعية، التي توجت بانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى.

لضرورات البحث المكثف، نحاول الابتعاد عن الفوارق الاجتماعية والفكرية الكثيرة بين اسلوبي الانتاج الرأسمالي - الاشتراكي، ونتوقف عند موضوعات الفكر السياسي وتغيراته في حقب النزاعات السياسية - الاجتماعية الكبرى. ولهذا سنتوقف بعجالة عند اهم الموضوعات الفكرية والسياسية التي تركت اثارها على مسار التطور التاريخي لكلا المعسكرين.

تأسيسا على ذلك النهج المكثف نتفحص موضوعتين هامتين في الفكر السياسي المعاصر؛ الأولى منهما العلاقة بين الرأسمالية والقضية القومية. والثانية الرأسمالية المعولمة والكفاح الوطني - الديمقراطي.

استنادا الى تلك الرؤية المنهجية وموضوعاتها الفكرية ـ السياسية المثارة نتوقف عند المفصل الاول الموسوم بـ

أولا- الرأسمالية والقضية القومية

ـ ترافق تطور الرأسمالية كتشكيلة اقتصادية – اجتماعية وتنامي فكرها القومي الهادف الى تمتين سيطرتها الطبقية عبر تعاون طبقاتها الاجتماعية المنتجة ضد البعثرة الاقطاعية، وانطلاقا من ذلك اندلعت الثورات البرجوازية الكبرى، جارة معها الطبقات الاجتماعية المنتجة نحو تحالفات اجتماعية هادفة الى تعميم اسلوب الانتاج الرأسمالي، وتجاوز التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية وبنائها السياسي المتسم بالفردية والانعزالية والركود الاقتصادي.

ـ حققت البرجوازية مع طبقات وفئات تشكيلتها الاجتماعية، انتصارات كبرى متمثلة بتعميم اسلوب الانتاج الرأسمالي، رغم تناقض جوهره الطبقي المتمثل باستغلال اليد العاملة.

ـ استنادا الى انتصاراتها الاقتصادية – الاجتماعية، بلورت الرأسمالية المتسيدة، طبقاتها الاجتماعية المتناقضة، ممثلة بالطبقتين البرجوازية ـ العاملة المستندتين على شرعية ديمقراطية.

ـ خاضت البرجوازية الناشئة صدامات وحروبا داخلية وخارجية لغرض ضمان تطورها السياسي الهادف الى هيمنة طبقية قادرة على المنافسة بين الرأسماليات الوطنية الناهضة في البلدان الاخرى، لغرض السيطرة على الاسواق العالمية وسيطرتها على مكامن الثروة الوطنية للدول الاخرى، حاملة نظامها الكولونيالي الهادف الى اقامة دول وطنية في البلدان المفتوحة، محاطة بسيادة وطنية جوهرها ترسيخ سيادة مصالح الرأسمالية وتعزيز قوتها التسلطية في المرحلة الجديدة من حركتها الكونية.

ـ أثارت حروب الرأسماليات المتسيدة في البلدان الرأسمالية المتطورة موجة كبيرة من حركة التحرر الوطني متوجة كفاحها الوطني باستقلال الكثير عن الدول المستعمرة، والتي شكلت حكومات وطنية ساعية الى تعزيز تنميتها الاقتصادية وصيانة استقلالها وسيادتها الوطنية.

ـ نهوض الدول الوطنية المستندة على الاستقلال الوطني وتنمية تشكيلتها الاجتماعية، لم يمنع تبعيتها الاقتصادية والسياسية للدول الكولونيالية.

ـ تناقضات الرأسمالية الاحتكارية ساهمت بنهوض حركة التحرر الوطنية، فضلا عن توطيد اسلوب الانتاج الاشتراكي الذي الهم بدوره القوى القومية والحركات الشعبية الوطنية، وحثها على اقامة نظم سياسية تعتمد الشرعية الوطنية والعدالة الاجتماعية.

ـ افضت الحرب العالمية الثانية التي اشعلتها الدول الامبريالية الى اختلال مكامن النفوذ والهيمنة للقوى المتنازعة في البلدان الوطنية، ناهيك عن محاولات تخريب الدول الاشتراكية التي اصبحت عاملا دوليا فاعلا في العلاقات الدولية ـ الوطنية.

ـ ادى نهوض المعسكر الاشتراكي ومشاركته النشطة في العلاقات الدولية الى انقسام العالم الى نظامين اجتماعيين دوليين، الامر الذي شجع الكثير من الدول الوطنية على تبني التنمية الاشتراكية، كخيار للتنمية الوطنية.

ـ أدى نجاح حركة التحرر الوطني الى نشوء دول وطنية مناهضة للإمبريالية وأساليبها الاقتصادية، وما أنتجه ذلك من انقسام الدول الوطنية بين نظم سياسية، مناهضة للتنمية الرأسمالية ومساندة للدول الاشتراكية، وبين نظم سياسية مناهضة لليسار والدول الاشتراكية.

ـ حملت هيمنة الفكر القومي في الكثير من الدول الوطنية، سمات معاداة الاشتراكية وأحزابها اليسارية الفاعلة، وما افرزه ذلك من سيادة نظم ديكتاتورية مناهضة للتوجهات الديمقراطية.

ـ تراجع الفكر القومي بعد سيادته في الكثير من الدول الوطنية، بسبب محدودية فاعليته الاجتماعية ومناهضته للمصالح الاساسية للقوميات والقوى الديمقراطية الاخرى، اضافة الى عجزه عن تنمية اقتصاد بلاده الوطنية.

ـ افضى تراجع الفكر القومي وقيادته للدولة الوطنية الى تحالفات كثيرة مع الخارج الامبريالي، مرتكزة على تشابك الرأسمال الاجنبي واقتصادات الدول الوطنية.

ـ تلازم انهيار النظم الاشتراكية وتفكك تجارب النظم القومية الى نهوض النزعة الوطنية الهادفة الى المساواة بين الدول في العلاقات الدولية والدعوة الى التحالفات السياسية في الداخل الوطني.

ثانياً ـ الوطنية الديمقراطية والعلاقات الوطنية

ـ ادى انتقال الرأسمالية من مرحلتها الاحتكارية الى مرحلتها المعولمة، لحدوث تغيرات كثيرة في الفكر السياسي الناظم للعلاقات الدولية، فضلا عن تبدلات في المهام الكفاحية للقوى الاشتراكية ـ الديمقراطية.

ـ تطور النزعة الكسموبولوتية لدى دول الرأسمالية المعولمة، افضى الى تراجع القضية القومية، الأمر الذي ساهم بدفع القوى الاشتراكية ـ الديمقراطية الى مسار آخر يتلخص بالوطنية الديمقراطية.

ـ الوطنية الديمقراطية، كما أراها في الظروف التاريخية الملموسة، تعني المساواة بين الدول في العلاقات الدولية والتوازن بين مصالح مكوناتها الطبقية وفئات تشكيلتها الاجتماعية.

ـ تسعى الوطنية الديمقراطية الى بناء أنظمة سياسية ديمقراطية، تستند على تعاون الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلة الاجتماعية، بهدف صيانة الدولة الوطنية من الهيمنة الرأسمالية.

ـ اقامة علاقات في الداخل الوطني، تعتمد موازنة المصالح الطبقية ومكافحة ميول الطبقات الاجتماعية المتحالفة والطبقات الكسموبولوتية السائدة في العلاقات الدولية.

ـ تعمل الوطنية الديمقراطية في العلاقات الدولية على استبعاد التهميش والإبعاد، اللذين تشترطهما الرأسمالية الكسموبولوتية في العلاقات الدولية.

ثالثاً ـ برنامج الوطنية الديمقراطية

ينطلق برنامج الوطنية الديمقراطية الذي تعتمده القوى اليسارية الاشتراكية والقوى الديمقراطية، بديلا عن برنامج المرحلة الانتقالية ذات الأفق الاشتراكي، من الموضوعات الفكرية والسياسية الآتية ـ

1ـ مناهضة نزعتي التخريب والتهميش الرأسماليتين وتعزيز التحالفات الطبقية بين

الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلات الاجتماعية الوطنية.

2 ـ تتحدد الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلات الاجتماعية الوطنية بـالطبقة البرجوازية بفصائلها الوطنية المناهضة للهيمنة الأجنبية والطبقة العاملة المتحالفة مع شرائح الفلاحين في الريف الوطني.

3 ـ اقصاء الطبقات الاجتماعية الموالية للرأسمالية الكسموبولوتية في مقدمتها البرجوازية التجارية وأقسام من البرجوازية المالية، وإبعادها عن المشاركة في التحالفات الاجتماعية.

4 ـ بناء علاقات وطنية ـ دولية على قاعدة التوازنات السياسية المبنية على مراعاة المصالح الاساسية للطبقات الاجتماعية، فضلا عن مناهضة نزعة التطرف والطائفية السياسية في العلاقات الوطنية.

5 ـ تلبية مصالح الطبقات الكادحة عبر بناء شبكة الضمانات الاجتماعية الضامنة لتطورها وصيانة متطلباتها المعيشية.

يستمد برنامج الوطنية الديمقراطية المشار اليه، فعاليته السياسية من سمات العلاقات الدولية الراهنة المتسمة بـ:

ـ اعتبار الثورة الاشتراكية هدفا استراتيجيا في الظروف التاريخية المعاصرة، واستبدالها بالتحالفات الوطنية ـ الديمقراطية، الهادفة الى بناء الدولة الوطنية وصيانتها من التبعية والتهميش، عبر تعزيز مصالح طبقات تشكيلتها الاجتماعية.

ـ استبدال الشرعية الانتخابية الفاقدة لروح المنافسة الطبقية بشرعية انتخابية ديمقراطية قادرة على بناء نظم سياسية ديمقراطية، تحمي السيادة الوطنية من الهيمنة الخارجية.

ـ بناء علاقات دولية على اساس توازن المصالح الوطنية ـ الدولية واستبعاد الهيمنة الدولية على مسار تطور الدول الوطنية.

ـ مكافحة ميول الهيمنة والتخريب التي تحملها الرأسمالية الكسموبوليتية وبناء علاقات دولية تستند الى نمو وازدهار التشكيلة الاجتماعية الوطنية عبر تلبية مصالحها الطبقية.

ـ مكافحة التكتلات العسكرية الإقليمية ـ الدولية الهادفة الى مناهضة الدول الاخرى والتأكيد على التعاون الدولي المبني على تنمية المصالح المشتركة.

ـ يهدف برنامج الوطنية الديمقراطية الى تحقيق تغيرات جوهرية في العلاقات الدولية ـ الوطنية، ارتكازاً على الرؤى الفكرية ـ السياسية التالية:

أولا ـ صيانة الدول الوطنية من نهوج العولمة المتسمة بالإلحاق والتفتيت.

ثانيا ـ توازن المصالح الطبقية ين الطبقات الاجتماعية الفاعلة في التشكيلات الاجتماعية الوطنية.

ثالثاـ اقامة نظم سياسية ديمقراطية، تعمل على سيادة الشرعية الديمقراطية المرتكزة على البرامج الوطنية، بدلا من سيادة شرعية انتخابية فاقدة لروحها الديمقراطية.

رابعاً ـ صيانة منظومة الدولة السياسية ـ وتشكيلتها الاجتماعية ـ من الحروب الداخلية والخارجية المباركة من العامل الخارجي والهادف الى اعاقة نمو وتطور الدولة الوطنية.

واخيرا لا بد من الاشارة الى ان الدالات الفكرية ـ السياسية المشار اليها، تشكل عوامل كابحة لميول الرأسمالية الهادفة الى الحاق الدول الوطنية بعجلتي التبعية والتهميش.

إسكان المهمشين

موفق جواد الطائي
معمار أكاديمي

نرى حولنا كثيرا من المستوطنات السكنية غير الرسمية والمخالفة لحقوق الملكية وتخطيط المدن. ولا شك أن هذه المستوطنات جاءت نتاجا للغبن الاجتماعي، والتي أوجدتها الحروب والحصار وعدم توفر فرص العمل.

يستعرض هذا البحث طبيعة هذه المستوطنات، التي يمكن إجمالها بـ"سكن المهمشين".

هناك الكثير من الدراسات التي أركنت ولم يؤخذ بها. كما ان الدراسات المركزية من المؤسسات المعنية، لم تكن قد حددت التعريف الصحيح والمناسب للواقع الحقيقي لهذا النوع من المستوطنات البشرية، وأجملتها بكلمة عشوائيات (الشكل غير المنتظم، العفوي).

تستخدم كلمة عشوائي لهذه المستوطنات في الوقت الذي يوجد أكثر من مفردة متخصصة دقيقة قد أهملت منها،

sprawl emergence housing
emigrants settlement squatters
settlements ghettos favelas
settlements popular settlement
housing with care

بيوت الطوارئ ومستوطنات الانتشار ومستوطنات المهجرين ومستوطنات المستحل ومستوطنات الفقراء والسكن المتهرئ والسكن الشعبي والسكن مع عناية (الدولة). فلكل نوع من هذه المستوطنات مفردة خاصة بها، ولا يجوز إجمال كل المستوطنات بمفردة واحدة عامة (العشوائيات)، فهذا قطعا تبسيط غير صحيح للمشكلة مما قد نجيب على سؤال آخر، لا يعني تلك المستوطنة، وقد يؤدي الى ضياع جهد مخلص بحثي حثيث، قد تترتب عليه قرارات استراتيجيات مهمة. ومنها دراسة التصميم الاساسي لمدينة بغداد، وكذلك الدراسة الأساسية للقضاء على العشوائيات المعدة من أمانة بغداد ومحافظة بغداد ودراسة وزارة الداخلية، حول العشوائيات، والتي اعتمدت كدراسات أساسية لحل مشكلة السكن (العشوائي)، ودراسات وزارة الاسكان والتي لم تشمل كثيرا من المستوطنات المذكورة اعلاه، انما اقتصرت على المتجاوزين الذين لا يخضعون للتعاريف السابقة. وقد اهملوا المواقع الأساسية لسكن المهمشين في ساحات المدن الرئيسية جميعا، بينما يجب التوجه اليها في الحال، إذ انها تشكل سبب التشوه البصري.

قطعا لم تكن هذه المستوطنات سهلة الوصول لها، أو التجول ومعايشة الساكنين فيها، لذلك فجميع الدراسات لم تعتمد على استبيان دقيق للساكنين. وكانت دراسات يغلب عليها الطابع الأكاديمي، بعيدة عن الواقع واستباناتها إسقاط فرض. لكن وزارة الهجرة والمهجرين، قد عملت معهم لسنة ونصف، وكانت موجودة وبشكل جيد في جميع هذه المستوطنات، التي شملتها بمعونتها، كون قاطنيها مهجرين. وكان كل واحد من الساكنين، يتسلم راتبا، لذلك فمعطياتها دقيقة، وهم مرحب بهم. وبالتالي فان دراسة وزارة الهجرة والمهجرين والملاحظات الشخصية شكلت لديَّ قاعدة معلومات لم اجدها في جميع الدراسات السابقة رغم أنها كانت دراسات مخلصة ورصينة، وأكن لأخوتي الباحثين كل الاحترام والتقدير والموضوعية. ولعله لم تتوفر الفرص التي توفرت لي، فالمناطق جميعها غير آمنة، ولا يمكن الدخول إليها، وخصوصا لأخواتي الباحثات.

العشوائية تعني أشياء مختلفة لأناس مختلفين. فللمخطط تعني ما لا تعنيه للمصمم، فهي مرفوضة لدى المخطط، ومستحبة لدى المصمم. وعلى المخطط أن يقرأ أولويات علم الجمال ونظرياته، وفي حالة عدم تفهمه لذلك، سوف تتحول العمارة الى مباني فاشية. وهنا نذكر بأهم نظريات العمارة الحديثة: نظرية القسوة (Brutality) التي صممت وفقا لها قرية كلنورث الإنكليزية، ومجمع ستدبلاننك السكني الألماني، وكذلك الوظيفة الحيوية والتصميم الريفي العضوي الجميل، نتاج الشكل العفوي الحيوي، والذي يشكل 80% من قرى العراق الساحرة.

قد لا نكون موفقين بتكرار المفردة العشوائية على كل مستوطنة غير قانونية، ولنحدد كل مستوطنة باسمها الحقيقي، ونعالج كل واحدة بحالتها، لذلك لا نجد من الضروري، أن يعاقب المتجاوز على التصميم الأساسي غير الموجود، فكم من العراقيين من بنى دون إجازة، بتواطؤ مع موظف الأمانة فهل هؤلاء جميعا عشوائيون؟ وان كانوا كذلك فأكثر من بنى كان بدون اجازة، ومخالف، ونادر جدا من يبنى بإجازة، ولا يمكن أن ننعتهم بنفس الاسم.

قد يظهر هذا الامر غريبا، لكن ليس من وظيفة الباحث أن يركض وراء ما هو شائع، وإنما تمكين القراء من الحكم على الحقائق الموضوعية وفقا لحيثياتها وشروطها الخاصة، وتفادي الخلط بين مما يقال وشائع ومحدوديته ودرجة شيوعه، الذي لا يعني بالضرورة صحته، وما هو علمي وعامل حاسم.

من هم يا ترى المهمشون؟ وهنا يختلف الكثير حول هذا المفهوم، لكننا ولغرض هذه الدراسة، نجد أن الواقع الاقتصادي، قد جعل ربع الشعب العراقي دون مستوى خط الفقر، ومن هؤلاء توجد فئة في أسوأ حال، وهم دون حد الكفاف، ويشكلون تقريبا 11% من الشعب، والذين بالكاد يجدون الطعام، وهم شبه مشردين، من فقراء الفلاحين والمدن، عديمي الدخل تقريبا، ما عدا بعض المساعدات القليلة. ورغم عدم وجود تعداد سكاني دقيق لكن منظمات الأمم المتحدة، تقدر نسبهم اجماليا بـ11%، موزعين بالشكل الآتي:

1. كبار العمر وغير متمكنين من العمل 40%.

2. نساء حوامل ونساء غير متمكنات مؤقتا من العمل 30%.

3. نساء معيلات لعوائلهن 13%.

4. عوق وحالات مرضية مستعصية تسبب عدم التمكن من العمل 17%.

اما نسبة العوائل الفقيرة شبه الفلاحية وفقراء المدن من المهمشين (1 - 3 نسمة)، فتشكل 20%. ومن (4 - 6 نسمة)، تشكل 33%. ومن 7 الى 9 نسمة، يمثلون 37%. ومن 10 افراد فما فوق، يمثلون 10%.

أما من حيث الفئات العمرية؛ فيمثل الاطفال في الفئة العمرية (1 - 17 سنة) 50%. اما البالغون من الفئة (18 - 59 سنة) فيشكلون 48%. اما كبار السن (من 60 عاما فما فوق) فيشكلون 2% فقط.

هؤلاء هم المهمشون الذي يجب التوجه لإسكانهم في الحال، واعتبارهم حالة طارئة خاصة مستعجلة. ويسمى هذا النوع من الإسكان إسكان المهمشين، ويعد المهمة الأساسية والمستعجلة بل الملزمة لمؤسسات الإسكان الحكومية في العالم، والذي نصت على ضرورته وثيقة حقوق الانسان ومواثيق الأمم المتحدة حيث يجب تأمينه وقبل أي شيء آخر تقدمه الدولة من مساعدات بعد الطعام، وهذا نافذ على جميع الدول الغنية والفقيرة.

هناك ثمة مقولة تقول: ان الحرب عمالة كاملة. وعند السلام يتحشد الكثير بدون عمل. لكن هؤلاء هم جنود سابقون تعلموا النظام، ولا بد من التوجه الى استخدام طاقاتهم، وكذلك لم تعد أماكنهم السابقة تغريهم، فقد تعلموا على النظام والانضباط العسكري، فاستقروا في المدينة. إنهم ينشدون الأرض التي توفر لهم العمالة فجأة، وليس كما يحلو لأكثر الباحثين على أنها زيادة سكانية، فالسكان لم يزدادوا بين ليلة وضحاها.

لقد اصبح من الضروري توجيه الأنظار لإسكان المهمشين، وتبني اسكان هذه الشريحة التي همشت فوق تهميشها في سياسات الإسكان الجديد، وكذلك سياسات الدولة السابقة؛ حيث كانت تعتبرهم أعداء لنظامها، ولا يستحقون المساعدة.

أكدت الدراسات الاستراتيجية والباحثون في مجال الإسكان في العراق، ان اهداف سياسة الإسكان هي:

1. اعداد منهاج وتنفيذ المبادئ المعتمدة لحماية حقوق الانسان، والمقرة في وثائق الأمم المتحدة والمحددة لأولويات السكن للقطاع الاكثر فقرا (حد الكفاف) المهمشين مع الشروع بمشاريع تسعف هذه الشريحة من التشرد.

2. دور الدولة محدد بإنتاج بيئة سكنية تتفق والحاجة القياسية للإسكان، والتخلي عن دور المجهز للإسكان.

3. جعل الإسكان قطاعا استثماريا منتجا، والسيطرة على المضاربات الاحتكارية في سوق السكن، وخصوصا مضاربات الارض السكنية، التي كان قد تم توزيعها دون سياسة اسكانية قويمة.

كما حددت دراسات اخرى دور الدولة بما يأتي:

1. تأهيل وتحديث الهيكل التنظيمي لمؤسسات الإسكان، للتمكن من إدارة الإسكان بمفاهيم ونظم عالمية، وطرق علمية وتكنولوجية مناسبة، بعيدة عن مزاجيات المسؤولين والمدراء العامين غير المختصين بشؤون الاسكان. كما حدث في الادارات السابقة.

2. تطوير الهيكل التنظيمي للقطاع المصرفي الممول للإسكان، وصياغة نظام متطور للادخار والتسليف الإسكاني، واللجوء الى المصارف العالمية التي تسلف بمعدل فائدة قليل جدا.

3. تنشيط قطاع المقاولات الحكومية وشبه الحكومية والخاصة.

4. تأمين نظم عالمية معتمدة لإعداد الهيكل التنظيمي للمتابعة والاشراف، واعداد العمل الاستشاري الرصين والمواصفات العلمية والسيطرة النوعية، وكذلك نظام مؤسسات لتطوير الأرض، وبموجب التصاميم الأساسية والإقليمية وجعلها في متناول منفذي الاستراتيجيات والسياسات الخاصة بتامين الأرض لمشاريع الإسكان المزمع تنفيذها.

5. تحسين وتطوير الرصيد السكني الموجود وخصوصا الدور المتهرئة.

هناك كم هائل من الدراسات والمشاريع والندوات والموارد التي صرفت لأجل تحسين واقع الاسكان، وقد نفذ منها بعض المشاريع الرائدة وخصوصا ايام ثورة تموز الخالدة، وعلى يد ابو الفقراء عبد الكريم قاسم. ومثل دراسات ومشاريع دوقسيادس وبول سيرفس، وكذلك لاحقا الكثير من أطاريح الدارسين، وبحوث أساتذة الجامعات. لكننا ومع الأسف لا نجد انعكاسا لذلك على الواقع الحالي.

ثمة استفسار لدوائر الدولة الرسمية المعنية بالإسكان، وعلى رأسها مجلس الإسكان الأعلى عن مشروع جبار لإسكان المهمشين، لو كان قد نفذ ذلك لما آل الوضع الى ما هو عليه الآن.

بدأ المشروع تنفيذا لتعليمات وزارة الخارجية الأمريكية في عام 2004 والذي كان ينص على توفير فرص عمل لتشغيل العراقيين، وتزامن مع برنامج الأمم المتحدة الذي أدخل اصلاحات على استراتيجيته العامة إزاء الإسكان والتنمية الحضرية (المادة 11) من الأهداف الإنمائية للألفية الثالثة، والمتضمن تحسين الظروف المعيشية لمئة مليون نسمة من مختلف أنحاء العالم والساكنين في الأحياء العشوائية، وتأمين بدائل مناسبة لأحياء جديدة.

وعلى ضوء ذلك تم إعداد وثيقة تعاون بين منظمة الهبيتات للأمم المتحدة ووزارة البلديات والأشغال العامة ووزارة الإعمار والإسكان لصياغة وثيقة تتناول استراتيجيات لتحسين واقع الأحوال المعيشية، وسكن ما يزيد على مليون شخص، يعانون الفقر في مراكز المدن، حيث قدر في حينها حال ربع فقراء العراقيين في المناطق الحضرية. وصدرت في هذا المجال وثيقة عمان في نهاية نيسان 2005 وتضمنت التوصيات الارتقاء بالأحياء المتهرئة وكما يأتي:-

1. تأكيد دور اللجنة الوطنية للمستوطنات البشرية، واسنادها لأجل اقتراح السياسات المرتبطة بالارتقاء بالأحياء المتهالكة وتشخيصها وتطويرها. وذلك من خلال تعزيزها بالموارد المادية والبشرية والفنية، بما يمكنها من تنفيذ الدور المطلوب منها.

2. دعوة مؤسسات الدولة المعنية لتشخيص المناطق المتهرئة وتضمينها في التصميم الاساسي للمدن وتأهيلها، بالمشاركة مع منظمات المجتمع المدني، وبالتعاون مع منظمة الموئل التابعة للأمم المتحدة لتقديم المستلزمات لإجراء

المسوحات للأحياء المتهالكة، وبناء القدرات والتدريب والتطوير، وفق الواقع السكني الحالي، واختيار المشاريع الرائدة، وحسب أسس المشاركة الجماهرية.

3. تنظيم حملة وطنية لتشجيع الادخار، وأية حملات أخرى لتفعيل البرامج الخاصة بالارتقاء بالأحياء المتهالكة والعشوائية.

4. قيام مؤسسات الدولة العراقية بطلب المشورة، كلما اقتضى الامر من المؤسسات الدولية لصياغة استراتيجيات الارتقاء بالأحياء المتهالكة والعشوائية، واستطلاع رأيها بالمشاركة مع الاستعانة بالاستشارة الضرورية من المؤسسات الاستشارية العراقية الحكومية، والخاصة. وفي مقدمتها الهيئة العامة للإسكان، لما تمتلكه من كادر علمي وتطبيقي متقدم في مجال الإسكان.

وقد تم اختيار المناطق المتهرئة في مراكز المحافظات وفق أدناه:-

أ. تقادم البناء:

- نمط البناء المستخدم؛
- المساحات البنائية للدور؛
- ضعف كفاءة الخدمات أو انعدامها

ورغم رجاحة هذه المؤثرات، لكن هناك ضرورة موضوعية لتفاصيل اكبر، كما هو موجود في الملحق لاختيار المناطق المتهرئة.

ب. قامت في حينها وزارة الإعمار والإسكان بالتنسيق مع السلطات المحلية والمنظمات غير الحكومية ووجهاء المدن المنتقاة بتحديد (53) منطقة سكنية متهرئة في (13) مدينة، منها مدينتان كبيرتان هما الموصل والبصرة، وعشر مدن متوسطة الحجم هي: الحلة، بعقوبة، الكوت، السماوة، النجف، الناصرية، الديوانية، كركوك، تكريت، كربلاء ومدينة صغيرة واحدة هي قضاء الحي في واسط.

وتناولته برامج التطوير والتأهيل على ما يأتي:-

أ. تأهيل البنية التحتية؛

ب. تحسين السكن والاوضاع البيئية؛

ت. تحسين الرعاية الصحية للسكان؛

ث. خلق وظائف.

لعلها عناوين واسعة غير محددة بالتعاريف العلمية والتشخيص المحدد الموضعي والموقعي (كما في التعاريف أعلاه). وهذه العموميات لم تساعد على انجاز المهام لوضعها سقفا عاليا من المهام، اكبر مما كان متوفرا من موارد مادية وبشرية، وغير معروف لحد الآن ما أنجز منها، وما لم ينجز لغياب التشخيص والتوثيق وعدم وجود قوائم ضبط، ومرحلية الاعمال الاستشارية واحكام العمل، كما في بحثنا هذا الذي يشخص ويعرف الأولويات، قبل الولوج في عملية التنفيذ، وذلك وفق السياقات والمراجع العلمية والعملية العالمية.

هناك ما نفذ ولم ينفذ لوسع المناهج وتعدد المؤسسات المشاركة وهذا يستحق بحثا بحد ذاته. كما أننا لسنا بصدد تقييم هذه التجربة الرائدة ومدى تنفيذ الجهات المشاركة والمساندة لها، لكن قدر العلاقة بنا، فأننا نشرح ادناه المهام التي قامت بها الهيئة العامة للإسكان، إزاء هذه التجربة والعبر المستخلصة منها.

بناء على ما جاء اعلاه قامت وزارة التخطيط والتعاون الانمائي باستحداث مشروع ضمن الخطة الاقتصادية لعام (2005 – 2006) باسم (تأهيل وتطوير المناطق المتهرئة في العراق) بكلفة (31,5)

مليار دينار لست محافظات ضمن الخطة الاستثمارية لوزارة الاعمار والاسكان لسنة 2006 لتخصيصات السنوية لعام (2006) وبمبلغ ستة مليارات دينار عراقي، لكل من مدينة الناصرية والديوانية.

وفقا لهذه الاتفاقية نفذت الهيئة العامة للإسكان، تعديلات على بيوت محدودة في الناصرية (36) والديوانية (35).

وقد تم تنفيذ المسح الميداني لما يأتي:

أ . الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للعوائل الساكنة؛

ب. الحالة العمرانية ومكونات الدور السكنية والاشغال وأعمال الصيانة والإدامة وأسلوب البناء السائد وتقنياته.

أتسمت هذه المناطق بالصفات الآتية:-

- سوء البنى التحتية فشبكة ماء الشرب سيئة، ذلك ان وجدت، وانعدام الصرف الصحي والكهرباء غير نظامية.

- الشوارع والفضاءات العامة المفتوحة متجاوز عليها، وغير معرفة، كما يصعب دخول وخروج المركبات.

- معظم البيوت كانت آيلة الى السقوط ومتهرئة، وذات مواد رخيصة مثل البلوك والطين والتنك.

- معظم الحيازة لهذه الدور ملك خاص، وعدد لا يتجاوز الـ 2% إيجار، وقد تختلف من منطقة الى أخرى.

- الوضع البيئي المحيط متدهور، لتراكم النفايات وبقايا المياه الاسنة، وانعدام الخدمات الأساسية وارتفاع الكثافة السكانية.

كان لابد من الإسراع بالتدخل والانجاز السريع واعتماد اساليب سريعة في التوثيق، مما ادى الى مجابهة مشاكل عانى التنفيذ بسببها مصاعب جمة، لشحة وعدم تفهم العمل الاستشاري، وعدم التأكيد على الإدارة الموقعية الدقيقة. هذا أدى الى تدخلات المنتفعين غير المدروسة في التنفيذ، وصعّب مهمة الإشراف والسيطرة على البناء. ومع هذا فقد أرست العبر الكثيرة، كتجربة ريادية، تستحق الدراسة. وهذا ما استوجب وجود منهجية وآلية معتمدة، كما هو بحثنا هذا.

ويعد توفير الأراضي محور أي مناقشة في مسألة سكن المهمشين، وكثيرا ما يقال، ببساطة، لا توجد أرض بما يكفي للسماح ببناء كميات كافية من المساكن الجديدة.

وفي الواقع، هناك كميات كبيرة من الأراضي في كل مكان من المناطق الحضرية والريفية في بغداد غير مستخدمة، يتم حظر توظيفها للسكن في كثير من الأحيان ليس لسبب معروف. فالتصميم الاساسي الجديد قد جعل الكثافة السكانية عالية في أي مكان في بغداد وبمعدل 400 الى 600 شخص للهكتار. وفي الوقت الحالي معدل السكن من 50 الى 150 شخصا للهكتار. كما حددت الدراسة الطاقة الاستيعابية لبغداد بـ 14 مليونا في الوقت الذي يقدر عدد الساكنين في بغداد بستة ملايين ونصف المليون. اضافة الى ذلك فإن 70% من الارض الموسومة بالسكنية، وموزعة على مالكين، هي فارغة وموجودة لغرض المضاربات الاحتكارية، التي يجب أن توظف للسكن، وليس لزيادة الأسعار، وتعزيز الاحتكار وتحويل السكن من ملجأ يسكن إليه الانسان الى ما يشابه النقد المتداول. وهذا هو اسوأ استخدام للأرض؛ فالأرض في جميع انحاء العالم لا تؤول لصاحبها إلا بعد اعمارها وكانت كذلك في نظام الحسبة الإسلامي.

لذلك اضحى تقسيم الأرض وفق وظيفتها وتقسيم المناطق وفقا لقانون التصميم الأساسي وانفاذه، هو المهمة الرئيسية، التي يجب أن تتقيد به.

إن السكن العشوائي في المناطق الحضرية في العراق، هو في الممتلكات الحكومية غير المستخدمة. على سبيل المثال، في محافظة بغداد 1/3 من كل المساكن غير الرسمية في العراق (125 من 380 المستوطنات أو بعض 483148 شخصا)، و53% من الأراضي التي أقيمت عليها المساكن غير الرسمية، تعود إلى وزارة المالية، 26% إلى وزارة الدفاع، 7% الى بلديات بغداد، 4% إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، و2% على التوالي إلى كل من وزارات الزراعة، النقل والتعليم.

يعتقد كثيرون أن سبب وجود مستوطنات المهمشين الرئيسي، هو السكن. لكن في الحقيقة أن السعي وراء العمالة والتوظيف والشغل هو السبب الاساسي. لذلك الحل بإعطائهم أرضا ما هو إلا زيادة عدد المستوطنات، لأن سرعان ما يرجع الى حيث وجود موارد العيش والعمل.

إن الأراضي التي أعطيت للمهمشين، بعيدة عن مواقع فرص العمل، مما يستدعي تأهيل الأرض القريبة من وجود فرص عمل جيدة. وهذا ممكن فقط بتخصيص أراضي في المواقع المقترحة لمراكز بغداد الجديدة وعدم إعطائهم أرضا في الأماكن الموسومة بكثافة عالية في التصميم الأساسي مثل الصابيات؛ حيث تبلغ الكثافة السكانية، بحسب التصميم الأساسي الجديد 600 شخص للهكتار، بينما سوف تشغل من قبل المستحل بـ50 الى 150 للهكتار، وهذا هدر واضح للأرض، اضافة الى أن المستحل سوف يبيع الارض، ويوجد محل يستحله آخر، حيث فرص العمل الجيدة، كما حدث في العبيدي.

وفي استطلاع أخير للأمم المتحدة، وجد أن في بغداد 80% من المهمشين، لا يودون أن يرجعوا الى الأماكن التي جاءوا منها، فهم سعاة عمل، وليس طالبي سكن، وسوف يرجعون - بعد تعويضهم - الى أماكن غير بعيدة عن المناطق التي سكنوها سابقا، وسوف نحتاج الى قوات وموارد لا يستهان بها، لأجل الاخلاء واشعارهم بأن ثمة وجود مراكز جديدة، وفرص عمل في الأطراف، سوف تسهل ذلك، وحينها سيتواجدون في المناطق غير المركزية الى الاطراف؛ حيث لا تكون قيمة الارض غالية حتى لو أعطوا الأرض.

إن ربط حل المشكلة بالتصميم الأساسي الجديد حل ناجع، يجب اعتماده لأجل التنمية المستدامة المستقلة المتكاملة. كما يجب العمل على تنفيذ الطريق المحيط ببغداد، وخط السكة الدائرية لأجل تنمية المراكز المحيطية المقترحة.

إن الدولة ملزمة بأمر المهمشين، ولذلك لا بد من استحداث استراتيجية واضحة تتضمن تسهيل عمل القطاع الخاص، والذي بدوره يؤمن العمالة المرتبطة بالإسكان، والتي تزيل البطالة، وتدع سعاة العمل مرتبطين بفرص العمل الجديدة في الاسكان، ومن ضمنها الزام المطورين بإسكان عمالهم.

اتخذ البرلمان العراقي خطة بشأن الإسكان غير الرسمي (رقم 154 لسنة 2011، رقم 440 لسنة 2008، ورقم 157 لسنة 2009)، تسعى إلى جعل الإخلاء

القسري أكثر إنصافا، من خلال التكليف ترقية بدلا من الاقتلاع.

وتدعو كثير من منظمات التنمية الدولية لمفهوم "ترقية"، بدلا من "اقتلاع" المستوطنات غير الرسمية، كبديل عن تقاليد الإخلاء، مع صيغة التعويض. هذا في ما يخص المهمشين: مثال رفع مستوى مستوطنة الوحدات الشرقية في الاردن، التي حصدت عددا من الجوائز العالمية، من بينها جائزة آغا خان المرموقة للهندسة المعمارية الواعية اجتماعيا، حيث بدأت وحدات الشرق كمعسكر لاستقبال اللاجئين الفلسطينيين، وسرعان ما أصبح من الأحياء الفقيرة في نمط السكن. ولا علاقة لهم بالخدمات الحكومية.

اتخذت الحكومة القرار السياسي للتغيير الى وضعية أكثر ديمومة كحي، مع تأمين الحد الأدنى من البنى التحتية الاجتماعية والفنية. وأطفأت حق الأرض التي تقوم عليها المستوطنة، حيث كانوا يعيشون بطريقة غير مشروعة. ووافقت الحكومة أيضا على توفير الخدمات (عيادة أساسية ومدرسة)، اتفق السكان على المشاركة بقوة في التمويل خلال فترة من الوقت لترقية بناء منازلهم، مع ابقاء السكان في زاوية من المستوطنة السابقة إلى أن أكمل البناء للبيوت واحدة تلو الأخرى، لحين انجاز كل المستوطنة، ورجوع كل واحد الى مكانه. قد تشابه هذه التجربة في العراق، لكن هناك فارق نوعي بالمشاركة الجماعية بالعمل؛ فهذا يحدث فقط في مستوطنات المهمشين، وليس المستحلين، وذلك لتطوير مباني منهارة ذات مفهوم جيرة عال.

أشار البروفيسور هونغ من جامعة MIT الى حلول لمشاكل حقوق الأرض، ينبغي أن ينظر إليها على أنها لعبة يجب أن لا تكون محصلتها صفر بين الملاك والمخالفين المستوطنين غير الرسميين، فإن تغيير صنف الأرض سيجني مردودا جيدا؛ اذ ما تغيرت المستوطنة الى جزء تجاري، والجزء الاخر سكني، فيكون صاحب العقار قد استفاد من تغير الصنف، وأسس لمشروع متكامل، تذهب عنه صفة المنطقة المتهرئة.

كان من اهتدى لهذا الرأي وزاد عليه رئيس جمهورية البرازيل السابق (لويس إيناسيو لولا دا سيلفا) فقام بحملة تطوير لكل المستوطنات غير النظامية والمتهرئة، حيث رشّد استعمال الأرض. وقامت الدولة بتسويتها وتعديلها لوجود تضاريس أرضية جبلية، عندها توفر أرض فارغة أحالها للمستثمرين، مقابل تنفيذ تصميم متكامل سكني تجاري، تكون قيمة الأرض الفارغة سدا لأتعاب المستثمر.

لا بد من تشجيع القطاع الخاص وشموله بالحوافز وقروض الاسكان، تختلف عن تلك التي تعطى للإسكان بشكل عام، لكي يقوم بدور أكثر نشاطا في مجال قد يكون هامش الربح فيه قليلا.

كما يجب النظر في تغيير قوانين تقسيم المناطق، لكي يتم السماح بقدر أكبر للوصول لتطوير العقارات في المناطق المرغوب فيها. كما يجب تأمين صلات الثقة، لأجل القيام بالمسح الحقيقي الشامل، حيث لا تتوفر معطيات موثوق بها لحد الآن، بضمنها الأمم المتحدة بسبب التغيرات التي تكاد تكون يومية في هذه المستوطنات. وتعد مقايس الفضاء (الحاجة

الإنسانية) أهم معايير السكن للمهمشين، وذلك لعدم وجود إمكانيات مادية لتأمين (الفضاء القياسي)، ويمكن تأمين الفضاء الكافي للحاجة الإنسانية الملحة. وتعتبر هذه مرحلة وليس النهاية لتصميم الفضاء، ولاحقا وعبر استخدام أسس اسكان وحدة اللب، يجب تأمين الحاجة القياسية. وقد بينت دراسات عديدة للأمم المتحدة نوع وكم هذا الفضاء، وتجارب مختبرية كثيرة كذلك، واهمها دراسة قسم العمارة في معهد ماسوشوست MIT.

لا شك في أن هذه الدراسة يجب أن تؤخذ بشكل استرشادي، ولنا في العراق تجارب كبيرة في هذا المجال، أهمها دراسة حسن فتحي، وكذلك دراسة دوقسيادس والاسكان الريفي للأهوار والقرى الزراعية التي أعددتها ونفذتها في الثمانينات لوزارة التعمير والاسكان، والتي كرمت على أساسها من قبل وزراء الاسكان العرب عام 2007 كثاني أحسن معماري عربي في مجال الاسكان، وقد قمت وعبر استبيانات مختلفة تحديد الحاجة الإنسانية الملحة وصولا الى الحاجة القياسية، وفق جدول تنميط لفضاء تمكين الدارسين باعتمادها عند تصميم سكن المهمشين.

حددت منظمة الامم المتحدة وحدة لب لسكن الطوارئ، لكن الذي لم تحدده هو ما يسمى الفضاء السالب المحيط، والذي يحتل اهميته بما لا يقل عن فضاء الوحدة الوظيفية الفضاء الموجب: يحدد الرسم توزيع الفضاء الإنتاجي المحيط، وبهذا نربط العمل بالتصميم، وهذا ما أغفلته معظم التصاميم، ما ادى الى هجرة السكان أو العيش على مضض به كما حدث في مشروع 6/6 لعدم وجود فضاء إنتاجي، علما أن معظم المهمشين هم طلاب عمل وليس سكنا. وعملهم غالبا ما يكون في بيوتهم حيث تتضمن أحيانا انتاجا حيوانيا، يجب التصميم له. علما ان الإحصائيات أثبتت أن الاكثر فقرا وعددا هم فقراء الريف، ثم فقراء المدن الذين يعتمدون في عيشهم على تربية الحيوانات، واستعمال منتجاتها من الألبان وغيرها.

عُهد اليَّ بتصميم قرية الفقراء النازحين في الاهوار، وكانوا نازحين من الهور، بسبب اعادة غمر الاهوار. معظمهم عوائل ممتدة (مركبة) اقتضى تصميم لمعدل عوائل من عشرة أشخاص، وفق الوحدة التصميمية ـ اللب ـ مع وحدة خدمات الفضاء السالب والموجب، واحتمال اختلاف حجم القطع المشيد عليها الدار، وكذلك المضاف الى البيت من ملحقات، يقوم بها الساكن ومن مواد خفيفة الوزن؛ فحالة التوسع تكون باضافة وحدات منفصلة الى وحدة اللب، وكذلك الفصل بين الحيوانات والسكن. وهذا جل ما يحتاجه سكن مهمشي الريف. أما سكن مهمشي المدينة، فقد يحتاج الى البيت المغلق مع الإبقاء على وحدة اللب وتأمين محل للحيوانات، واحتمال اخر يستبعد وجود الحيوانات، عند ذلك ستتوفر ساحة أمامية، تفيد بتأمين العمل بحرفة يدوية في البيت.

ان الربط بين العمل والسكن مهمة أساسية لتأمين العمالة للمهمشين.

تركز المنظمات العالمية على تأهيل واستخدام المباني المهجورة أو المسقفات خفيفة الوزن، وذلك بمجرد اضافة وحدة الخدمات للبناء القائم، لتأهيل المبنى الى

سكن الطوارئ. وفي العراق تستخدم السطوح بعد اضافة وحدة الخدمات، عند ذلك تتحول الغرفة الى بيت، ولاحقا يتم إكمال البناء وتوسعته على وفق الإمكانيات المتاحة؛ حيث تصبح غرف السطوح مؤهلة لسكن الطوارئ.

لم تقتصر فكرة وحدة اللب على المستوى الأفقي، فيصح أن تستعمل على المستوى العمودي حيث يمكن المباشرة ببناء عدد محدود من وحدات اللب، وتستكمل لتوفي الحاجة القياسية لاحقا، كما في مباني رائدة وحدة اللب العربية زكية الشافعي في مبانيها الرائدة للمهمشين في مصر.

لا يمكن أبدا الفصل بين توفير فرص العمل واسكان المهمشين لذلك أصبح لزاما العمل بمبدأ الجهد الذاتي، حيث يمكن أن يساهم الساكن في البناء من خلال تأهيله واستخدام نظم سهلة للبناء، وكان رائد هذه العملية المرحوم عبد الكريم قاسم، عند بنائه مدينة (الثورة، الصدر حاليا) وما زالت الورش التعليمية لحد الآن، وهي معامل وزارة الإسكان والتعمير، وما زالت هذه المدينة لحد الآن تزود بغداد بأحسن البنائين.

قد يعد من أهم المتطلبات لمستوطنات المهمشين، هي تهيئة ساحات عمل جماعية، وكذلك تحديد احتمالات توسع المستوطنات. هذه الإمكانيات التي يتوجب أن تنفذ وفق المتطلبات البيئية، حيث يكون الشكل العام لترتيب البيوت بمثابة ملقف للهواء، وباتجاه الريح السائدة، وبنظام بيئي واضح، لكي لا يحمل المهمشين تبعة شراء معدات تكييف مكلفة. كما يجب توضيح الاحتمالات المختلفة للمواقع بالعلاقة مع الريح السائدة.

لا بد من أن نتوقف هنا، لنعرف لمصلحة من يتم توزيع كل هذا الإنجاز، وكيف يتم توزيع البيوت المبنية من قبل الدولة (وليس الأرض فقط)؟ فقد اعتمدت الأمم المتحدة جدول أحقية السكن وفق درجات محددة. لكننا في العراق نجد تهميشا للمرأة فوق التهميش الذي تجده في الدول الأوربية، فقد اضفت بعض التغيير الطفيف على جدول الأمم المتحدة، ولم اجد أي معارضة لدى منظمة الأمم المتحدة (الهبيتات) على معايير توزيع سكن المهمشين.

وبعد هذا العرض المستفيض، يمكن أن نلخص القول بضرورة العمل بما يأتي:

1. اعادة النظر في الدراسات الارتكازية لحل مشكلة اسكان المهمشين. وكذلك التوسع بفهم مفردة (العشوائية) والتمييز بين كل نوع من مستوطنة وأخرى.
2. النظر في أمر اعادة الحياة لمشروع إسكان المهمشين على مستوى العراق.
3. اعتماد معايير فضاء تسد الحاجة الآنية، ومن ثم الحاجة القياسية وفق مفهوم وحدة اللب والتصميم البيئي (الأيكولوجي).
4. العمل على تنفيذ البيوت بالجهد الذاتي، لتأمين عمالة للعاطلين.
5. ربط توزيع الأرض والسكن وفق ما ثبتته التصاميم القطاعية للمراكز المقترحة في التصميم الأساسي الجديد لمدينة بغداد، وذلك لتأمين سكن وعمالة.
6. عند التصميم لبيوت المهمشين يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار طبيعة المهمشين وإدماج فضاء العمل في المستوطنة والبيت مع توفير فرص لنمط الاسكان المختلفة.
7. اعتماد جدول معايير سكن المهمشين، عند توزيع الدور.

قراءة في كتاب "كركوك: جدل الأرقام والسرديات مأزق الانتخابات في سياق تحولات ديموغرافية حالة انتخابات مجلس المحافظة"

د. هاشم نعمة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب/ جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه - التخصص الدقيق: الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية بالعام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب. وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

كُتب لملف كركوك أن يكون من الملفات الساخنة، والذي يدور الصراع بشأنه على خلفيات طبقية - اجتماعية وقومية وسياسية وحزبية وفئوية وشخصية، بدلا من أن تكون كركوك نموذجا للتنوع الثر القومي والديني وللتعايش والسلم الاجتماعي.

ونظرا إلى أهمية هذا الملف على صُعد متعددة، ولما يختزنه من صراعات قد تتفجر في أوقات ما، ولتسليط الضوء على هذه المسألة الشائكة، اخترنا تقديم قراءة عن الكتاب المذكور لمؤلفه الدكتور خليل فضل عثمان، وهو أكاديمي وباحث، الصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2018، لعل ذلك يُسهم في حث الفاعلين السياسيين على إيجاد تفاهمات حقيقية تصب في مصلحة سكان كركوك خصوصا، ومصلحة العراق عموما، وتخرج هذه المسألة من المأزق الحالي. يقع الكتاب في 196 صفحة. أتبع المؤلف في كتابه هذا منهجا أكاديميا، وتميز بالحياد على الرغم من حساسية هذا الملف.

يضم الكتاب توطئة ومقدمة وستة فصول وخاتمة وتوصيات بعنوان: بحثا عن مخرج من النفق المظلم. وجاءت عناوين الفصول على النحو الآتي: كركوك وتحولات

الدولة والهوية في العراق، كركوك في متاهات التغيير الديمغرافي، صعود لجنة المادة (140) وهبوطها، اتجاهات النمو السكاني في كركوك، كركوك في سرديات المظلومية والظالِمِية العراقية، وجدليات الانتخابات وحق الاقتراع.

يذكر المؤلف في التوطئة إن القضايا التي أرخت بظلالها على العلاقة بين إقليم كردستان والحكومة المركزية في بغداد بعد عام 2003 كثيرة ومتنوعة. ولكن أيا من هذه القضايا لم تُثِر قدرا من الاهتمام، بل والمخاوف على مصير العراق برمته، كما أثارته مسألة كركوك. فالصراع على محافظة كركوك، الذي طالما أججته مزاعم متنافسة في شأن هويتها، يضرب بجذوره عميقا في تاريخ الدولة العراقية الحديثة. وقد وجد هذا الصراع تربة خصبة في أجواء الانقسام السياسي الحاد الذي ساد البلاد، منذ الإطاحة بنظام صدام حسين؛ بحيث باتت مسألة كركوك محل تجاذب ومزايدات بين غرماء العملية السياسية في العراق. إن مساعي الأطراف السياسية الكردية منذ عام 2003 الرامية إلى ضم كركوك إلى إقليم كردستان، قد اصطدمت بأنواع متعددة من الرفض من العرب والتركمان والحكومة المركزية. ومع تصلب مواقف الأطراف المتنازعة، تنامت المخاوف من أن تتحول كركوك إلى برميل بارود مهيأ للانفجار في أي وقت.

يشير عثمان الى أن الحديث عن انتخابات مجلس محافظة كركوك يتسم بمسحة من الخيبة؛ إذ إنه يفصح عن فشل متكرر في إجراء هذه الانتخابات جراء انعدام التوافق بين مكوناتها، فقد أطلت كركوك على كل موسم انتخابي ما بعد 2003 عقبة كأداء يستعصي حلها، فكان التأجيل غالبا ملاذا، لاذت به الحكومات المتعاقبة بسبب عجزها عن التوصل إلى صيغة ترضي جميع الأطراف، وتتيح إجراء انتخابات لمجلس المحافظة.

إن استمرار رواسب الانتماءات ما قبل الوطنية خلال العهد الملكي، لم يتطور إلى نكوص تام نحو الهويات الفرعية. كان الزمان زمان طغيان الأيديولوجيات الراديكالية، بطبعتيها القومية والماركسية، على وقع انتصار الثورات الاشتراكية في العديد من البلدان، واتساع رقعة حركات التحرر الوطني. ولئن دل صعود الأيديولوجيات الراديكالية في العراق على شيء، على مستوى ديناميات حراك الهويات وتصادمها وتفاعلها في تلك الحقبة، فإنما يدل على تقدم الانتماءات الفكرية على الهويات الفرعية ما قبل الوطنية.

وعن الأحداث الدموية التي عرفتها كركوك، يوم إحياء الذكرى السنوية الأولى لثورة 14 تموز، يذكر المؤلف "يمكننا الجزم بأن كما هائلا من الأحقاد الطبقية كان يعتمل ويفور في ذاك اليوم المأساوي من تموز/ يوليو 1959 في صدور مرتكبي العنف بحق التركمان. فلقد شكل التركمان تاريخيا عماد طبقة كبار ملاك الأراضي والتجار وشريحة المتعلمين في كركوك، وكان بينهم عدد لافت من الموظفين في مكاتب شركة نفط العراق في كركوك،

في حين أن أكثرية الكرد فيها كانوا من الفلاحين المعدمين أو العمال الكادحين من أصول ريفية" (ص 38).

دخلت كركوك دائرة الجدل حول الفدرالية الذي أججه إقرار النظام الفدرالي في قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية عام 2004، ومن ثم في الدستور العراقي الدائم عام 2005 شكلا تنظيميا إداريا للبلاد. وفي حين استمر الكرد في المطالبة بضم كركوك إلى إقليم كردستان، تصاعدت في الوسط التركماني المطالبات بتحويل كركوك إلى إقليم خاص، أو أن تكون ضمن إقليم تركماني على شكل قوس يمتد من تلعفر في محافظة نينوى على الحدود العراقية - السورية حتى مندلي في محافظة ديالى على الحدود العراقية - الإيرانية، مرورا بكركوك وطوزخورماتو في محافظة صلاح الدين، ويُعرف باسم "تركمن إيلي" أي "وطن التركمان". في المقابل، مال العرب في كركوك إلى رفض الفدرالية بشدة، خشية ضم كركوك إلى إقليم كردستان. وهكذا بدت كركوك في خضم هذا الجدل شكلا حادا من أشكال تحكم الهويات الفرعية في مجريات الحياة السياسية والاجتماع السياسي في عراق ما بعد 2003، وسعيها المحموم لتأكيد وجودها وإلغاء كل ما عداها.

التغيير الديمغرافي

التغيير الديمغرافي في كركوك فعل سياسي؛ أي هو نتاج ساسة مرسومة بقصد إعادة تشكيل الخريطة السكانية للمحافظة. فعلى الرغم من وجود اتفاق باعتماد سياسة ممنهجة كانت ترمي إلى "تعريب" كركوك، لكن الرؤى تتباين حول نقطة البداية التي شرعت فيها مشاريع التغيير الديمغرافي في كركوك. فلقد تبنى بعض الأكاديميين والسياسيين الكرد والغربيين موقفا يعزو الزيادة في نسبة العرب في كركوك إلى السياسات الحكومية المقصودة، والتي سعت لضمان سيطرة الحكومة المركزية على نفط كركوك، عبر توطين العرب، وتشجيعهم على الاستقرار فيها.

وفقا لهذا المنظور الموغل في هواجس مُستلة من عصر القوميات، بكل ما يضج فيه من سرديات مظلومية الأنا الجمعية بحسب المؤلف، يجري شطب كل العوامل الأخرى التي قد تكون مثّلت حوافز لانتقال أشخاص وعائلات من شتى مناطق العراق إلى كركوك، من قبيل فرص العمل المجزية التي خلقها اكتشاف النفط في كركوك عام 1927، أو النقل الوظيفي، أو للاستفادة من كفاءات إدارية في إدارة ثروة وطنية.

لا شك اعتمد نظام البعث سياسات مختلفة لتغيير الواقع الديمغرافي في كركوك لصالح العرب، بما في ذلك تقديم حوافز ترمي إلى تشجيع أعداد كبيرة من العرب، ومعظمهم من السكان الشيعة في جنوب العراق ووسطه، على الانتقال إلى كركوك والإقامة فيها. وفي أواسط السبعينيات، وتحديدا عقب انهيار الحركة الكردية المسلحة، اعتمدت الحكومة العراقية إجراءات توخت تغيير الحدود الإدارية لكركوك، ومن ثم تركيبتها السكانية. وأضفت سلسلة من المراسيم

الجمهورية على هذه التعديلات الإدارية، غلالة من الشرعية القانونية.

إلى جانب ذلك، وزعت السلطات على أعتاب التعداد السكاني العام عام 1997 استمارات "تصحيح القومية" على السكان الكرد والتركمان والكلدو-آشوريين في مسعى يرمي إلى إجبارهم على تغيير قوميتهم إلى العربية. وكان الطرد من البيوت جزاء الرافضين ملء تلك الاستمارات. وقدمت الحكومة حوافز لتشجيع سكان كركوك على "تصحيح قوميتهم" إلى العربية.

في أعقاب سقوط نظام صدام حسين، باتت كركوك أسيرة هذا الماضي الأليم. وساد التباهي بالقوة العددية للمكونات السكانية. وجاء ذلك موصولا بتنامي الرغبة في أوساط الكرد والتركمان خصوصا، في تصحيح ما جرى من تغييرات ديمغرافية، إبان حقبة حكم حزب البعث.

ما أن سقطت مدينة كركوك بلا قتال في أيدي قوات البيشمركة التابعة للاتحاد الوطني الكردستاني في 10 نيسان/ أبريل 2003، حتى بدأ الكرد بالتدفق إلى المحافظة. ولم تسلم كركوك من حالات السلب والنهب التي شهدتها مناطق واسعة من العراق في أعقاب سقوط النظام. وتواردت تقارير في تلك الفترة عن عمليات طرد وتهجير قسريين للعرب من بعض مناطق المحافظة. وشهدت كركوك تدفقا آخر للكرد في الفترة التي سبقت انتخابات كانون الثاني/ يناير 2005، والتي شملت ثلاثة اقتراعات متزامنة لاختيار أعضاء كل من الجمعية الوطنية الموقتة، ومجالس المحافظات، والمجلس الوطني الكردستاني الذي هو بمنزلة السلطة التشريعية في إقليم كردستان. وقدم الحزبان الكرديان الرئيسان جملة من الحوافز لإقناع المهجرين من أكراد كركوك بالعودة إلى المحافظة.

لجنة المادة (140)

في ضوء المرارات التي خلفتها محاولات "تعريب" كركوك وما صاحبها من انتهاكات وتهجير، وحتى القتل، لم يكن مستغربا أن تحتل مسألة كركوك، وغيرها من المناطق التي باتت تُعرف لاحقا بـ"المناطق المتنازع عليها"، موقعا متقدما في المداولات التي شهدها العراق لصياغة دستور دائم بعد عام 2003. وأفلحت ضغوط الأكراد، وتجاوب أطراف شيعية فاعلة في العملية السياسية، في إدخال مادة في قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية الذي أُقر في آذار/ مارس 2004، دستورا موقتا للبلاد إلى حين صياغة الدستور الدائم الذي جرى الاستفتاء عليه في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 2005 تعالج التغيير الديمغرافي في كركوك. لذلك سعت المادة (58) من قانون إدارة الدولة لإزالة ما لحق كركوك وغيرها من المناطق من إجحاف، تمثل بالتغيير الديمغرافي إبان النظام السابق. وأدرجت سلسلة إجراءات لمعالجة هذا الإجحاف.

لم يكن أمام السلطات العراقية متسعا من الوقت لتطبيق كل بنود المادة (58) قبل سن دستور دائم. كما أن مؤسسات

الدولة كانت منهكة ومتهالكة وتفتقر إلى الموارد والكفاءات اللازمة لتطبيقها، فضلا عن طبيعة المادة الخلافية، وما تثيره من حساسيات. وكذلك تداعي الوضع الأمني. وهكذا جرى ترحيل المادة (58) إلى الدستور العراقي الدائم. فقد ألزمت المادة (140) السلطة التنفيذية في العراق بتنفيذ كل بنود المادة (58) وحددت لذلك سقفا زمنيا، هو 31 كانون الأول/ ديسمبر 2007.

وبغية تنفيذ المادة (140) شُكلت "لجنة المادة 140" في 9 آب/ أغسطس 2006 بموجب الأمر الديواني رقم (46) الذي أصدره رئيس الوزراء الأسبق نوري المالكي. وشكلت اللجنة من 9 أعضاء، وهم 3 كرد و3 شيعة بينهم تركمانيان، و2 سنة عرب وواحد كلدو-آشوري. وفي بداية تأسيس اللجنة كان يترأسها الاستاذ حميد مجيد موسى (سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حتى المؤتمر الوطني العاشر) ثم رأسها لاحقا الاستاذ رائد فهمي وزير العلوم التكنولوجيا الأسبق. وقد طرأت عدة تغييرات على هذه التركيبة على مر السنين.

وأدت الخلافات بين مختلف الأطراف حول صلاحية العمل بالمادة عقب التاريخ المنصوص عليه لإنهاء عملها إلى توقف اللجنة فعليا عن إصدار قرارات، باستثناء القرار رقم (7) الصادر بتاريخ 12 تموز/ يوليو 2009 القاضي بـ "إعادة الراغبين من العوائل المُرَحلة والمُهَجرة والمُهاجرة الذين رُحلوا وهُجروا من المناطق المشمولة بأحكام المادة (140) من الدستور في وسط وجنوب العراق نتيجة سياسات النظام السابق" (ص 87).

إن المدة الزمنية التي حُددت لتنفيذ المادة لم تكن كافية على الإطلاق لحل القضايا والملفات التي توخت حلها في إطار مسار قانوني ودستوري معقد من أبرز سماته ـ شأنه في ذلك شأن أي مسار قضائي أو شبه قضائي ـ البطء في التنفيذ. كما أن ربط كركوك بمناطق متنازع عليها غير مُحددة بدقة، جعل حل موضوع كركوك أشد تعقيدا. فالمادتان (58) و(140) لا تشيران إلى حدود المناطق المتنازع عليها، بحيث لا شيء يمنع منطقيا إدراج مناطق أخرى في العراق، ليست موضع مطالبات كردية، ضمن المناطق المتنازع عليها. وقد تحولت اللجنة بمرور الزمن إلى هيكل فارغ يشله انعدام المخصصات المالية. فاللجنة التي يرأسها حاليا هادي العامري لم تعقد اجتماعا لها، منذ أكثر من سنتين (وقت صدور الكتاب).

جدلية الانتخابات وحق الاقتراع

يزداد سؤال أوزان المكونات ثقلا في المواسم الانتخابية؛ فالجدل بشأن التركيبة الديمغرافية في كركوك انسحب جدلا وخصاما ونزاعا حول تحقيق تمثيل مُنصِف للمكونات في مجلس المحافظة، وتحديث سجلات الناخبين في المحافظة، وتحديد من يحق له أن يدلي بصوته في انتخابات أو استفتاء يُجرى فيها. فالنزاع حول حق الاقتراع في كركوك، بكل ما يتسم به من

تعقيد، يغدو شائكا أكثر لأن من المنطقي جدا افتراض أن قوائم الناخبين نفسها المُستَخدمة في الانتخابات ستُعتَمَد أيضا في الاستفتاء المثير للجدل على الوضع النهائي لكركوك. وأدى الجدل المحتدم المتواصل حول حق الاقتراع دورا في استثناء المحافظة من انتخابات مجالس المحافظات في عامي 2009 و2013، بحيث إنها لم تشهد إجراء انتخابات لمجلس المحافظة منذ عام 2005. لم يكن ذلك مفاجئا في عراق ما بعد 2003، حيث الهويات والانتماءات الضيقة التي لا تصغي سوى لهواجسها ومخاوفها، وحيث يسود مفهوم ضيق للتمثيل في المجالس المُنتَخبة يُنظَر وفقا له إلى الممثلين المنتخبين على أنهم يعملون لصالح مجموعاتهم العرقية والطائفية بدلا من الصالح العام وعموم الناخبين في دوائرهم الانتخابية.

وعند إمعان النظر في عدد المسجلين في قوائم المستفيدين من الحصص التموينية في محافظة كركوك يُلاحظ أنه شهد ارتفاعا قدره 438001 شخص بين كانون الأول/ ديسمبر 2003 ونيسان/ أبريل 2009. والمُلاحظ أن وتيرة التسجيل في بعض مراكز التموين سجلت ارتفاعا كبيرا خلال هذه السنوات الست، علما أن هذه القوائم هي ما يتم اعتمدها في سجل الناخبين، نظرا إلى عدم وجود تعداد سكاني عام جديد في العراق منذ عام 1997.

وتبدت مؤشرات على مظاهر شابت هذا النمو في سجل الناخبين في كركوك. فوفقا لبيانات المفوضية العليا المستقلة للانتخابات، شهد سجل الناخبين في كركوك خلال عملية التحديث التي أجريت قبل الاستفتاء على الدستور في تشرين الأول/ أكتوبر 2005 زيادة بمعدل 45% مقارنة بالمعدل العام للزيادة في البلاد البالغ 8,2%. وتواصلت المخالفات في تحديث السجل في الفترة الفاصلة بين الاستفتاء على الدستور وانتخابات مجلس النواب في كانون الأول/ ديسمبر 2005، ففي 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005، أعلنت المفوضية العليا المستقلة للانتخابات أن تدقيقا لسجلات الناخبين في كركوك كشف عن وجود قرابة 86 ألف اسم أضيف "بأساليب لا تتواكب مع الإجراءات المعتمدة، وقد وجدت المفوضية أن هذه العملية هي محاولة متعمدة لتزوير العملية الانتخابية" (ص 162). وأعلنت المفوضية أنها سوف تزيل تلك الأسماء من سجل الناخبين في كركوك.

إن إلقاء نظرة فاحصة على جدول سجل الناخبين، يتبين أن عددا من المراكز شهد قفزات هائلة في التسجيل، وخصوصا بين عامي 2004 و2005. أما الصورة الكلية للتغيرات التي طرأت على أعداد الناخبين المسجلين في كركوك، فلا تبعث على الاطمئنان؛ إذ شهد عدد الناخبين المسجلين ارتفاعا بمعدل 27.99% بين كانون الثاني/ يناير 2005 وأيلول/ سبتمبر 2005. وهذه القفزة لا يمكن بأي حال أن تكون ناجمة عن زيادة طبيعية في عدد السكان؛ بحيث تُضاف أسماء الأفراد الذين يبلغون السن القانونية للاقتراع إلى سجل الناخبين، وإنما هي إلى حد بعيد، نتاج للزيادة المفاجئة في

عدد السكان الناجمة عن عودة المُهجرين الذين رُحلوا إبان حكم صدام حسين.

يحيلنا ذلك كله، معطوفا على الكم الهائل من حالات الخلل التي اعترت عملية تحديث سجل الناخبين إلى فرضية حدوث محاولات مُمنهجة لزيادة عدد الناخبين المسجلين، لا بل حشو سجل الناخبين. وما قامت به مفوضية الانتخابات قبيل انتخابات 15 كانون الأول/ ديسمبر 2005 من شطب أسماء وجدت خللا فنيا في تسجيلها، كان قاصرا عن تبديد هذا الانطباع بعدم عدالة عمليات التسجيل ونزاهتها؛ لأنه إجراء لا يعالج كثيرا من أساليب الغش وحالاته التي لجأ إليها بعضهم في تسجيل الناخبين. هذا فضلا عن أن المفوضية لم تعتمد آلية لتحديد الأشخاص الحقيقيين - والمفترض أنهم كُثُر- الذين يحق لهم الاقتراع في كركوك، والذين ارتكبوا أخطاء غير متعمدة في ملء استمارات التسجيل أدت إلى شطبهم من السجل.

أُنشئت لجنة برلمانية بعنوان "لجنة المادة 23 من قانون انتخاب مجالس المحافظات"، وضمت نائبين كرديين، ونائبين عربيين، ونائبين تركمانيين، ونائبا مسيحيا واحدا، للعمل على تنفيذ بنود المادة، تتضمن مراجعة البيانات الديمغرافية الخاصة بكركوك، بما فيها السجل الانتخابي. إلا أن اللجنة التي اتفِق على أن تتخذ قراراتها بالتوافق أخفقت في تقديم تقرير موحد إلى مجلس النواب، لعدم تمكن أعضائها من تجاوز الاختلافات والتباينات في مواقفهم حول طرق حل الملفات العالقة، ومن ثم عمد ممثلو كل مكون على حدة، الى تقديم تقرير منفصل، يتضمن رؤى المكون (بالأحرى رؤى النخب السياسية التي تدعي تمثيلها للمكونات)، حول هذه الملفات ومقترحات لسبل معالجتها.

في أتون متقد بلهيب الاتهامات المتبادلة بالغش والتزوير للتأثير في عمليات الاقتراع، ما جعل من المتعذر شمول كركوك في أي انتخابات تالية لمجالس المحافظات. وكان الدفع في اتجاه استثناء كركوك من الانتخابات اللاحقة صادرا عن كيانات وشخصيات تمثل المكونين العربي والتركماني، في حين أن الموقف الكردي ظل مصرا على شمول كركوك في انتخابات مجالس المحافظات أسوة بسواها من المحافظات.

يختتم المؤلف الكتاب بالقول "أمام هذا الواقع الذي تتحول فيه الدورات الانتخابية لمجالس المحافظات في العراق إلى مناسبات لإعادة إنتاج المأزق الكركوكي على نحو أشد تعقيدا، نجد أنفسنا أمام سؤال ملح أشد من أي وقت مضى: هل من سبيل لإخراج كركوك من أعتى مآزقها؟" (ص 175).

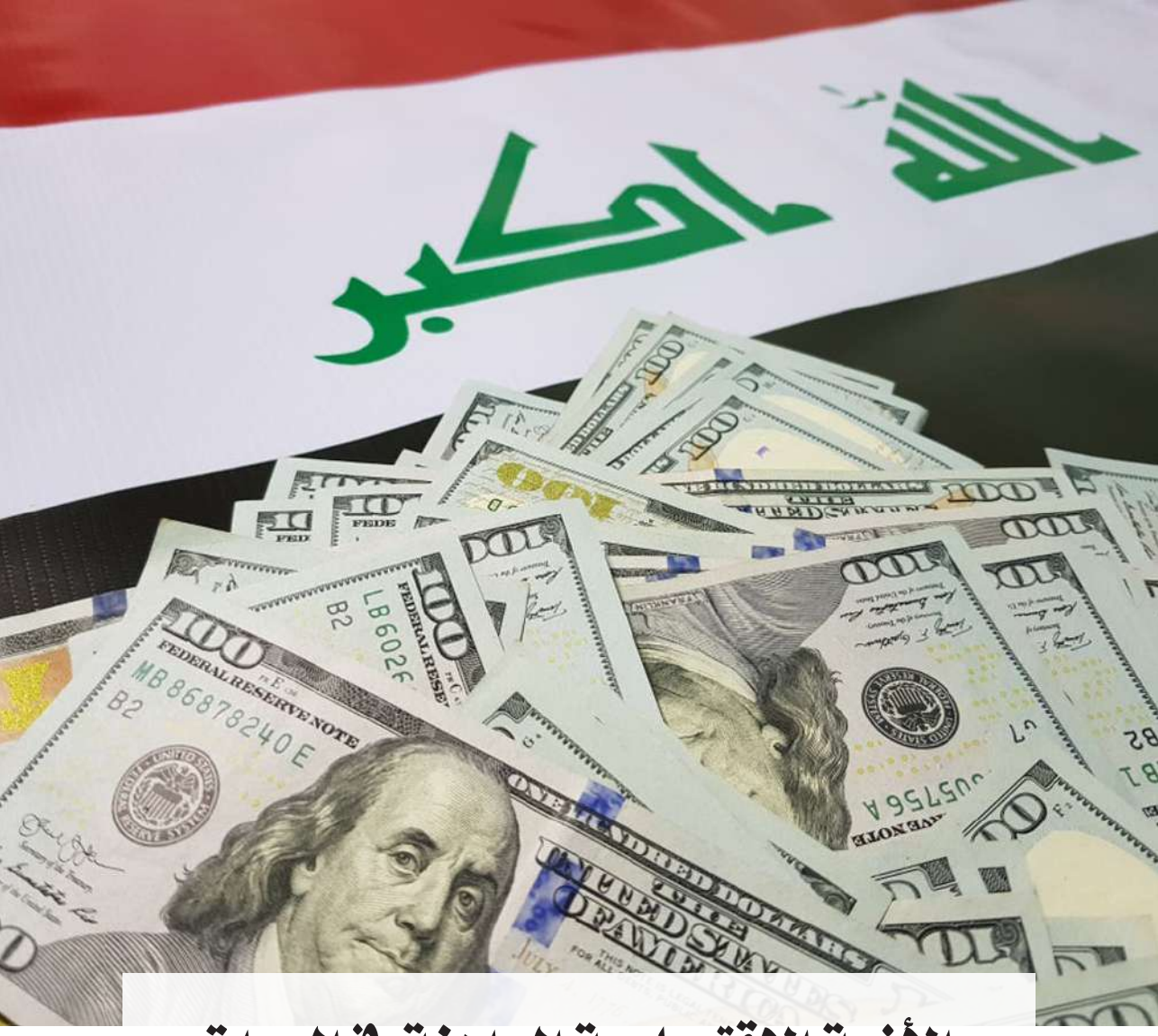

الأزمة الاقتصادية الراهنة في العراق

تحديات واقع متمرد .. ورهانات مستقبل مفتوح

رافق ويرافق اندلاع الأزمة الاقتصادية الراهنة في العراق سجالات صاخبة وجدل واسع في أوساط الباحثين وخبراء الاقتصاد والمال والسياسة والاعلام، حول توصيف هذه الأزمة، وحول التداعيات التي يمكن أن تتركها على راهن ومستقبل الاقتصاد والمجتمع في بلادنا.

وانطلاقا من العلاقة بين العام والخاص، فانه لا يمكن رؤية الأزمة في بلادنا بمعزل عن الازمة البنيوية العالمية الراهنة التي انطلقت عشية ظهور جائحة فيروس كورونا (الذي كان بمثابة الصاعق، الذي اطلق لهيبها الحارق) وانهيار اسعار النفط، الأمر الذي يتيح القول أنها لم تكن أزمة عابرة أو ظرفية تخص بلدا بعينه أو مجموعة محدَّدة من البلدان، وإنما باتت أزمة عالمية طالت وتطول بنتائجها وتداعياتها واستحقاقاتها سائر دول العالم على اختلاف أنظمتها الاقتصادية من جهة، واختلاف مواقعها في النسق الرأسمالي العالمي من جهة أخرى.

وبداية، لا بد من الإشارة الى أن تاريخ الرأسمالية، ما هو إلا تاريخ تطورها المتناقض وأزماتها الدورية والهيكلية، صعودها وانحدارها، إذ يمكن القول أن الأزمات الاقتصادية وتمظهرها في تجليات مالية ونقدية وهيكلية ... الخ، كانت على الدوام تمثل السمة البارزة في تاريخ الرأسمالية في جميع مراحلها، والأزمة العالمية المندلعة حاليا ليست خروجا عن هذه المسارات "الحديدية" بل امتداد لها.

ومن جهة أخرى يتعين علينا، إذا أردنا فهم طبيعة الأزمة الاقتصادية الراهنة في العراق ومضاعفاتها المحتملة، ان نضعها في منظورها التاريخي الصحيح. انها ازمة النظام الذي انبثق بعد 2003 والنظام الدكتاتوري الذي سبقه اضافة الى السياسات الاقتصادية للاحتلال المتمثل بالمشروع الاقتصادي الذي طرحه الحاكم المدني لسلطة الاحتلال حينذاك (بول بريمر). ويجب ألا يغيب عن البال المنطق الداخلي لهذا النظام والبيئة المتغيرة التي يعمل في إطارها. فظهور الأزمات المالية والاقتصادية وتطورها، يرتبط بالسياسات الاقتصادية الكلية، ذلك لان الأزمة الحالية التي تعبر عن ذاتها بهذا التدهور المريع، ما هي إلا نتاج للسياسات المالية والنقدية، التي هي جزء أساسي من الاستراتيجيات والخيارات الاقتصادية الإجمالية المعبرة، في الوقت ذاته، عن "الفكر" الاقتصادي الذي يلتزم به أصحاب القرار الاقتصادي والسياسي، والذي يسيطر على خياراتهم وسياساتهم وقراراتهم.

لقد بيّن مسار التطورات الاقتصادية منذ 2003 ولحد الآن -وتفجرها في اكثر من مرة على هيئة ازمات- أن الحلول التي قدمتها القوى المسيطرة في بلادنا لا تقدم مخارج حقيقية لهذه الأزمات، بل أن لتلك الحلول هدفاً واحداً ووحيداً هو إعادة إنتاجها بما يضمن إعادة إنتاج العلاقات وتناسبات القوى ضمن اطار النظام المحاصصي/ الطوائفي، بما يضمن إعادة إنتاج علاقات الهيمنة/ التبعية. ولهذا فان الإشكالية الأساسية اليوم هي طرح بديل آخر لا يقوم على "الخروج من الأزمة" بل، على بلورة استراتيجيات تؤدي الى الخروج

من النظام المحاصصي الذي يعد المسؤول الاول عن انتاج هذه الازمات وإعادة انتاجها دوريا.

ومن اجل فهم أفضل للإشكالية المنوي معالجتها، لا بد من التذكير بالأسباب الجوهرية للأزمة التي اندلعت اخيرا على مستوى العالم الرأسمالي بمراكزه وأطرافه، بعيداً عن الظواهر والأسباب المباشرة، من خلال قراءة بعض جوانب التطور الرأسمالي المعاصر، ومحاولة ربط بعض التجليات والظواهر مع ما يجري اليوم على صعيد بنية النسق الرأسمالي العالمي. إنها أزمة جديدة تعصف بالنظام الاقتصادي العالمي وليس المالي فقط، وهي تأتي في سلسلة الأزمات المتلاحقة التي تسارعت منذ أوائل السبعينات ثم أوائل التسعينيات، ووصولا الى ازمة 2008 التي ما تزال نيرانها مشتعلة وزاد حريقها في الاسابيع الاخيرة.

ويمكن القول أن ما جرى سابقا وما يجري حاليا ليس خللاً طارئا أو أزمة عابرة، بل هو أزمة في التحول والتطور في إطار النسق الرأسمالي العالمي. وقد كانت مؤشراته عديدة ومتلاحقة. ويتضح أن هذا التطوير القسري للرأسمالية لتأخذ هذا الطابع المالي المعولم المعزول عن الاقتصاد الحقيقي، قد وصل إلى مرحلة باتت تهدد هذا النسق بأكمله. وكان هذا الفشل مؤشراً للتباعد المتزايد مابين الاقتصاد الحقيقي والاقتصاد (الافتراضي). مع ذلك لم يُصحَّح "الخلل"، بل على العكس من ذلك بدأت تتسع حلقات الأزمات من المجال المالي والمصرفي إلى سوق النفط والطاقة... الخ، وأصبح التهديد يشمل المليارات من البشر، ولم تعمل آليات التصحيح الذاتي كما روج لها منظرو الليبرالية الجديدة!

ولا بد من التأكيد، منعا لأي التباس، إن الأزمة الحالية ليست نهاية عصر الرأسمالية لأنه طالما لم تتبلور بدائل، أي حلول قادرة على فرض نفسها، فليس ثمة "وضع بلا مخرج" بالنسبة للنسق الرأسمالي العالمي. فبإمكانه دوما خلق هوامش جديدة لنفسه. ويشير تاريخ هذه النسق الى أن بوسع الرأسمالية أن تعيش وتبقى مع أزماتها، واضطراباتها، وتراجعاتها. ولكن الأزمة الحالية بسبب "الخصوصيات" التي انتجتها تعد واحدة من الأزمات المؤثرة والخطيرة؛ إذ أكدت التطورات خلال الاسابيع التي تلت اندلاعها عمق هذه الأزمة ودوامها، وبخاصة طابعها المنظومي، وسوف تتبعها أزمات، كما تدلل على ذلك العديد من المؤشرات. ولكن وكما بينت التجربة، فان اعتبار السوق المرجعية الأساسية؛ والتنافس هو المنظم الأول والأخير للتطور في إطار "الليبرالية الجديدة"، سوف يجعل من الأزمات سلسلة لا تنتهي إلا بتحطيم النظام كما تنبأ ماركس (المنافسة الرأسمالية ستقود إلى تدمير النظام الرأسمالي). وقد تحاول بعض الحكومات وبعض "منظري" الرأسمالية إدخال بعض "العقلانية" على السوق، ولكنه لن يكون أكثر من جرعة مهدئة، لاستئناف الصراع (المنافسة) وتدمير الآخرين.

انطلاقا من الملاحظات أعلاه، وغيرها الكثير، ارتأت هيئة تحرير مجلة (الثقافة

الجديدة) ان تكرس ملفا خاصا بعنوان: (الاقتصاد السياسي للأزمة الاقتصادية الراهنة في العراق - تحديات واقع متمرد... ورهانات مستقبل مفتوح)، وذلك ضمن هذا العدد المزدوج (413-414) في محاولة لفهم الجذور الفعلية لهذه الأزمة والشروط الاجتماعية/ التاريخية التي جعلت ظهورها ممكناً والمقاربات المختلفة لتفسيرها والبحث عن المخارج المختلفة لتجاوزها.

يضم الملف عدة مساهمات (ننشرها هنا حسب تواريخ وصولها الينا)، تحاول مقاربة هذه الازمة واقتراح اجراءات ومعالجات لتجاوزها. ولا ندعي ان الملف، بما احتواه من دراسات جادة، انه سيقدم "اجابات ساحرة وحلولا ناجزة" للازمة المندلعة، لكننا على قناعة ان ما مطروح في هذه الدراسات يمكن ان يشكل مدخلا اوليا للتفكير بالازمة: راهنها وسبل تجاوزها. ونطمح ان يحفز ذلك باحثين آخرين للادلاء بدلوهم في موضوعات تتعلق بتحديات واقع متمرد... ورهانات مستقبل مفتوح. وتبقى ابواب مجلة (الثقافة الجديدة) مفتوحة لمساهمات جديدة حول موضوع الازمة الاقتصادية الراهنة، كما بالنسبة لأي موضوعات جادة اخرى.

(الثقافة الجديدة)
حزيران/2020

العراق أمام التحديات: تَغيير السياسات الاقتصادية المُعيبة

صبري زاير السعدي

صبري زاير السعدي، دكتوراه في تخطيط الاقتصاد الوطني من جامعة برمنكهام بالمملكة المتحدة، شغل مناصب وظيفية عديدة، أبرزها: مدير عام الدائرة الاقتصادية ورئيس هيئة التخطيط الاقتصادي بوزارة التخطيط العراقية، ثم مساعد مدير عام منظمة التنمية الصناعية التابعة لجامعة الدول العربية، ورئيس مؤقت لقسم التخطيط الاقتصادي في منظمة الامم المتحدة لدول جنوب شرق اسيا (الأسكوا). وعمل في الامم المتحدة كخبير في برمجة الاستثمارات، والسياسات الاقتصادية الكلية. ونشر الدكتور صبري زاير السعدي العديد من الكتب و الدراسات المتخصصة في قضايا التنمية والسياسات الاقتصادية في الدوريات العربية والأجنبية. وفي السنوات الأخيرة، تركزت اهتماماته الفكرية والمهنية والسياسية في موضوع الأزمة الاقتصادية بالعراق وصياغة المشروع الاقتصادي الوطني لمعالجتها، والذي تبلور في عمل مهم بعنوان: التجربة الاقتصادية في العراق – النفط والديمقراطية والسوق في المشروع الاقتصادي الوطني (1951 – 2006)، **صدر في عام** 2009 **عن دار المدى.**

أولاً: التحديات الاقتصادية:

أسباب الانهيار

يُساعد كثيراً، ويستحق الاهتمام، اعتراف الحكومة الجديدة بأن أزمة البلاد شاملة وصعبة، وأن سيادة الدولة ناقصة، وأن العملية السياسية بحاجة للتصحيح، وأن الفساد المالي والإداري يتجذر باستنزاف الثروة الوطنية [1]. ويؤكد الاعتراف، أن السياسات التي نفذت خلال السنوات السبعة عشر الماضية لم تحقق الأمن الغذائي، أو النهضة الصناعية، أو التنويع في واردات الدولة، أو توسيع الاستثمار، أو تأهيل البنى التحتية المتآكلة، أو التغيير في هيكل إنتاج وتصدير وتصنيع النفط، أو توفير التعليم والصحة والخدمات العامة، أو توفير فرص العمل المنتج. ولكي يُسهم هذا الموقف في تحسين الثقة مع السلطة السياسية، كان يجب الإيضاح بأن هذه النتائج الكارثية تعود لتنفيذ السياسات الاقتصادية المُعيبة برعاية صندوق النقد الدولي "الصندوق" بالتعاون مع الحكومات، وأن التغيير الجذري في هذه السياسات، هو الشرط الضروري لمواجهة تحديات انهيار الاقتصاد والأزمة المالية الحالية. وهنا، وفي البدء، يجب التأكيد بأن تحدي الانهيار الاقتصادي والأزمة المالية هي مسؤولية وطنية تقع في قِمة أولويات مهام الدولة (الحكومة)، وهي ليست مسؤولية القطاع الخاص، الوطني

والأجنبي، أو مسؤولية "الصندوق"، أو مسؤولية المنظمات المالية والاقتصادية الدولية، أو مسؤولية الدول الصديقة.

لم تَكن خافيةً أسباب ونتائج تَفاقُمْ أزمة الاقتصاد الوطني الهيكلية المُزمِنَة، وليس بغامض أن السبب المباشر في انحدارها المباغت نحو الانهيار مع التأثيرات الاقتصادية لجائحة (كوفيد- 19) في دول العالم، هو الانخفاض السريع والكبير في الإيرادات النفطية. ولكن الأكثر أهمية ودقة، أن أسباب الانهيار الرئيسية تعود لفشل الحكومات في استثمار "نعمة" الإيرادات النفطية في إحداث التنويع الاقتصادي الهيكلي بغياب "المشروع الاقتصادي الوطني" الذي يَهتدي باستراتيجية اقتصادية مستقبلية ويُكَرسُ مسؤوليات الدولة في إدارة الاقتصاد وتنمية الموارد العامة، مركزياً، وإنهاء التفريط "بنِعمَة" الثروة النفطية. وفي الانتفاع من الثروة النفطية، يجب الاستثمار في مشاريع إنتاجية تتحدد أولوياتها في إطار التخطيط الاقتصادي المركزي الحديث. يَعلمُ الجميع أن انهيار الاقتصاد ارتبط بالانخفاض الحاد والسريع في الإيرادات النفطية، وقد سبقه الفشل في "تنويع" مصادر الإنتاج والدخل لتقليل الاعتماد على الصادرات النفطية بسبب عوامل متعددة، أهمها: تباين معايير الاستثمار الخاص الوطني والأجنبي مع متطلبات "التنويع" بسبب: أولاً، عدم ملاءمة المناخ الاستثماري بتوفر البنى الأساسية المادية (الاقتصادية) والاجتماعية والبيئية، وضعف المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية. وثانياً، اختلال هيكل العلاقات الصناعية بين القطاعات وهيمنة "الريع النفطي" في الفعاليات الاقتصادية وصعوبة تغييرها من خلال القطاع الخاص وآليات السوق من جهة ثانية.

مع تجاهل المنهاج الوزاري للحكومة الجديدة تفاصيل السياسات الاقتصادية المتكاملة والمتسقة وتحديد أولويات التعامل مع انهيار الاقتصاد في إصدار مشروع قانون موازنة للسنة الحالية[2]، فإن الأهم، وقبل الاستغراق في مناقشة تفاصيل الإنفاق "المستهدفة" في الموازنة العامة، وهي ضرورية وبحاجة لترتيب أولوياتها الاقتصادية والاجتماعية، وقبل ترويج أسلوب "المحاسبة المالية" في تنفيذ السياسات المالية والنقدية الكلية لتقليص العجز في الموازنة العامة وثبات سعر الصرف بين الدينار والدولار وتحديد الدين العام والقروض الأجنبية، كان يجب تغيير أولويات ومصادر تمويل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والاستيرادات في إطار نموذج اقتصادي وسياسات "جديدة". فالسياسات الاقتصادية الحالية قاصرة الفعالية والكفاءة وتُكرس الواقع بتَقييد الدولة بما "يُمكنُ" تحقيقه بالموارد المالية العامة، وليس بما "يَجبُ" تحقيقه بتعبئة الموارد البشرية والاقتصادية والمالية والعلمية والتكنولوجيا لاستعادة النشاط الاقتصادي والخروج من "فخ الريع النفطي - السياسي".

ثانياً: مؤشرات الانهيار الاقتصادي والإفلاس المالي

في تقدير مؤشرات الانهيار، استخدمنا تقديرات "الصندوق" للمؤشرات الاقتصادية والمالية والنقدية الرئيسية التي لا تعكس فقط نتائج السياسات الاقتصادية

والمالية في السنوات الماضية، إنما الأكثر أهمية، أنها تحدد مسبقاً السياسات الواجب تنفيذها من قبل الحكومة خلال السنوات القادمة (2020 - 2025)[3].

ولأن النمو الاقتصادي السنوي يقاس عادة بتطور قيمة الناتج المحلي الإجمالي، فإن ملاحظة "الزيادة أو الانخفاض" في قيمة الناتج المحلي الإجمالي في حالة الاقتصاد الوطني، ليست كافية في التقييم. فالأكثر أهمية، ملاحظة "الزيادة والانخفاض" في القيمة المضافة لقطاع استخراج النفط الخام وقيمة الإيرادات المتوقعة من صادرات النفط الخام، للأسباب المترابطة الاتية:

- أن قطاع النفط الخام يسهم بنسبة 45% من الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي (بالأسعار الثابتة).
- وتُسهم الصادرات النفطية بما يزيد على 98% من العملة الصعبة (الدولار).
- وأن الإيرادات النفطية تسهم بنحو 95% في إيرادات الموازنة العامة.
- وأن الإنفاق الحكومي هو المحرك الرئيسي للنشاط الاقتصادي في كافة القطاعات.
- وأن الطاقات الإنتاجية في القطاعات الاقتصادية غير النفطية، محدودة جداً، ونموها مُقيد بالإنفاق الحكومي.

ومع انكماش الاقتصاد العالمي المؤكد خلال هذا العام 2020، فإن من المتوقع، بتقديرنا، انخفاض قيمة الناتج المحلي الإجمالي بمقدار يتراوح بين - 13.5% و- 18%. أما بالنسبة للإيرادات النفطية، فإن من المتوقع انخفاضها بنسبة تتراوح بين - 81.4% و70.4%-[4]. ولهذا، من المتوقع مضاعفة العجز في الموازنة العامة لهذا العام والذي قدر قبل هذه التطورات بنحو 8.5 مليار دولار (- 3.5%) من قيمة الناتج المحلي الإجمالي لسنة 2020، لتبلغ قيمة العجز نحو 50 مليار دولار، أي ما يزيد على - 20% من قيمة الناتج المحلي الإجمالي. وستتآكل الاحتياطيات من العملة الأجنبية التي قدرت قبل التطورات الجديدة بنحو 60 مليار دولار نتيجة الاستيراد من السلع والمنتجات، ومواصلة بيع الدولار بمزادات البنك المركزي، وإنفاق التسليح الذي "نجهل" قيمته العالية. كما سيزداد العجز في ميزان الحساب الجاري (الميزان التجاري وميزان المدفوعات)، وستنخفض القدرة على الاستيراد سريعاً بما يقترب كثيراً من توقعات "الصندوق" قبل الأزمة الحالية حيث سيكفي المتوفر من الدولارات تغطية قيمة الاستيرادات لمدة 12 اسبوعا فقط في عام 2024.

ثالثاً: المعالجة المالية الحكومية المتوقعة

لا يمكن التكهن بالتطورات المحيطة بمستقبل أسعار النفط وكمية الصادرات في ظروف عدم اليقين بحالة انكماش الاقتصاد العالمي واحتمالات الكساد، منذ انتشار وباء كورونا. ومع ذلك، يَزداد القلق من قصور معالجة الانهيار، ليس فقط بإنكار مسؤولية السياسات الاقتصادية العَقيمة وتجاهل نتائجها الوخيمة، بل وأيضاً، استمرار العمل بها وتبديد الموارد والثروات الوطنية، وخصخصة مشاريع القطاع العام، وبيع فرص الاستثمارات العامة الواعدة بغطاء المشاركة بين القطاع الخاص والقطاع العام وبتمويل جزئي من الإيرادات النفطية. كما

في أمثلة "مشروع قانون مجلس الإعمار" أو ما يماثله "المجلس الأعلى للإعمار والاستثمار"، أو التسريبات عن مشاريع "شركة العراق القابضة" وعن "تمويل الموازنة العامة بسندات مقومة بالنفط". وفي السنوات الماضية، كانت رغبة الحكومة في إيداع الفوائض من الإيرادات النفطية في "الصناديق السيادية" لاستثمارها في الأسواق المالية الدولية.

واضح جداً، ليس هناك وسيلة فعالة لوقف نتائج انهيار الاقتصاد والإفلاس المالي نتيجة الاستمرار بالسياسات الاقتصادية الحالية. هناك فقط الاحتمالات الأربعة الاتية:

أ. الإنخفاض الحاد والسريع في قيمة الدينار مقابل ارتفاع قيمة الدولار وزيادة التدهور في مستويات المعيشة.

ب. زيادة الدين العام المحلي وارتفاع معدلات التضخم الذي يفاقم التردي في مستويات المعيشة.

ج. زيادة القروض الخارجية، بشروط تقييد قاسية، أهمها، ضمانات بأصول النفط الخام، وبيع ممتلكات الدولة من الأصول الإنتاجية والثروات الوطنية.

د. تقليص كبير في نفقات الموازنة العامة السنوية.

وفي تقديرنا، إن اللجوء للاحتمال الثاني والثالث، هما المفضلان للحكومة.

رابعاً: نصائح "الصندوق" الجديدة: أهمية الدولة والقطاع العام في الاقتصاد

في التعامل مع انهيار الاقتصاد الوطني، يكون مهماً مراجعة إيديولوجيا "الكفاءة الاقتصادية وآليات السوق" في سياسات "الصندوق" الجديدة للتعامل مع تأثيرات جائحة "كوفيد19-" في معالجة "انكماش" واحتمالات الكساد في الاقتصاد العالمي، والعودة للأساسيات: تأكيد أهمية الدولة والقطاع العام في تخطيط الاقتصاد والتنمية.

فمع انتشار الوباء، طالب "الصندوق" حكومات دول العالم بتقديم الدعم المالي السريع والمكثف لحماية الأرواح وصحة الفرد ولتمويل الشركات بسخاء لمنع افلاسها وتوقف الإنتاج والتخفيف من أعباء البطالة[5]. وفي سياسات المستقبل بعد انحسار الجائحة، يَعترفُ "الصندوق" بأهمية القطاع العام والمشاريع الإنتاجية المملوكة للدولة في مكافحة الجائحة والحد من الركود الاقتصادي[6]. وما يثير الدهشة، أن "الصندوق"، وبخلاف السياسة المالية والنقدية الكلية الليبرالية "العقيمة" الماضية، يطالب الحكومات، وليس القطاع الخاص، بالاستثمار المباشر ليس فقط في مجالات الصحة وتقليل مخاطر الأوبئة، بل وأيضاً، بأولويات الاستثمار العام في مشاريع البنية الأساسية، كما في تكنولوجيا الطاقة النظيفة، والتعليم، والمياه النظيفة، وإنشاء الطرق والجسور، في المدى القصير والبعيد[7].

وفي تقييم اقتصادي جديد وهام لنتائج جائحة كورونا في مستقبل الرأسمالية "الليبرالية الجديدة"، يؤكد انتهاء زمن ازدهار العولمة التي أتاحت تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة بين دول العالم[8].

لعل في سياسات "الصندوق" التي تجاوزت، ولو اضطراراً مؤقتاً، إيديولوجيا التمسك بالسياسات "الليبرالية الجديدة"، وتأكيد تراجع الاستثمار الأجنبي

المباشر لأمد زمني بعيد، يشجع الحكومة ومستشاريها على تحويل انهيار الاقتصاد والإفلاس المالي إلى فرصة لتأسيس نموذج اقتصادي، حديث تقوم الدولة بمهام تخطيط الاقتصاد الوطني واستثمار الثروات الوطنية، لاسيما النفطية، مركزياً ومحلياً، في مشاريع تَعتمدُ معايير الكفاءة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية معاً، وبدون إهمال دور القطاع الخاص وآليات السوق التنافسية.

ومع تراجع العولمة وتيار الاندماج بالاقتصاد العالمي، ينبغي توسيع آفاق التعاون الاقتصادي العربي والإقليمي.

خامساً: السياسات الاقتصادية في المشروع الاقتصادي الوطني

للتعامل مع انهيار الاقتصاد والإفلاس المالي، فيما يلي الإطار العام لحزمة من السياسات الاقتصادية المالية والنقدية الكلية، والاستثمار الحكومي، والتجارة الخارجية، المتكاملة والمتسقة في أولوياتها. ومن الواضح، أن البيانات والمعلومات ذات العلاقة المتوفرة في المؤسسات الحكومية، لو توفرت لدينا، سيكون بالإمكان تأكيد القيمة العملية لها بتحديد الخطوات الإجرائية وتوقيت تنفيذها.

1-5 : السياسات المالية، وتشمل:

أ. تخفيض الرواتب والامتيازات العينية لكبار المسؤولين والعاملين في الخدمة العامة، المدنيين والعسكريين، وفي مؤسسات القطاع العام، وأية هيئة يتم تمويلها من المالية العامة، وبدون استثناء، بما يوازي 30% من مجموع الرواتب وبنسب تتراوح بين 20% - 70%، وتنظم التفاصيل بتعليمات صادرة عن مجلس التخطيط الاقتصادي.

ب. إيقاف الإعانات المالية المقدمة لأية جهة أو مؤسسة أو منظمة سياسية أو مدنية.

ج. تجميد تخصيصات المشاريع تحت التنفيذ، ومطالبة الجهات التنفيذية المسؤولة عنها بتقديم تقارير خلال شهر واحد، تتضمن نسب الإنجاز المادي والمالي، وبيان أسباب التأخر في التنفيذ للبت في إعادة تمويلها وتنفيذها بقرار من مجلس التخطيط الاقتصادي.

د. تأكيد حماية المُلكية العامة للثروات والموارد الطبيعية والأصول الإنتاجية وعقارات الدولة، وإيقاف الاتفاقات والمفاوضات لخصخصة مشاريع القطاع العام ومطالبة الوزارات والجهات الإدارية المسؤولة عنها بتقديم تقارير خلال شهر واحد تُعيد تقييمها وتأهيلها بمعايير الجدوى الاقتصادية والاجتماعية والفنية للبت في تقرير مآل مُلكيتها من قبل مجلس التخطيط الاقتصادي.

ه. إيقاف القروض الأجنبية الجديدة، ومطالبة الوزارات والجهات المسؤولة عنها بتقديم تقارير مراجعة وتقييم لشروطها إلى مجلس التخطيط الاقتصادي خلال شهر واحد.

و. قيام وزارة المالية، بإعداد الموازنة العامة لعام 2020 بتمويل 50% فقط من الإيرادات النفطية والإيرادات العامة الأخرى المتوقعة، بما فيها القروض الأجنبية، وتقليص النفقات العامة بما يعادل إجمالي الإيرادات العامة لتقليص العجز في الموازنة العامة، وتقديمها إلى وزارة

ومجلس التخطيط الاقتصادي في نهاية شهر ... عام 2020 للبت فيها[9].

ز. يتم الفصل بين الموازنة العامة السنوية وبين منهاج الاستثمار الحكومي السنوي. وإلغاء العمل بالموازنة الشهرية.

ح. تأكيد محاسبة الفاسدين والمسؤولين عن تبديد الأموال العامة واستردادها في إطار محكمة خاصة تصدر بقانون للبدء في شهر كانون الأول هذا العام بأداء جميع مهامها بإجراءات سريعة وعلنية لإصدار أحكامها في مدة لا تتجاوز الستة أشهر.

2-5: السياسة النقدية، وتشمل:

أ. استبدال مزادات العملة الصعبة، واختيار نظام أسعار الصرف المتعددة، والعمل بنظام الاعتمادات المستندية لتنظيم تدفق الاستيرادات من السلع الغذائية والمنتجات الاستهلاكية الضرورية ومستلزمات مشاريع الاستثمار الحكومية والخاصة، وللتحكم في التضخم في إطار تقليص قيمة الاستيرادات بما لا يقل عن 30%.

ب. تخفيض أسعار الصرف للدينار مقابل الدولار بهدفين: الأول، زيادة الإيرادات المالية (تحويل الدولار للدينار) في الموازنة العامة. والهدف الثاني، تقليص الاستيرادات نتيجة ارتفاع أسعار المنتجات والسلع المستوردة.

ج. يكون استبدال نظام أسعار الصرف الثابت التابع للدولار إلى نظام أسعار الصرف المتعددة:

- لأغراض تمويل الموازنة العامة.
- لأغراض الاستيراد.
- لأغراض التعاقدات السابقة.

3-5: توزيع الموارد المالية العامة:

يتم توزيع مجموع الإيرادات النفطية وأرباح القطاع العام والدين العام المحلي والقروض الأجنبية، كالتالي: يمنح منهاج الاستثمار السنوي نسبة 50% من الإيرادات النفطية، وجميع أرباح مشاريع القطاع العام لتمويل المشاريع الحكومية الصناعية وفي إعادة تأهيل مشاريع البنية الأساسية الاقتصادية (المادية)، وتمنح الموازنة العامة نسبة 50% من الإيرادات النفطية، ومجموع بقية الإيرادات العامة.

4-5: تحديد أولويات منهاج الاستثمار الحكومي السنوي:

أ. مراجعة وتقييم مشاريع الاستثمار في قطاع النفط: الإنتاج والتصنيع والصادرات، ومطالبة وزارة النفط والشركات التابعة لها بتقديم التقارير إلى مجلس التخطيط الاقتصادي خلال شهر واحد للبت في سلامتها.

ب. تخصيص 50% من الإيرادات النفطية المتوقعة لتمويل مشاريع منهاج الاستثمار السنوي لعام 2020، ومطالبة الوزارات بتقديم مقترحاتها من المشاريع التي تتوفر فيها معايير الجدوى، كما في تعليمات مجلس التخطيط الاقتصادي، خلال شهر واحد من تاريخ تسلم تعليمات المجلس.

ج. في المرحلة الراهنة، تكون أولويات الاستثمار الحكومي، كالاتي:

- تنفيذ برامج ومشاريع المناطق الفقيرة (المرحلة الأولى 10 مشاريع في المحافظات)
- تنفيذ مشاريع إعادة تأهيل مشاريع القطاع العام الصناعية.

• تمويل المصارف الحكومية المتخصصة للمشاريع الصناعية والزراعية والتجارية المتعثرة.

5-5: التجارة الخارجية وميزان المدفوعات:

• تنظيم الاستيراد بواسطة البنوك التجارية، العامة والخاصة، بنظام الاعتمادات المستندية.

• تقييد الاستيراد من السلع والمنتجات المنافسة.

• تقييد استيراد العمالة الأجنبية بكافة مستويات المهارة، باستثناء الخبراء في الصناعات الاستراتيجية والتكنولوجية المتقدمة.

• الطلب من الوزارات المعنية جدولة تسديد القروض الخارجية بأسرع ما يمكن.

6-5: الإطار المؤسسي:

أ. تأكيد الوحدة السياسية للدولة والمركزية في صوغ وتنفيذ السياسات والقرارات والاتفاقيات الاقتصادية والنفطية، وفي تحديد السياسات المالية والنقدية الكلية، ومعايير الاستثمار الحكومي، وسياسة التجارة الخارجية، بتوجيه وإشراف مجلس التخطيط الاقتصادي المباشر.

ب. صدور قانون مجلس التخطيط الاقتصادي برئاسة رئيس مجلس الوزراء وعضوية وزراء التخطيط والمالية والنفط والصناعة والزراعة والعمل والشؤون الاجتماعية والإعمار والإسكان، وتتولى وزارة التخطيط مهام الإعداد الفني لقرارات المجلس في البت بمشاريع الاستثمار الحكومي المقدمة من الوزارات والمؤسسات العامة، وفي مراجعة خطة التنمية الوطنية (2021 - 2025) برؤيا وطنية مستقبلية، والقيام بمهام السكرتارية القانونية للمجلس.

ج. قيام الجهاز المركزي للإحصاء بإشراف وزارة التخطيط بإحصاء العاملين بأجهزة الدولة كافة، وإجراء المسح الخاص للتعاقدات الحكومية، ومراجعة الأوضاع المالية للقطاع العام، ويتم التحديث مرتين بالسنة.

د. تأكيد محاسبة الفاسدين والمسؤولين عن تبديد الأموال العامة واستردادها في إطار محكمة خاصة تصدر بقانون للبدء في شهر كانون الأول هذا العام بأداء جميع مهامها بإجراءات سريعة وعلنية لإصدار أحكامها في مدة لا تتجاوز الستة أشهر، وإنهاء المكاتب الاقتصادية التابعة لمنظمات خارج سلطة الدولة.

ه. قيام وزارة التخطيط والجهاز المركزي للإحصاء وبالتعاون مع الوزارات كافة في إعداد برامج تطوير البحوث والبيانات والتحليل الاقتصادي والمالي، وترويج نتائجها من خلال الندوات ووسائل النشر العامة.

الهوامش

1- انظر: مصطفى الكاظمي رئيس مجلس الوزراء، " العراق أكبر من التحديات"، جريدة الصباح العراقية، تاريخ الثلاثاء 19 /5 /2020.

2- من الغريب جداً، لم ترد كلمتا "السياسة الاقتصادية" أو مضمونهما في صفحات المنهاج الوزاري الستة. أنظر: جمهورية العراق، رئيس مجلس الوزراء المكلف، المنهاج الوزاري، "الفقرة أولاً: رقم 4 الأولويات، و"الفقرة ثالثاً، بعنوان "الاقتصاد والاستثمار رؤية الدولة"، رقم 1 "، نيسان 2020.

3- عن هذه المؤشرات المعدة من صندوق النقد الدولي، الأولي الخاصة بالفترة (2020 - 2024) التي نشرت مع اختتام مشاورات المادة الرابعة 1 لعام 2019 مع العراق بتاريخ 26 تموز/ يوليو 2019. والثانية المعدلة الخاصة بعامي 2020 و2021 فقد نشرت في 20 نيسان 2020 بتقرير الصندوق " آفاق الاقتصاد العالمي" بعد جائحة كورونا. أنظر:

IMF, Executive Board Concludes 2019 Article IV Consultation with Iraq, July 26 2019 https://www.imf.org/en/News/Articles/2019/07/26/pr19301-iraq-imf-executive-board-concludes-2019-article-iv-consultation-with-iraq

IMF, World Economic Outlook, April 2020, The Great Lockdown. https://www.imf.org/en/Publications/WEO/Issues/2020/04/14/weo-april-2020

4- تبدو هذه التقديرات مبالغة في تدني أسعار النفط إذا ما قورنت بارتفاعها في تاريخ نشر الورقة. ولكنها تبقى ممكنة أيضاً في حالة استمرار تأثيرات جائحة كورونا الاقتصادية. ومن المؤشرات البارزة في مقدار الانخفاض من الإيرادات النفطية، عائد صادرات النفط في شهر نيسان العام الحالي بلغ 1.432 مليار دولار، عن قيمة 103.144 مليون برميل نفط، مقابل 7.020 مليار دولار، قيم صادرات 103.988 برميل نفط في شهر نيسان العام 2019، أي انخفاض الإيرادات النفطية بنحو خمسة أضعاف (4.933) معلومات وزارة النفط المنشورة في 1 /5 /2020 وفي 25/ 5/ 2019.

5- نلحظ هنا، أن السياسة المالية "للصندوق" تقديم الدعم المالي لمكافحة الوباء وللتخفيف من أعباء البطالة ولدعم الشركات المتوقفة عن العمل في تسديد قروضها وتجنب إفلاسها، كما في سياسات "الصندوق" الليبرالية، وقد بدأت بإبراز أولوية حماية الأرواح قبل حماية الاقتصاد للتغير نسبياً في محاولة البدء بتفعيل النشاط الاقتصادي مع الاستمرار في جهود مكافحة الجائحة.

6- أنظر:

IMF, Vitor Gaspar, Paulo Medas, and John Ralyea, "State-Owned Enterprises in the Time of Covid-19", May 7, 2020.

7- أنظر:

IMF, Vitor Gaspar, W. Raphal Lam, and Mehdi Raissi, "Fiscal Policies for the Recovery from Covid-19", 6/5/2020

8- تتوفر تفاصيل هذا التقييم المهم والدقيق الذي قدم بعنوان "وداعاً العولمة" في مجلة الإيكونوميست اللندنية الرعاية الرئيسية لدعم وانتقاد وتصويب النظام الرأسمالي في العالم. انظر:

The Economist, "Goodbye Globalisation", page 7, May 16th-22nd 2020.

9- تحديد التمويل بنسبة 50% فقط من مجموع الإيرادات العامة مسألة تفضيل تتعلق بقدرة السلطة السياسية في إقناع الرأي العام جدوى هذه السياسة للخروج من مأزق "فخ الريع – النفطي - السياسي".

الاقتصاد الحكومي في العراق: الواقع والمستقبل

د. مظهر محمد صالح
باحث وكاتب اقتصادي اكاديمي
ومستشار الحكومة العراقية في السياسة المالية والنقدية

1 - تمهيد

مازالت المؤشرات العالمية تظهر ان العراق يعد (رابع بلد) في العالم من حيث دور الحكومة وهيمنتها على النشاط الاقتصاد الكلي. اذ تشكل مساهمة الحكومة في الناتج المحلي الاجمالي نسبة تقارب بين 63 - 65% من مكونات الدخل الوطني السنوي. فتغذية الانفاق الكلي بالموارد الحكومية تأتي من رافعة مالية كبيرة تستمد قوتها من قطاع النفط الذي ما زال يولد 45% من ذلك الدخل الوطني للبلاد. ويغذي النفط في الوقت نفسه نسبة تبلغ 93% من ايرادات الموازنة العامة السنوية، فضلاً عن احلال هياكل تشغيل حكومية أدت إلى تشوهات في الهيكل المهني لسوق العمل في العراق. اذ غدت الوظائف الحكومة تستقطب قرابة 30 - 35% من قوة العمل العراقية، وولدت تراكما من تشغيل عاطل في وظائف حكومية، زادت 7 مرات خلال عقد ونيف من الزمن لاداء 1200 - 1300 خدمة حكومية وبعدد من العاملين اخذ يقارب 4 ملايين مشتغل او عامل. وان حصة الموظف الواحد من خدماته تغطي 10 من السكان (اي ان لكل 10 أشخاص في بلادنا هناك موظف حكومي واحد يسهر على خدمتهم!!). كما ان نسبة تعويضات المشتغلين الحكوميين إلى الناتج المحلي الإجمالي تعد الاعلى عالمياً وبما لا يقل عن 25% مقارنة بماليزيا التي لا تتعدى النسبة المذكورة 5% مع اختلاف متوسط الكفاءة والإنتاجية بين المشتغلين قطعا في كلا البلدين.

كما ان متوسط الدخل الحكومي السنوي للموظف الواحد ارتفع في بلادنا ليكون قرابة ضعف حصة الفرد في الناتج المحلي الإجمالي وبإنتاجية لا تتعدى 20 دقيقة من ساعات العمل اليومية الثمانية. اذ قادت الانتاجية الحكومية وهي الأوطأ في العالم الى خراب أنظمة الاجر وساعات الاشتغال في النشاط الاقتصادي الأهلي نفسه عبر العوامل الانتقالية لأمراض الكلفة الاجرية أي محاكاة اجور القطاع الخاص لترتفع

الى مستويات القطاع العام دون تقدم في الإنتاجية او ما يسمى أيضاً بأثر الاقتصادي الأمريكي وليم بومل William Baumol effect. بعبارة اخرى دور القطاع العام في توليد اثر سالب في تعاظم التكاليف الاجرية من دون إنتاجية لدى القطاع الخاص. اي ارتفاع الأجور لدى القطاع الأهلي بالمحاكاة او الحث من القطاع العام او الحكومي دون تعاظم في الانتاج والإنتاجية الاهلية. فمازال تعاظم الأجر الحكومي وثباته تبعا لارتفاع عوائد النفط هو من ظواهر الأمراض الانتقالية للأجر المتصاعد في الاقتصاد الحكومي التي تغذيها الريوع النفطية وتوليد آثار انتقالية تصاعدية التكاليف تتجذر في هيكل اجور القطاع الخاص وعدّها ظاهرة مستمرة سالبة وضارة في تطور النشاط الاقتصادي الأهلي. وهكذا ستظل الأمراض الانتقالية لتكاليف الاجر تدفع بأرباب العمل او المصالح في تشغيل العاملين في القطاع الخاص او الاهلي باتجاهين: اما العمل بساعات عمل إضافية (عالية الانتاجية حقا) قد تفوق طاقتهم الإنتاجية لضمان استمرار الاشتغال والدخل والعيش بكرامة او قبول العاملين بأجور متدنية تتناسب وقصور إنتاجية الساعة الواحدة للعامل في ذلك القطاع الأهلي وهو ما يأتي تحت مسمى فائض القيمة.

وبخلاف ذلك فالبطالة والتسريح والنوم في مساطر العمل بحثا عن الشغل بلا طائل ستبقى الجرح الوحيد النازف بين صفوف الطبقة العاملة الاهلية العراقية. فمخاطر التهديد في موضوع استدامة العمل وضمان استمراره (بكونها من ضمانات العيش الحقيقية) وغياب الحقوق التقاعدية مع سبق الإصرار ستبقى هاجس بناء واستقرار القطاع الاقتصادي الاهلي.

من اجمل ما اطلعت هي هذه الإحصائية لكاتبها والتي تعبر عن سيادة ما يسمى بـ"الباحثين عن الريع" وهو التعيين الحكومي لقاء إنتاجية متلاشية ومردود شبه صفري يطلق عليه في الاقتصاد السياسي الحديث على انه احد اوجه الكيان التنظيمي الحكومي المعتقل. اذ ارتفعت رواتب الموظفين بالحكومة العراقية كما ينوه ذلك الكاتب الرائع على امتداد السنوات الـ 15 الماضية من 2 ترليون دينار سنة 2003 لتصل الى اكثر من 40 ترليون دينار سنة 2019. وشابت هذه الرواتب مراحل مختلفة: الأولى امتدت منذ عام 2003 لغاية 2008 حيث ارتفعت بنسبة 128% من سنة 2006 ولغاية 2008 لتتجاوز لأول مرة حاجز الـ 20 ترليون دينار ثم ارتفعت بنسبة 112% سنة 2013 مقارنة بسنة 2008 ولتتجاوز حاجز الـ 40 ترليون. وبعد الازمة الاقتصادية التي حدثت في 2014 تراجعت الرواتب بنسبة 26% لتصل الى معدلات الـ 30 ترليون للأعوام 2014، 2015، 2016 لتتعاود الارتفاع في سنتي 2017 و2018 و2019. وشهدت سنة 2019 ارتفاعا بنسبة الرواتب بلغ 18% لتعود الى تجاوز حاجز الـ 40 ترليون دينار بعد ان تراجعت عنه سنة 2014. وبلغ مجمل الرواتب المصروفة منذ 2003 ولغاية 2019 اكثر من 413 ترليون دينار، كانت من احد الأسباب التي أدت التي عدم القدرة في إيجاد استثمارات قوية تساهم في تعزيز البنية التحتية للعراق، وبالتالي أدت الى دخول العراق في ازمة اقتصادية خانقة

نتيجة تراجع إيرادات النفط بشكل كبير، ما أدى الى تعرض البلد الى ازمة حقيقية في توفير الرواتب الشهرية للموظفين وصعوبة تعويضها من القطاعات الأخرى.

وهكذا بدأ ميل المشتغلين في الاقتصاد الأهلي إلى التسارع نحو الوظيفة الحكومية العاطلة عبر مظاهر متفاقمة أفرزتها السنوات السبعة عشر الماضية وما رافقها من تدهور في معدلات نمو الاقتصاد الاهلي وضعف مساهمته في الدخل الوطني. إذ وفر الاقتصاد الحكومي من خلال الريعية الاحادية عناصر جذب في الاقتصاد الحكومي امست لا تتوافر في مؤسسات السوق والقطاع الأهلي بل على العكس عرقلت تطوره ومساهماته في مكونات الدخل الوطني. فغالبية العاملين في القطاع الاهلي باتوا يتطلعون الى العمل في الاقتصاد الحكومي، طالما يتوافر الغطاء القانوني الدائم في تواصل العمل عبر الوظيفة الحكومية (اي من حيث ضمان الدخل الاعلى مقارنة بالاقتصاد الأهلي والأداء بساعات عمل اقل جداً، فضلا عن الضمانات ضد التسريح وتوافر تقاعد مناسب للعيش عند الشيخوخة).

وما زاد من خطورة تعظيم الرواتب الحكومية دون تراجع مع تحسن الإيرادات النفطية، هو ما يسمى بأثر التعويض النقدي للموظفين ازاء تدهور السلعة العامة والمقصود بها البنية التحتية التي يستخدمها الجميع دون التأثير في عرض. اذ امسى الاثر التعويضي النقدي من خلال تعظيم المخصصات نسبة الى الراتب الاسمي للموظف اثنين الى واحد، يخفي في مجساته (التعويضية) ما يسمى برأس المال الاجتماعي لتدغم الزيادة في المخصصات بالراتب النقدي الوظيفي. اذ ازدادت رواتب الموظفين بالمتوسط خلال عقد ونيف من الزمن بنحو سبع مرات وهي تحمل الاثار التعويضية النقدية لراس المال الاجتماعي لقاء انعدام او تعثر راس المال الاجتماعي الحقيقي نفسه، او تردي البنية التحتية الفعلية على الارض (التي يمثل وجودها احد اهم اساسيات خفض متوسط كلفة الانتاج في النشاط الاقتصادي المباشر). اذ تقول النظرية الاقتصادية في التنمية ان نموا بمقدار 1% في البنى التحتية يؤدي الى نمو في النشاطات الانتاجية المباشرة بنحو 1,5 - 2% وهذا ما عملت عليه الهند في إطلاق برنامجها الانمائي الراهن، وكذلك الصين وكوريا من قبلها.

وهنا جاء الاثر التعويضي لكلفة المرتبات الحكومية، ذا اثر (مرضي سالب) اخر (اضافة الى الاثر المرضي للأجور) على تزايد كلفة الاستثمار الرأسمالي وعوائد الاستثمار في القطاع الأهلي لتصبح اداة قامعة غير مباشرة للإقدام على الاخذ بالنشاطات الإنتاجية الحقيقية الرئيسة. بعبارة اخرى فان الأثرين، اثر كلفة الاجور الحكومية والاثر التعويضي للأجور برأس المال الاجتماعي، قد اصبحا قيدا مكبلا على دالة الانتاج في القطاع الأهلي. وهو الامر الذي عظم من بطالة العمل وجعلها لم تقل عن مرتبتين عشريتين على مدى العقد ونصف الأخير من حياة العراق الاقتصادي، فضلاً عن تغيير راس المال وجهته صوب ما يسمى برأس المال المالي والالتحاق بمعسكر راس المال المالي المغترب. وتوليد دالة انتاج مغتربة.

ولا يخفى ان النمط الانتاجي المتبقي من الطبقة العاملة في القطاع الخاص (البالغ عددها اليوم بنحو 8 ملايين عامل والتي يشكل الشباب منها حتى عمر 35 عاما نسبة تقترب من 60% من تلك القوة العاملة الناشطة اقتصادياً) هي قدرة هائلة من راس المال البشري، تمتلك طاقات عالية وتراكما عرفيا كبيرا مستعدا الى الخلق والابداع والإنتاج والنهضة الاقتصادية للعراق، لكنها مازالت تعاني من مشكلات شيوع البطالة الفعلية بين صفوفها التي تقدر بنحو 28% بسبب ضعف مساهمة القطاع الخاص نفسه في الناتج المحلي الإجمالي، وتردي قدراته في التراكم الرأسمالي والنهوض بالطاقات الإنتاجية المتاحة؛ اذ يلحظ على سبيل المثال ان 32% من القوى العاملة العراقية في القطاع الخاص، لا تسهم في الانتاجين الزراعي والصناعي الكلي للبلاد حاليا، إلا بنسبة هي اقل من 6% من مكونات ذلك الناتج الإجمالي (في أفضل الأحوال)، ما يعني هي الأخرى تعمل بإنتاجية متدنية اقرب الى البطالة المقنعة.

فهي قوة عمل منخفضة الإنتاجية وبدخل هابط وحصتها من الدخل الوطني ضعيفة بحكم تهالك التركيب المهني الهش لنشاطات القطاع الخاص نفسه وتراجع التراكمين المادي والبشري. وهذا ما زال يؤشر نطاق البطالة بمرتبتين عشريتين طوال السنوات الثمانية عشر الأخيرة. وظلت الدولة تعبر عن سوق العمل المنقذة والمشغلة مع تعاظم عوائد الصادرات النفطية وارتفاع ريوعها. فعلى سبيل المثال سجلت البطالة الفعلية مؤشر 16% في الأعوام 2005 - 2006 وارتفعت في العام 2009 لتبلغ 23% مع تدهور أسعار النفط بسبب الأزمة المالية الدولية في العام 2008. ومع تحسن أسعار النفط في العام 2010 بلغت معدلات التشغيل اعلى مستوى له في العام 2013 ليبلغ قرابة 10% من اجمالي قوة العمل، وهو مازال في نطاق المرتبتين العشريتين، قبل ان تنحدر معدلات التشغيل بين الأعوام 2014 - 2020 إلى 18% وزادت على 23% قبل ان يحل الحظر او الانغلاق الاكبر للاقتصاد الوطني، جراء جائحة كورونا ليرتفع عدد الأسر المتضررة من القطاع الأهلي من العاملين والكسبة إلى ما يزيد على مليونين ونصف المليون عائلة متضررة متوقفة عن العمل، ما ادى إلى ارتفاع نسب الأفراد ممن هم على خط الفقر او دونه إلى حوالي 40% من السكان.

اضافة الى ما تقدم، فهناك بوادر لظاهرة الفقر المدقع ويعني الحرمان من المأوى وقلة الطعام وانعدام الصحة والتعليم. وهناك القوى الفقيرة التي هي حول خط الفقر، وهو الحد المعيشي اذا ما بلغه الانسان قد تتوفر له 75% من الحدود الدنيا في المأوى والطعام والصحة والتعليم في العراق، وخط الفقر هو 2.5 دولار يوميا. لكن في اميركا مثلا 19 دولار يوميا، وربما تغيرات الآن.

فمشكلة الفقر في العراق كما نوهنا آنفا هي البطالة المستمرة بمرتبتين عشريتين منذ ازل بعيد، في بلاد يزداد عدد السكان فيها بنحو 800 الف نسمة سنويا، وبتصاعد اسي سنوي. في حين تستقبل سوق العمل ما لا يقل عن 400 الف فرصة عمل جديدة وبتصاعد اسي سنوي ايضاً. جميعها ما لم تستغل كثروة شابة منتجة، فستكون بلا شك مدعاة لتكاثر الفقر. فكل من يعمل 15 ساعة

في الاسبوع او اقل فهو في حالة فقر لعدم توفر مستلزمات خط الفقر. فهناك نازحون ما زالوا بحدود 1.5 مليون نسمة، ومتقدمون لطلب الرعاية بنحو 3 ملايين نسمة. وما فاقم الفقر ايضا هو تعطل الاعمال بسبب الحظر جراء جائحة كورونا، ما عرض حياة 12 مليون نسمة من القطاع الأهلي (اي قرابة مليونين ونصف المليون عائلة ممن لا يتسلمون دخلا من الحكومة بأي شكل) الى مشكلات الفقر ومخاطره، ما قد توصل مستويات الفقر إلى 40% من السكان في بلادنا، ممن هم ضمن قاعدة الفقر.

قد رتب انغلاق الحركة الاقتصادية ومنع التجوال الداخلي بسبب أزمة كورونا COVID 19، اثارا على نشاطات الاقتصاد الاهلي الذي يشكل مساهمة قدرها 37% في تكوين الناتج المحلي الجمالي، كما نوهنا سابقاً وعلى مستويين: الأول، ربما شبه إيجابي ومستمر او غير متأثر ويتمثل بقطاع الانتاج الزراعي الذي استمر مزدهرا نسبيا لكونه يخضع للدورة الزراعية المستمرة النمو، ترافقها الحاجة المستمرة للغذاء. والثاني، وهو المتأثر سلباً ويتمثل بقطاع النقل والخدمات والحرف الصغيرة وهو الاكثر تضرراً، فضلا عن تضرر سوق العمل تماما والانشطة التوزيعية كتجارة الجملة والمفرد والتي تشكل خسارتها الشهرية جميعا بنحو 3 - 4 مليارات دولار على الأقل، في ظل الغلق الكامل للبلاد.

لم يخسر النشاط الحكومي كثيراً ولاسيما استمرار الانتاج من النفط الخام ولكن الخسارة جاءت من هبوط اسعار النفط بمعدل 45 - 60% عما كان عليه متوسطات اسعار النفط العراقي في عام 2019، لا سيما في الاشهر الثلاثة الاكثر قساوة من العام 2020 (اذار - مايس) التي انغلق فيها الاقتصاد العالمي والعراقي تحت تأثير جائحة كورونا، وتدهورت اسعار النفط حتى ادنت إلى نقاط التعادل؛ اذ يسهم النفط بنسبة تصل لـ 45% من الدخل الوطني السنوي، ونحو 93% او اكثر من ايرادات الموازنة العامة. فتوقعات البنك الدولي جاءت مقلقة اذ ان النمو الاقتصادي للعام 2020 سيهبط الى (سالب 9%). وهو امر يقود الى ركود اقتصادي شاسع، وبطالة عالية، ستكرس من معدلات البطالة الثنائية المرتبة العشرية في النشاط الأهلي وارتفاع معدلات الفقر.

2 - الأوضاع الاقتصادية وتصرفات السياسة الاقتصادية.

ا- المعادلة النفطية الصعبة في العراق.

ثمة طرفان يشكلان اليوم تركيب المعادلة النفطية الصعبة في العراق: الطرف الاول ويتعلق بالتزام العراق باتفاق (اوبك+) اذ امسى الالتزام بمبادئ الاتفاق واقع حال وليس خيار ذلك لوجود تخمة نفطية عالمية اضافية بلغ رصيدها 300 مليون برميل نفط او اكثر وعلى مستويين: الاول، تشبع اسواق النفط بمخزونات نفطية فاقت طاقة الخزن في العالم، بسبب توقف دواليب النقل والصناعة والمصافي في العالم تحت ضغط الكساد الاقتصادي الناجم عن وباء كورونا، وان المعروض النفطي ما زال يفوق الطلب بنحو 30%. اذ يستهلك النقل الجوي العالمي لوحده على سبيل المثال مشتقات نفطية بحوالي 15 مليون برميل نفط مكافئ يومياً من اصل انتاج نفطي عالمي يقارب 104

ملايين برميل نفط يومياً. وان 70% من الطلب العالمي اليومي على النفط ما زال مصدره قطاع النقل في العالم.

والثاني، في الوقت نفسه يعاني المعروض النفطي للعراق من مشكلة التخمة ايضاً إزاء التقلب في اسواق الطلب على نفوطنا حالياً. فالمعروض من النفط العراقي لدى بعض اسواق الطلب الرئيسة، يتعرض للتعثر جراء قصور بعض المشترين وللسبب الاقتصادي الركودي الدولي نفسه، وتوقف اقتصاداتهم عن العمل. اذ تقدر الكميات الفائضة من نفوطنا بنحو 40 مليون برميل.

اما الطرف الثاني من المعادلة النفطية الصعبة، وهو ما تتولاه الادارة النفطية العراقية حالياً لبلوغ الحلول اللازمة المنصفة جراء تعاظم الافتراق بين كمية النفط الذي يسدد للشركات الاجنبية الدولية IOC,s (عيناً) ذلك عن كلفة تطوير الحقول النفطية (وهي كلف ثابتة القيمة في الغالب) وبين قيمة النفوط المدفوع عيناً لتسديد المستحقات وتسويتها، وهي تدفقات كمية كبيرة منخفضة القيمة جراء استمرار حرب الاسعار او نتائجها الكارثية اللاحقة. ولا سيما في تكوين مخزونات كبيرة منخفضة القيمة، تؤدي دورها الركودي في السوق النفطية، كسوق احتكار قلة مشترين، والتحكم بالمسارات السعرية مستقبلاً.

اي لا بد من الوقوف إزاء مشكلة تحمل كميات نفط تدفع عيناً بمقادير مضاعفة (على وفق الاسعار المتدنية حالياً للنفط ازاء تكاليف التطوير الثابتة) ما يتطلب التعويض كما ذكرنا بكميات تزيد مرتين ونصف عن متوسط المستويات التاريخية للتجهيز البالغة 500 الف برميل نفط يومياً بسعر 60 دولارا للبرميل الواحد. آخذين بالاعتبار هبوط اسعار النفط الى متوسط، سيبقى يتراوح بين 24 - 34 دولارا للبرميل الواحد طوال المدة المتبقية من العام الحالي مقارنة بنحو 60 دولارا للبرميل في نهاية العام 2019. هذا ما يعني ان الكميات المسددة للشركات، ستمثل ضعف الكميات المسددة للشركات النفطية الاجنبية العاملة نفسها، في بلادنا، مقارنة بالكميات المسددة عندما كان سعر برميل النفط المصدر يباع بنحو 60 دولارا، كما اسلفنا في العام 2019. فالعراق يختلف اليوم في اوضاعه النفطية التي امست متغيرة جداً، لقاء تعاقداته والتزاماته الثابتة. في حين سيتأثر تطوير الصناعة النفطية الاستخراجية التي ستكون تحت قيد الانتاج بموجب اتفاق (اوبك +) الذي بدأ تنفيذه في الاول من مايس 2020! وبهذا فان ثبات تكاليف التطوير وتدهور الاسعار سيؤدي الى فجوة في كميات التجهيز، قد تقود الى حرمان العراق من كميات انتاج كبيرة، وهي كميات انتاج قيدت اساساً بموجب الاتفاق مع اوبك، لتعوض هذه المرة الانخفاض المخصص لكلفة العقود وتدفع لإطفاء التكاليف الثابتة بدلاً من ان تكون ايراداً مباشراً للخزينة. ان عدم الانتباه الى هذه المفارقة (الكمية - السعرية) سيؤدي الى ولادة فجوة تمويل ضارة للمالية العامة، والبلاد مازالت مقيدة بطاقة انتاجية محددة، حسب اتفاق اوبك، تتراوح بين 3.5 مليون برميل نفط خام منتج في مطلع مايس 2020 ولغاية 4 ملايين برميل نفط خام منتج حتى مايس 2021، ذلك ما لم تتحسن اسعار النفط، لتجعل التصرف بالكميات تحت قيد اكثر مرونة، وهو امر مشكوك فيه حالياً.

فالمعادلة النفطية الصعبة للعراق هي بطرفين حقاً، محورها هو التناقض بين هبوط اسعار النفط عالمياً، وبين فقدان الكميات الاضافية من النفط الخام والتضحية بها لتسديد المستحقات الثابتة القيمة للشركات النفطية الاجنبية IOC,s خصوصاً اذا ما ظلت اسعار النفط تحوم حول معدل 24 دولارا للبرميل الواحد طوال العام 2020. سيظل هذا الامر محط انتباه عال من جانب السلطات النفطية والمالية في العراق للبحث عن حلول تعظيم موارد الموازنة العامة، وايجاد حل للمعادلة النفطية الصعبة، ولا سيما مع الشركات الأجنبية النفطية العاملة في العراق دون فقدان زخم الاعمال التطويرية المستقبلية لهذه الصناعة المهمة والخطيرة.

ب- اتجاهات السياسة الاقتصادية في احتواء الازمة.

اولاً: يظهر التطلع الى خريطة البلاد الاقتصادية انها مازالت تحت مرتسم عزلة الريع النفطي وانكماشها عن مفاصل النشاط الاقتصادي الكلي واحتمال استمرار هذا الانحدار لأكثر من عام او لسنوات، لتجر البلاد الى مشهدين مختلفين تبعاً للسياسات الاقتصادية (المالية والنقدية والتجارية) المعتمدة والتي سنتناولها لاحقا. اذ انذر مصرف ستاندر اند جارتر الدولي على سبيل المثال لا الحصر، طبقا لدراساته المنشورة مؤخرا متنبئاً ان يشهد الاقتصاد العراقي انكماشا بنحو 7.5% في 2020 نتيجة لاتفاق (أوبك +) وتداعيات حرب الاسعار في اسواق النفط او جائحة كورونا التي تضرب البلاد حالياً. اذ سبق للبنك المذكور، ان توقع نمواً موجباً للعراق قدره (2.1+بالمئة) للعام 2020 في الاقل. وهناك توقعات اخرى قدرت ذلك النمو بظروف اكثر تفاؤلية ليبلغ + 4,7 بالمئة في العام الحالي حسب توقعات مؤسسة Fitch العالمية. وان المصرف العالمي آنفاً قد بنى توقعاته للاقتصاد العراقي على أساس صادرته النفطية وأسعار صرف العملة المحلية مقابل الدولار والواردات غير النفطية. واعتمد "تصنيفنا (للاقتصاد العراقي) على كل من توقيع اتفاقية (أوبك) وركود أعمق في القطاع غير النفطي في ظل الاضطرابات المتعلقة بكورونا او غيرها". كما رفع المصرف المذكور توقعاته بشأن عجز الموازنة والحساب الجاري لميزان المدفوعات إلى 13 بالمئة و11 بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي على التوالي، بعد أن كان قد توقع سابقاً أن يكون 10 بالمئة و8 بالمئة على التوالي. ورجح ذلك المصرف أن يلاقي العراق صعوبات في مواجهة انخفاض أسعار النفط لفترة طويلة دون دعم خارجي حسب ادعائه.

ثانياً: السياسة الاقتصادية المحتملة.

لا شك ان المحاذير المبكرة لما سيؤول إليه الاقتصاد الكلي ازاء اختبارات الضغط المالي الخارجي او عجز الحساب الجاري لميزان المدفوعات نسبة الى الناتج المحلي الاجمالي وتفاوت التوقعات الاخرى الاكثر تشاؤماً بهذا الشأن في العام 2020 والتي اقصاها (اي عجز الحساب الجاري الى الناتج المحلي الاجمالي) بنسبة 16 بالمئة بسبب تدهور عوائد النفط وارتباط ذلك بعجز الموازنة العامة ونشوء مظاهر العجز المزدوج او الثنائي، اي العجز الداخلي في الموازنة العامة والعجز الخارجي في

الحساب الجاري لميزان المدفوعات في آن واحد. وبهذا فان ثمة مشهدين في تفسير السياسة الاقتصادية المحتملة للعراق في ظروف الكساد الدولي وهما:

السيناريو الاول: التمويل بالتضخم

ستكون معالجة اوضاع الاستقرار الاقتصادي في هذا المشهد معقدة للغاية في ظل هبوط نشاطات الناتج المحلي الاجمالي السنوي الى مستوى نمو (سالب 5%) كما تتوقع اغلب الدراسات وتعاظم نمو السكان السنوي الى (موجب 2.6%). فاذا ما لجأت السياسة المالية الى اعتماد المذهب التوسعي في الانفاق الحكومي (اي تمويل العجز المالي وعلى وفق سياسات النقد الرخيص) مع تدهور مستمر في الحساب الجاري لميزان المدفوعات، يرافق ذلك اتباع السياسة النقدية اجراءات ملبية مرنة في تعظيم سيولة الاقتصاد وتعزيز مناسيبها. اي في مجاراتها للسياسة المالية في تمويل العجز في الموازنة وباستمرار عن طريق التسييل المستمر في ادوات الدين العام الداخلي المعهودة كحوالات الخزينة وغيرها، فان الاحتمالات الاقتصادية المتوقعة، ستشير في هذا المشهد الى حصول تضخم جامح بمرتبتين عشريتين سواء معبراً عنه في المستوى العام للأسعار او في مقلوبه، ونعني تدهور القوة الشرائية للوحدة النقدية وولادة سوق صرف موازية، قائدة للأسعار تتولى التحكم بالمسارات السعرية للبلاد. اي قيادة السوق للأسعار بليبرالية عالية المرونة. وستهبط حينها احتياطيات البنك المركزي كوسيلة دفاع عن الاستقرار المستمر لسعر الصرف بكونه مثبتاً اسمياً. وعندها ستؤدي السوق الموازية للصرف ـ كما ذكرنا ـ الى القيادة السعرية كبديل لتدخل البنك المركزي وتظهر مجدداً القوى المهيمنة (التجارية) المولدة (للتوقعات التضخمية) والمحركة للاضطرابات السعرية. وهي قوى من القطاع الخاص تمتلك قدرة تعبئة الموجودات الاجنبية النقدية بسرعة عالية او تسيير تدفقات السلع الاجنبية بغية الاستحواذ على فرص الربح وحصد الفائض الاقتصادي، وذلك باستعمالها ادوات الانتقال السعري الخارجية، وتحويلها الى مداخل الاقتصاد الوطني عبر حركة تضخمية تصاعدية.

السيناريو الثاني: منهج التقطير المالي

وهو منهج التقشف في تسيير الموازنة العامة والانفاق العام وتخليصها من عجز كبير هو خارج النطاقات والممارسات الدولية (التي تعتمد حدود ضيقة للعجز في الموازنة العامة، ان لا يزيد على 3% من الناتج المحلي الاجمالي). وكذلك توافر تعاون محدود او مقنن للسياسة النقدية بحدود ما يسمح به قانون البنك المركزي النافذ من تدخل في السوق النقدية والاسواق الثانوية في بيع وشراء الادوات المالية المختلفة. ونرى ان هذا المنهج سيولد ركودا تضخميا لا محالة، وبداياته هو ان تقفز البطالة الى حدود مضاعفة (تعظم من خانة المرتبتين العشريتين لمستويات البطالة الراهنة البالغة حاليا 18%). كما ستلتهب اسعار السلع المستوردة او الاجنبية بسبب مصاعب تمويل التجارة الخارجية بالنقد الاجنبي. وان ثمة ندرة ظاهرة في السلع والخدمات الاجنبية التي سيظل عرضها الشحيح مرتفع القيمة ومرتبطا بالتوقعات التضخمية (التي

قد تطلقها السوق الموازية) إزاء طلب ضعيف عموماً. وعلى الرغم من ذلك سيشهد التضخم نمواً تدريجياً ولكنه سيكون ابطأ في تدهوره، عما جرى تشخيصه في المشهد الاول ولسببين: اولهما، ان استمرار شحة السيولة النقدية المحلية بالغالب والخوف من المجهول لدى الافراد، سيولد حالة من فخاخ السيولة والاحتفاظ بالنقد وستكون حالة واسعة تنسجم والركود الاقتصادي ولكن ترافقها اسعار فائدة متضخمة القيمة تتناسب وفخاخ السيولة وهي الفائدة شبه الحقيقية. وثانيهما، ستأخذ البطالة مديات خطيرة بكل اشكالها تفوق حالة التضخم التدريجي نفسه، وستتولد نشاطات اقتصادية هامشية خدمية كثيرة ذات قيم مضافة تبقى متواضعة، ولا تسد فجوة الثراء وغلبته في الاقتصاد الريعي المزدهر، وعلى المدى القصير والمتوسط في الاقل. ومنها على سبيل المثال النشاط الزراعي الذي ستظل مدخلاته تعتمد على لوازم اجنبية، وهي باهظة الثمن ما لم تتلق دعماً واسعاً من الدولة.

ثالثا واخيراً، فان هذه القراءة المحتملة في انكماش الناتج المحلي الاجمالي الى حدود (سالبة) واسعة بين 5 - 7 في المئة، جاءت على عكس تنبؤات العام الماضي بشان المجريات الاقتصادية للعام 2020 وبتقديرات متفائلة اعتمدها المتنبؤن العام الماضي والبالغة (موجب 4,8%) بالمائة، لما يجب ان يكون عليه الاقتصاد اليوم. والآن فان الوضع الاقتصادي الراهن يعكس حالة النمو الأضعف منذ الأزمة المالية للعراق في العام 2014، وهذا ما يحتم الحذر الشديد نحو اعادة النظر في هيكل الموازنة، وعلى نحو جذري ويجنب البلاد اللجوء الى مخاطر التمويل المفرط بالعجز لدعم الموازنة التشغيلية من خلال الاستدانة او الاقتراض الخارجي او اللجوء إلى الاقتراض الداخلي الأكثر مرونة. إذ مازالت المؤشرات المالية لطاقة تحمل الدين، تؤكد حتى وقت قريب ان نسبة الدين إلى الناتج المحلي الإجمالي هي بنحو 56% وان ما ندعو اليه هو ليس دعوة للتقشف، لكن ثمة دعوة لإعادة هندسة المالية العامة العراقية، وتجنيب الموازنة العامة مشكلات معادلة ما يسمى بقيود الموازنة الهشة التي اصبح الانفاق فيها يتم بيسر عبر اتساع السلف الحكومية والسحب على المكشوف والاقتراض بأمل تحصيل ايرادات حكومية محتملة سريعة. وهي جميعها من العادات الحكومية غير الحسنة في تاريخ المالية العامة العراقية في السنوات الأربعين الأخيرة، وتساعد لا محالة على تراكم المديونية والتوسع بالعجز في الإيرادات العامة ما يفقد قضية التعزيز المالي مظاهرها الاساسية مثل تقليص فجوة العجز في الإيرادات العامة او تقليل مقدار التراكم في الدين العام. بعبارة اخرى يفقد البناء المالي للبلاد مقومات الاستدامة لبلوغ الاهداف الاقتصادية والاجتماعية الكلية المستقرة.

وبهذا نرى وبالتأكيد انه حتى في ظل سيناريو التقطير او التقشف المالي واتساع مساحة الانكماش الاقتصادي الكلي، فستظل اولويات السياسة الاقتصادية هي الدعم المستمر، ولاسيما للقطاع الزراعي المنتج لتامين الغذاء، فضلاً عن تأمين الاحتياجات الانسانية والضرورية في الحد الادنى من خلال التعاون الدولي وروافعه المالية لا محالة.

3 - رؤية مستقبلية للاقتصاد العراقي.

ا- التمويل الوطني العاجل.

دخل ميزان الاقتصاد الحكومي - وبالشك - في عجز واضح بسبب تدهور معدلات النمو في قطاعه الريعي المهيمن، وذلك بدءاً من النصف الثاني من هذا العام وحتى النصف الثاني من العام القادم، ليجر معه الاقتصاد الاهلي الى نقطة تعد اكثر ركودا بسبب التشابكات بين القطاعين الريعي والاهلي وهيمنة النشاط الحكومي على مكونات الناتج المحلي الاجمالي والمقدرة بما لا يقل عن 63%. فمع درجة التعاظم في نسب النمو السنوي لسكان العراق المقدرة 2.6% (دون انضباط) وهبوط النمو في الناتج المحلي الاجمالي للبلاد (بسبب الركود الاقتصادي العالمي)، والمقدر هو الآخر بحد ادنى هو بنحو (سالب 4.5% سنوياً) فان ركودا اجمالياً لا محالة سيصيب الاقتصاد الوطني برمته ويتسبب بانخفاض حصة الفرد من الناتج المحلي الاجمالي نقدرها حالياً، بما لا يقل عن 1000 دولار سنويا للفرد الواحد. وبالوقت نفسه مازال الميزان الاقتصادي في القطاع الاهلي يمثل جانب القوة المحتملة، وتتوافر لديه الامكانيات المالية من (مدخرات واموال سائلة او شبه سائلة)، ظلت مرتفعة ولكنها راكدة تكافئ في القيمة، قرابة نصف عوائد النفط المفقودة في عام 2020 في العراق.

وإزاء هبوط روافع التمويل الكلية في الاقتصاد الوطني، بسبب الركود الاقتصادي العالمي والوباء المتفشي، فليس من سبيل امام صناع السياسة الاقتصادية للعراق سوى البدء بالحلول الاضطرارية والاستراتيجية الممكنة معاً، لإعادة الهيكلة التدريجية للاقتصاد الوطني وعلى وفق اهداف تشاركية ثابتة تُرسم خطوطها العاملة فوراً، وتبدأ خطوتها الاولى من الامد القصير والمتوسط وصولاً الى الحلول المثلى للأمد الطويل، وذلك لطي صفحة ريعية الاقتصاد والتي ستبقى تمثل القاتل الاقتصادي الرئيس لاقتصادنا (الاحادي الجانب). فالتساؤل القائم في نهضة الاقتصاد الوطني تبتدئ من الرافعة المالية المتاحة للبلاد حالياً وتتمثل في كيفية تحريك فوائض القطاع الخاص عبر آلية تمويلية سلسة ومضمونة المخاطر وبأدوات تتضمن الحد الاعلى من درجات اليقين لتتاح تعبئتها كموارد مالية خالية المخاطر وبضمانات تمتلك قوة السيادة في وقت واحد.

ان كيفية تعبئة فوائض القطاع الخاص العراقي المتراكمة حاليا وغير المتحركة في دورة الدخل والسعي لإعادة تدويرها، داخل الاقتصاد الوطني تقتضي شرطاً من شروط الضرورة، وهو الشرط الذي يستهدفه التدوير الاقتراضي للفوائض بان توجه تلك الموارد المالية خارج الموازنة العامة، وتتجه حصرياً نحو نشاطات القطاع الاهلي. وهنا ستظهر أولوية الاستثمار في خيار مزدوج نحو مجالات انتاج شديدة التشغيل ومحققة لقيم مضافة عالية في الدخل الوطني في آن واحد، كقطاعات الاسكان والزراعة وبعض النشاطات الحرفية والمصنعية الممكنة المهمة. وان شرط الضرورة المنوه عنه انفاً، يقتضي توافر عاملين اساسيين موازيين ومؤازرين لتسيير البرنامج الوطني لتمويل التنمية؛ فالعامل الاول ويتمثل في كيفية الحفاظ على القوة الشرائية للأموال المقترضة من الاهليين وحمايتها من خلال

توظيفها بأدوات الدين وتحصينها من التقلبات السعرية المحتملة (التضخم)، وذلك بإصدار سند مقيس indexed bond ليكون اصل السند كأداة دين معرّفة بأصول ثابتة القيمة سواء باختيار عملة اجنبية او الذهب أو غيرها من الاصول المستقرة القيمة وبفائدة سنوية متوازنة. والعامل الثاني، يتمثل بتبني صندوق موجه بروافع مالية مستدامة لتمويل نشاطات القطاع الخاص المنتجة، والتي تستهدفها تلك الاموال المقترضة من الافراد، وهو صندوق التنمية الوطني للعراق.

وهنا تمنح الاولوية التمويلية للنشاطات الاستثمارية التي تستهدف ـ كما نوهنا ـ استخدام عوامل انتاج كثيفة العمل، وتعظّم في الوقت نفسه القيمة المضافة في تكوين الناتج المحلي الاجمالي. وسيقع على عاتق الدولة أن تأخذ شرطاً آخر هو شرط الكفاية لتنحصر وظيفتها هذه المرة صوب تشغيل صندوق التنمية الوطني للعراق بالشراكة مع القطاع الخاص من حيث الرأسمال وحقوق الملكية. وستأخذ العلاقة التشاركية اتجاهين متكاملين ايضا، الاول: هو ان توفر الدولة كفالة القرض كرافعة مالية وحمايته من اي انكشاف، او خسارة حتى تاريخ الاستحقاق والاتجاه الاخر، هو توفير الضمان اللازم للحفاظ على القوة الشرائية لأصل القرض وعوائده حتى تاريخ الاستحقاق ايضا. فوظيفة السياسة المالية الانمائية هنا، تتلخص بالحفاظ على القوة الشرائية للقرض وعائداته منذ الاصدار وحتى الاطفاء، وإعداد المناخ التداولي اللازم في تبني السوق الثانوية لتعاطي السندات وتسييلها من جانب حامليها عند الضرورة.

ب- صندوق التنمية الوطني: التمويل الميسر.

يضاف سنوياً الى سوق العمل العراقية من هم في سن العمل والراغبين به والقادرين عليه، رقم يقل عن نصف مليون إنسان، كما ذكرنا اكثر من مرة، وهم من اصل 800 ألف إنسان، أمسوا في سن العمل، وهم قوة بشرية ناهضة، وفي تزايد سنوي مستمر. وان واحدة من الحلول القائمة على تحريك عجلة التشغيل ومواجهة ارتفاع معدلات البطالة، هو التمويل الميسر لمشاريع الشباب، ممن هم بعمر لا يزيد على 35 عاما. لذا على الحكومة إطلاق مبادرة تشغيل الشباب بالدعوة الى تسجيل الشركات الصغيرة الناشئةً للشباب على ان تمنح (إجازات استثنائية من مسجل الشركات ضمن مفهوم البرامج الانمائية الخاصة) باسم شركات الشباب الناشئة، معفاة من الضرائب والرسوم كافة، لمدة خمس سنوات، وتمنح قروضا ميسرة ذات فترة سماح طويلة الأجل نسبياً، ويعفى القرض من الفائدة، بعد فترة السماح في ضوء اتساع نشاط المشروع الشبابي، وقدراته على التشغيل المضاعف، ويدرج العاملين فيه كافة في صندوق التقاعد والضمان الاجتماعي، وتتحمل الدولة نفقات التوقيفات التقاعدية لهم. وبناءً على ما تقدم ينشأ صندوق تشغيل الشباب، ويرتبط رقابياً في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ضمن برامج التنمية الخاصة، ويدار من واحدة من المصارف الحكومية او الأهلية كوكيل مالي، ولاسيما في المحافظات الأكثر فقراً. ويخصص راسمال ابتدائي للصندوق بنحو 3 - 5 مليارات دولار، يدعم بقرض بدون

فائدة من البنك المركزي العراقي وصندوق الاستثمار التجميعي الذي تتولاه المصارف المجازة كافة.

وقدر تعلق الامر برأسمال الصندوق وحقوق الملكية فيه التي سيقوم على الملكية المساهمة بين الدولة والقطاع الخاص، فانه سيتلقى مساهمة جدية من بعض المؤسسات المالية الدولية الداعمة والمؤازرة لنشاطات القطاع الخاص عند التأسيس كرأسمال equities، مثل مؤسسة التمويل الدولية.. وبعض مساهمات منظمات وصناديق الاتحاد الاوروبي وغيرها بما في ذلك قبول المساهمة غير المباشرة في الصندوق من خلال قبول مبدأ ضمان مبادلة الاجهزة والمعدات المستوردة من منشأ عالمي اوروبي او غيره لمصلحة المستفيدين من الصندوق في القطاع الخاص العراقي.

واخيراً، فان قيام صندوق التنمية الوطني للعراق، سيشكل النواة الجوهرية لإعادة هيكلة الاقتصاد الكلي باتجاه التمويل التدريجي من مصادر متنوعة سواء من اقتصاد الريع النفطي نفسه، وبحصة ملتزم بها من عوائد الصادرات النفطية او اي خامات مستقبلية، او عوائد صادرات الفوسفات او الكبريت والسليكون وغيرها من نشاطات اقتصاد خامات العراق (المقبلة وليست البعيدة)، وعدها كحصص رأسمالية تستثمر بمنح قروض ميسرة من صندوق التنمية، توجه لتمويل نشاطات القطاع الخاص، بكونه المشغل الرئيس للتنمية، ونهوض الاقتصاد الوطني، والمصل المضاد للتطورات الريعية القادمة. فقيام صندوق التنمية الوطني كمسار لتنويع الاقتصاد الوطني والمنسجم واستراتيجية تنمية القطاع الخاص المعتمدة حالياً (دون تنفيذ واسع)، يأتي لرفع مساهمة النشاط الاهلي في الناتج المحلي الاجمالي من واقعه الحالي المنخفض في تركيب الناتج المحلي الاجمالي والبالغ 37% ليصبح 50% فأكثر خلال السنوات الخمسة القادمة. وسيمثل هذا التحول المهمة الاساسية والمنهج الاقتصادي لعراق ما بعد النفط، وستلقى على عاتق اجهزة التخطيط الوطني والمالية العامة ومجلس القطاع الخاص مهمة التحرك حالاً نحو استراتيجية مشتركة لهيكلة الاقتصاد الوطني وتنويعه وإزالة مظاهره الريعية وبالتدريج. وعد المشروع بمجمله تحولاً أيديولوجيا لبناء اساسيات اعادة توصيف الاقتصاد الوطني من ملامحه الريعية المركزية المعطلة الى السوق الاجتماعي المركزي المسؤول عن تنويع النشاط الانتاجي. ويرافق ذلك نظام تشريعي يؤسس بخطى قوية لإرساء البنية التحتية القانونية اللازمة لهكذا نمط من اقتصادات السوق المركزية المنتجة الواعدة بتنافسيتها.

ختاماً، فبالقدر الذي تساهم فيه الدولة بحماية الاقتصاد الوطني والسير بمعتقد التنمية المتجددة المنظور، فان نمط السوق الاجتماعي كخيار اقتصادي يأتي لحماية سوق العمل والطبقة العاملةِ العراقية والمنتجين من آفة البطالة وهدر طاقاتهم البشرية، فضلاً عن توفير اقتصاد وطني بتنمية مستدامة حقاً، ومغادرة ريعية الاقتصاد الاحادية بالتنويع الشامل، وبأدوات السوق التنافسية ومبادئها الاجتماعية.

تداعيات انهيار أسعار النفط على الاقتصاد العراقي

الأستاذ الدكتور نبيل جعفر المرسومي
جامعة البصرة/ كلية الإدارة والاقتصاد

تمهيد

أدت جائحة كورونا في بداية 2020 الى توقف واغلاق العديد من المدن والمصانع، منعا لانتشار الفايروس والحظر على حركة السيارات والنقل عموما، وهو ما أدى الى انخفاض الطلب على النفط، بسبب انخفاض استهلاك الوقود للسيارات والمصانع مما ادى الى ما يعرف بتخمة السوق من المعروض النفطي، وكأنه جرس انذار لسوق النفط فتراجعت الاسعار بشكل كبير جدا، بحيث فقد سعر النفط اكثر من نصف قيمته، ما أدى الى انعكاسات سلبية هائلة على صناعة النفط العالمية، وعلى الدول المنتجة للنفط وخاصة دول أوبك ومنها العراق. ونظرا للأهمية الكبيرة للنفط في الاقتصاد العراقي كونه مصدر الدخل الأساس والمحرك للنشاط الاقتصادي فإن تحليل التداعيات الكارثية على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية في العراق، يعد أمرا في غاية الأهمية لاستشراف آفاقه المستقبلية، على الرغم من الصعوبات التي تكتنفه بسبب تعدد المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية التي تتحكم وتؤثر على سلعة النفط.

ويبدو ان الحديث عن انخفاض أسعار النفط، لا يمكن ان تقابله تطمينات مقنعة ومطمئنة، غير ان الجانب الايجابي في تحدي انخفاض النفط، يمكن ان يتحول الى فرص لتنمية القطاعات الزراعية والصناعية في العراق، الذي يتوافر على امكانيات جيدة لذلك. وقد اخذت الملامح الاولية لذلك تلوح في الافق، من خلال تمكن المزارعين العراقيين من تأمين قدر كبير من احتياجات السوق المحلية من المنتجات الزراعية، مع وجود توقعات بالتوجه بدرجة أكبر الى الاهتمام بالزراعة، سواء من قبل الحكومة أم المزارعين، وخاصة ان توفر المنتجات الزراعية يتيح بدوره تفعيل المشاريع الصناعية الصغيرة والمتوسطة لإنتاج العديد من السلع الغذائية التي اغرقت الاسواق المحلية بالمستوردة طوال الاعوام الماضية، وهو ما يمكن ان يوفر فرص عمل ويمتص نسبة معينة من البطالة. غير أنه وفي كل الاحوال فإن هذا البُعد التفاؤلي للازمة، يتطلب مقدارا من الوقت والجهد والصبر، حتى يبرز واضحا وجليا على ارض الواقع، وسياسات اقتصادية فعالة وإدارة جيدة للازمة وللاقتصاد العراقي عموما بما يؤدي الى تقليل أثر الازمة الحالية الخانقة.

أسباب انهيار أسعار النفط

أصابت صناعة النفط العالمية صدمتين في آن واحد على صعيدي العرض والطلب خلال شهر مارس 2020، إذ خفضت جائحة كورونا من استهلاك الوقود وزادت حدّة المنافسة السوقية بين المنتجين، اذ أدت إجراءات العزل العالمية إلى انهيار غير مسبوق في الطلب على النفط، وصل الى نحو 30 مليون برميل يوميا. وفي مقابل صدمة الطلب بهذا الحجم الهائل ظهرت تخمة عرض هائلة بسبب الغاء أوبك جميع القيود على إنتاجها، اعتبارا من الأول من نيسان بعد ما رفضت روسيا تأييد خفض إضافي للإمداد قدره 1.5 مليون برميل يوميا، حتى حزيران 2020. ويعني انهيار الاتفاق أنه سيكون بوسع أعضاء أوبك والمنتجين من خارجها نظريا الضخ كما يحلو لهم في سوق متخمة أصلا. وزادت السعودية والامارات والكويت من انتاجها، وتتمتع السعودية بقدرات إنتاجية اكبر، بفضل حوالي مليوني برميل في اليوم من الطاقة الإنتاجية غير المستغلة. وسعت شركة أرامكو الى رفع مستوى الطاقة الإنتاجية من 12 إلى 13 مليون برميل يومياً، غير ان السعودية لا تستطيع ان تنتج في المدى القريب اكثر من 10.700 مليون برميل يوميا، وهي لم تختبر بعد الإنتاج بمستوى 11 مليون برميل يوميا. لكن السعودية تستطيع استخدام مخزوناتها النفطية التي تصل الى 155 مليون برميل لزيادة الإمدادات في وقت قصير جدا الى مستوى 12.3 مليون برميل يوميا، اذ تقوم السعودية بتخزين الخام قرب محاور الاستهلاك في روتردام وأوكيناوا وميناء سيدي كرير المصري. كل ذلك أدى الى انهيار كبير في أسعار النفط الخام، وهو ما دفع ترامب الى الاتصال بالسعودية وروسيا لعقد اجتماع جديد لأوبك+ لتخفيض انتاج النفط بمقدار 10 ملايين برميل يوميا من اجل معالجة التخمة النفطية، ودفع الأسعار للأعلى بعد المعاناة الشديدة لمنتجي النفط الصخري الأمريكي المرتفع الكلفة. وقد عُقد اجتماع أوبك+ في 6 نيسان 2020 وتمخض عنه تخفيض الإنتاج بمقدار 9.7 مليون برميل يوميا، لكنه لم يحل دون فقدان سعر النفط لحوالي 60% من قيمته، اذ انخفض الخام الأمريكي الى 18 دولارا، وخام برنت الى 22 دولارا في الأسبوع الأخير من نيسان. وقد فاقم من تدهور السوق النفطية الدور الكبير للمضاربات من خلال المتاجرة بالبراميل الورقية والافتقار الى سعات تخزينية كافية في المراكز الثابتة والعائمة النفطية

اوبك+ تشمل العراق بخفض الإنتاج

اتفقت مجموعة أوبك+ على خفض الإنتاج العالمي بواقع 9.7 ملايين برميل يوميا ستتقلص بين يوليو (تموز) وديسمبر (كانون الأول) إلى 7.7 ملايين برميل يومياً، ثم يجري تخفيفها مجدداً إلى 5.7 ملايين برميل يومياً بين كانون الثاني 2021 ونيسان 2022. فيما تبلغ حصة العراق من التخفيضات من انتاجه في شهر أكتوبر 2018 والبالغ 4.653 مليون برميل يوميا كالآتي :

1.061 مليون برميل يوميا في شهري أيار وحزيران

849 الف برميل يوميا من تموز الى كانون الأول 2020

637 الف برميل يوميا من كانون الثاني 2021 الى نيسان 2022

التداعيات السلبية لاتفاق أوبك + على العراق

1- انخفاض انتاج وصادرات النفط العراقية بمعدلات قياسية مما أدى الى تراجع العائدات النفطية وتفاقم العجز في الموازنة العامة.

2- تقليص انتاج النفط الخام من حقول الجهد الوطني (ارطاوي، نهر عمر، الطوبة، الناصرية، اللحيس) لانعدام او ضعف التمويل المخصص لغرض تطوير وزيادة انتاج هذه الحقول.

3- انخفاض القدرة على تمويل المشاريع الاستثمارية في الصناعة النفطية، سوف تكون له تداعيات على انتاج النفط العراقي مستقبلا، وقد يتأثر أيضا، بذلك، اكمال مصفى كربلاء وإعادة تشغيل احدى وحدات مصفى بيجي.

4- خسارة العراق لبعض حصصه السوقية في اسواق النفط العالمية خاصة الأسواق الآسيوية كالهند وربما الصين أيضا.

5- صعوبة تمويل مشاريع الغاز المصاحب الذي سوف يؤخر تنفيذ برنامج تقليص حرق الغاز. وربما سيتأثر أيضا انتاج الغاز المصاحب بسبب التراجع الكبير في مستويات انتاج النفط العراقي.

أثر انهيار أسعار النفط في الاقتصاد العراقي

يأتي العراق في المرتبة الرابعة من حيث ما يمتلكه من احتياطات نفطية تصل الى 145 مليار برميل تشكل 11.6% من الاحتياطي العالمي عام 2018. فيما يحتل العراق المرتبة الثانية في أوبك من حيث الإنتاج الذي وصل الى 4.680 مليون برميل يوميا عام 2019. وقد صدّر العراق من النفط الخام نحو 3.526 مليون برميل يوميا عام 2019. ولكن طاقة التكرير في العراق لم تزد عن 815 الف برميل يوميا، غير انه لا ينتج حاليا سوى 644 الف برميل يوميا، من المشتقات النفطية أي ان العراق يصدر اكثر من 86% من نفطه خاما، فيما لا يصنع سوى اقل من 14% منه، وهو ما يشير الى تخلف الصناعة النفطية في العراق وعدم قدرتها على سد الاحتياجات المحلية، ما اضطر العراق الى استيراد منتجات نفطية بقيمة 2.8 مليار دولار عام 2018. ويمتلك العراق من الاحتياطات المؤكدة من الغاز الطبيعي بحوالي 3729 مليار متر مكعب عام 2018، وهو ما يجعله في المرتبة الخامسة عربيا. فيما ينتج العراق كمية قليلة من الغاز المسوق، لم تزد عن 14.5 مليار متر مكعب، ولذلك يستورد العراق الغاز الجاف لتغذية محطات الطاقة الكهربائية، بما يفوق المليار دولار سنويا. والمشكلة ان العراق يحرق نحو 40% من الغاز المصاحب للنفط والكمية المحروقة تكفي لتلبية حاجات العراق المحلية في توليد الكهرباء والصناعات.

وعلى الرغم من العراق هو رابع اكبر دولة منتجة ومصدرة للنفط الخام في العالم، إلا انه لا يمتلك طاقات إنتاجية فائضة، يستطيع من خلالها زيادة صادراته النفطية (كما في

السعودية والامارات) لتعويض بعض من خسائره المرتبطة بانهيار اسعار النفط. ولم يستطع العراق، بناء طاقات إنتاجية فائضة، يمكن من خلالها زيادة الطاقة التصديرية للنفط الخام، وتعويض بعض من خسائره السعرية كما هو الحال في بعض دول أوبك الأخرى، وفي مقدمتها السعودية، هذا فضلا عن ان العراق لا يمتلك بخلاف كل الدول المنتجة للنفط، صندوقا سياديا، يستطيع من خلال امتصاص صدمة النفط الحالية من خلال السحب من الصندوق لتغطية عجز الموازنة المتفاقم. في حين تمتلك السعودية صندوق الاستثمارات العامة، يبلغ 360 مليار دولار، فضلا عن مؤسسة النقد العربي السعودي 515.6 مليار دولار، فيما تمتلك هيئة الاستثمار الكويتية 592 مليار دولار، وأبو ظبي للاستثمار 683 مليار دولار. كما ان العراق لا يملك احتياطيات نقدية كبيرة جدا يمكن ان تخفف من وطأة الصدمة الاقتصادية والصحية المزدوجة لزمن طويل. اذ يبلغ الاحتياطي النقدي في البنك المركزي العراقي نحو 74 مليار دولار منه اكثر من 32 مليار دولار مستثمرة في سندات الخزانة الامريكية كمصد أخير للازمة الراهنة من خلال خصم الأوراق الحكومية او اطلاق حزم تحفيزية للقطاع الخاص.

ان هذا الوضع الكارثي للاقتصاد العراقي هو انعكاس لفشل السياسات الاقتصادية للحكومات المتعاقبة التي تفتقر الى مشروع متكامل لبناء الاقتصاد والدولة، والتي اكتفت بتوزيع العائدات النفطية على أوجه الانفاق المتعددة التي تشكل الآن عبئا كبيرا على الموازنة من دون ان تسطيع خلق اقتصاد متنوع ومصادر دخل بديلة، ترتكز على دولة مؤسسات يسودها الحكم الرشيد. وما حصل هو العكس تماما، اذ قوضت الدولة الهشة الاقتصاد القائم، وعمقت من ضعفه، ومن ارتباطه بالسوق العالمية، ما جعل الطبقة السياسية عاجزة تماما اليوم في الوقوف بوجه التحديات القائمة المرتبطة بتفشي فيروس كورونا وبانهيار أسعار النفط، مما أدى الى انكشاف واضح للاقتصاد وعدم قدرته على التعامل معهما، الأمر الذي دفع الاقتصاد العراقي الى حافة الهاوية ماليا واقتصاديا. ويمكن الإشارة الى اهم الاثار السلبية التي خلفها انهيار أسعار النفط على الاقتصاد العراقي بما يلي:

1- الأثر على الموازنة العامة

يعد النفط المورد الأساس في عملية إعداد الموازنة العامة العراقية كونهُ يمثل مصدرا مهما ورئيسا في تحقيق الموارد المالية من العملة الأجنبية، إذ شكل نسبة مئوية بلغت أكثر من (90%) من الإيرادات العامة للموازنة العراقية خلال المدة 2004 - 2019.

ونظراً لكون الاقتصاد العراقي اقتصاداً ريعيا يعتمد كلياً على العوائد النفطية في تمويل إيراداته الأمر نتج عنه انخفاض في تنويع مصادر الدخل غير النفطية العراقية، فضلاً عن تقلب الإيرادات العامة واعتمادها شبه التام على العوائد النفطية، إذ أصبحت هذه الإيرادات هي المغذي الرئيس لتمويل الموازنة العراقية بشكل كلي بدلا من البحث عن مصادر بديلة للدخل تقوي خزينة الدولة ومواردها، حيث بلغت الإيرادات العامة (33) ترليون دينار عام 2004، إذ بلغت الأهمية النسبية للعوائد النفطية (98.8%)

من إجمالي الإيرادات العامة، وواصلت ارتفاعها إلى (80.6) ترليون دينار عام 2008 وهو العام الذي بلغت فيه الأسعار ذروتها، حيث بلغ سعر البرميل النفطي ما يقارب نحو (147.27) دولار للبرميل الواحد؛ إذ بلغت الأهمية النسبية للعوائد النفطية 94.7% من إجمالي الإيرادات العامة. غير إنهُ خلال المنتصف من هذا العام بدأت الأسعار بالانحدار نتيجة تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية، حتى بلغ سعر البرميل النفطي في بداية عام 2009 نحو (32) دولارا للبرميل. ولهذا فإنَّ ميزانية عام 2009 قد انخفضت مواردها نتيجة انخفاض عوائد النفط الخام من (76.3) ترليون دينار عام 2008 إلى (50.2) ترليون دينار عام 2009، أي انها انخفضت بمقدار (26.1) ترليون دينار عراقي، أما إجمالي الإيرادات العامة لعام 2019 فقد بلغت بنحو (107.566) ترليون دينار. بالتالي نلاحظ ان الموازنة العامة تتأثر بالمتغير الخارجي وهو سعر النفط الخام الذي يؤثر بدرجة كبيرة بالاقتصاد العراقي.

إنّ العوائد النفطية قد شكلت المصدر الرئيس لتمويل الموازنة العامة العراقية، ويعكس ذلك مدى الريعية للاقتصاد العراقي وضعف مصادرها من الإيرادات غير النفطية كالضرائب والرسوم. وبذلك فإنَّ الموازنة العامة تعاني من مخاطر تذبذب حصيلة الإيرادات العامة، نتيجةً لتذبذب العوائد النفطية، وسيتفاقم عجز الموازنة العامة عند انخفاض هذه العوائد، بسبب انخفاض أسعار النفط الخام وانخفاض الصادرات النفطية لأي سبب كان، لذا يستوجب ايجاد مصادر دخل أخرى غير نفطية تساهم بشكل رئيس في تمويل الموازنة العامة. وقد أدى انخفاض أسعار النفط وتكلفة التعامل مع جائحة كورونا وشلل القطاع الخاص وتكاليف تأمين الخدمات العامة الضرورية الى خلق ازمة خطيرة في الموازنة، يصعب إيجاد الحلول السهلة لها. لذا يجب على الحكومة زيادة الإيرادات وتخفيض النفقات بشكل كبير للحد من العجز الكبير الذي بدا يلوح في الأفق.

يحتاج العراق سنويا، في الحد الأدنى، الى 84 ترليون دينار لتغطية النفقات التشغيلية الأكثر أهمية فقط كالرواتب والوقود والكهرباء والدواء والطاقة التموينية، في حين ان الإيرادات النفطية المتحققة خلال الخمسة اشهر الأولى من عام 2020 لم تزد عن 17.2 مليار دولار، أي نحو 19.3 ترليون دينار. واذا ما صدّر العراق نحو 3 ملايين برميل يوميا، وبسعر 35 دولارا للبرميل، فسيحصل على ايرادات نفطية مقدارها 24.7 ترليون دينار، فتصبح الإيرادات النفطية المتوقعة في عام 2020 نحو 44 ترليون دينار، تضاف اليها 7 تريليونات دينار من الإيرادات غير النفطية، فيصبح مجموع الإيرادات العامة نحو 51 ترليون دينار. وهذا يعني ان العجز المتوقع في هذا العام سيكون بمقدار 33 ترليون دينار. ونتيجة لذلك، فإن الاقتصاد العراقي سيواجه على الأرجح فجوة تمويلية حادة لن تقتصر نتائجها على إرجاء تنفيذ مشروعات البنية الأساسية الحيوية في قطاعات تقديم الخدمات فحسب، بل وإرجاء تنفيذ برامج بناء رأس المال البشري، كما ستحد من قدرة الحكومة على تلبية احتياجات التعافي الاقتصادي فيما بعد انحسار جائحة كورونا.

الجدول رق (1)
الايرادات النفطية الفعلية خلال الاشهر الاولى لعام 2020

الاشهر	الكمية المصدرة (مليون برميل)	الايرادات النفطية (مليار دولار)	معدل السعر دولار/ برميل	حجم الصادرات (مليون برميل يوميا)
كانون الثاني	101,062	6,085	60,452	3,306
شباط	95,805	4,733	51,374	3,391
اذار	101,392	2,883	28,182	3.381
نيسان	103,144	1,423	13,801	3,438
مايس	99,585	2.091	21,005	3,212

المصدر: استنادا الى: جمهورية العراق، وزارة النفط

2- الأثر على النمو الاقتصادي

يعد النمو الاقتصادي في العراق بأنه نمو عابر مرتبط بعوامل خارجية، وهذه العوامل متمثلة بأسعار النفط الخام، وبالتالي فإن هذا النمو سوف يتلاشى بمجرد زوال تلك العوامل التي أحدثته. ولهذا لا يمكن الاعتماد عليه في خلق الآثار الإيجابية بين القطاعات الاقتصادية المختلفة، حيث إن ارتفاع أسعار النفط يزيد النمو الاقتصادي، في الوقت الذي يؤدي انخفاض أسعار النفط إلى انخفاض النمو الاقتصادي. وتشير البيانات إلى أن انخفاض أسعار النفط أسهم في بعض الفترات في إيجاد حالات من الركود الاقتصادي، حيث أصبحت معدلات النمو الاقتصادي سالبة. وفي مواجهة عددٍ من الصدمات الحادة المرتبط بانهيار أسعار النفط وجائحة كورونا، والتي بدا أن العراق ليس مستعداً لمواجهتها، ازدادت التوقعات الاقتصادية للعراق سوءًا خلال الأشهر الستة المنصرمة. فمن المتوقع أن ينكمش الناتج المحلي الاجمالي بنسبة 9.7% خلال عام 2020 متراجعاً عن نسبة النمو الايجابية البالغة 4.4% التي حققها عام 2019، مسجلاً بذلك أسوأ أداء سنوي منذ عام 2003، وفقاً لتقرير البنك الدولي.

يشير الجدول (2) الى ثلاثة مؤشرات هي: الناتج المحلي الإجمالي ونصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي ونسبة النمو السنوي الحقيقي في الناتج المحلي الإجمالي، التي تشير الى ارتباط هذه المؤشرات بالعائدات النفطية خلال المدة 2004 – 2020، حيث شهدت معدلات نمو إيجابية عندما ترتفع هذه العائدات ومعدلات نمو سلبية عندما تنخفض العائدات النفطية وهو يؤشر العلاقة العكسية بين العائدات النفطية ومعدل النمو الاقتصادي وحصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي والذي يمثل خطرا اقتصاديا كبيرا يواجه العراق. ومن المتوقع ان ينخفض الناتج المحلي الإجمالي في عام 2020 من 254 مليار دولار عام 2019 الى 227 مليارا عام 2020 وبمعدل نمو سالب قدره 9.7%، وكذلك سينخفض نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي خلال الاشهر القادمة لغاية 2020 ليصل إلى 5602 دولار.

جدول (2)
الناتج المحلي الإجمالي في العراق خلال المدة 2004 - 2020

السنة	الناتج المحلي الاجمالي (مليار دولار)	نصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي (دولار)	نسبة النمو السنوي في الناتج المحلي الاجمالي %
2004	36,6	1391	48
2005	50,1	1849	2,8
2006	65,1	2350	6,2
2007	88,8	2125	1,5
3008	131,6	4513	9,8
2009	111,7	3725	7,7
2010	135,5	4487	5,9
2011	180,5	5839	8,6
2012	212	6650	2,7
2013	232,5	6882	0,1
2014	223	6420	1,8-
2015	172,4	4900	24,1-
2016	172,2	4940	5,3-
2017	207	5602	8,4
2018	231	6086	4
2019	254	6528	2,7
2020	227	5820	9.7-

المصدر: منشورات صندوق النقد الدولي

3- الأثر على المديونية

بلغ حجم الدين العام الداخلي في النصف الأول من عام 2020 نحو 38 ترليون دينار، وأقساط الدين الداخلي المستحقة لهذه السنة بلغت 14.7 ترليون دينار، وفوائد الدين الداخلي المستحقة وصلت نحو 2.4 ترليون دينار، أي ما مجموعه 17.1 ترليون دينار، اما تقديرات حجم الدين العام الخارجي فقدرت بنحو 26 مليار دولار. وإذا افترضنا جمعهما (والتي لا يجوز منهجيا دمج الدين الداخلي مع الخارجي لان الاول مقيم بالدينار العراقي والثاني بالدولار. وهذا يعني ان مخاطر الدين الخارجي اكثر خطورة من الداخلي، لأنه يعرض ميزان المدفوعات الى اعباء اكثر من الداخلي)، فسوف يبلغ اجمالي الدين العام 58 مليار دولار بالمقارنة مع حجم الناتج المحلي الاجمالي لسنة 2019 بمقدار 254 مليار

دولار، وهذا يعني ان النسبة تبلغ اقل من 23% وهي اقل بكثير من المعيار الدولي البالغ 60% . وبالرغم من انخفاض مؤشر خطورة الدين العراقي إلا ان الدولة ستواجه تحديا كبيرا في خدمة الدين الخارجي بسبب التدني الشديد في ايراد البلد من العملة الاجنبية، إذ تبلغ اقساط الدين الخارجي المستحقة في هذه السنة 4 مليارات دولار تقريبا، والفوائد 1،5 مليار دولار، اي ما مجموعه 5.5 مليار دولار. ومن المتوقع ان يؤدي انهيار أسعار النفط وتدني الإيرادات العامة في العراق وقصورها عن تغطية النفقات العامة الى اضطرار العراق الى الاقتراض الداخلي وبحدود 15 ترليون دينار، فضلا عن اللجوء الى الاقتراض الخارجي، وبمبلغ 5 مليارات دولار، وهو ما سيعظم المديونية الداخلية الى 53 ترليون دينار والمديونية الخارجية الى 31 مليار دولار، ما سيؤدي الى ارتفاع كبير في خدمة الدين تنعكس نتائجها السلبية في اقتطاع جزء مهم من عوائد الصادرات العراقية النفطية لتغطية أقساط خدمة الدين.

4- الأثر على الاستثمار

إنّ نسبة الانفاق الاستثماري من الموازنة العامة لا تزال محدودة مقارنةً بحجم النفقات التشغيلية التي تلتهم أكثر من 75% من النفقات العامة، وهذا يدل على اهمال الدولة لتكوين رأس المال الثابت وعدم اهتمامها بالبنى التحتية التي استهلكت خلال الحروب التي تعرض لها البلد، وضعف الخدمات العامة. بالتالي فإنَّ سعة الفجوة بين جانبي الانفاق لصالح الانفاق الجاري (الاستهلاكي) لا يمكن أنّ تلوح بإمكانية تحقيق معدلات أعلى للنمو الاقتصادي. وبسبب انهيار أسعار النفط والتراجع الحاد في العائدات النفطية التي لم تعد تكفي لتغطية النفقات التشغيلية، فقد تدهور الانفاق الاستثماري وعلى نحو شديد بحيث لم يزد عن 11.7 مليار دينار خلال الربع الأول من عام 2020 مقابل 24.4 ترليون دينار في عام 2019، وهو ما سينعكس سلبيا على النشاط الاستثماري في العراق، الذي يعد الأساس في تطوير اقتصاد البلد وتنميته.

5- الأثر على البطالة

تعد البطالة إحدى المشكلات الخطيرة والمستعصية التي يعاني منها الاقتصاد العراقي، نتيجة لغياب او ضعف السياسات الاقتصادية في مجال التنمية، فضلاً عن دخول العراق في الكثير من الحروب والصراعات الخارجية والداخلية، والتي جعلت من الاقتصاد العراقي هشاً ومتداعيا، وغير مولد لفرص العمل واعتماده على مصدر وحيد في تمويل إيراداته، وهو (العوائد النفطية)، حيث تفاقمت هذه المشكلة خصوصاً بعد عام 2003. فقد شكلت العوائد النفطية اكثر من نصف ناتجهِ المحلي الإجمالي وأكثر من (99%) من صادراته، وأصبحت المورد الرئيس في تمويل الموازنة العامة العراقية، فعلى الرغم من ارتفاع الأهمية النسبية للقطاع النفطي في تكوين الناتج المحلي الاجمالي (GDP) إلا انهُ لم يستوعب غير (3%) من إجمالي القوة العاملة، فضلاً عن أن القطاع النفطي لا يؤدي الى تحقيق تنمية اقتصادية في البلد من دون باقي القطاعات الأخرى والتي من أهمها القطاعان الزراعي والصناعي، من

أجل تشغيل أكبر عدد ممكن من الأيدي العاملة كون طبيعة اقتصادات البلدان الريعية تكون غير مولدة لفرص العمل، الأمر الذي جعل من هذه الظاهرة تتفاقم في الاقتصاد العراقي. كما أنّ الثروة النفطية هي ثروة ناضبة، وإيراداتها المالية عرضة لتذبذبات أسعار النفط الخام مما يؤثر سلباً في العوائد المالية للدولة وقدرتها على اعالة السكان ومعالجة أزماتها المزمنة.

وحسب الإحصاءات الرسمية لوزارة التخطيط العراقية يبلغ معدل البطالة 13.8% عام 2017 فيما تذهب تقديرات صندوق النقد الدولي الى ان معدل البطالة في العراق يصل الى 40% بين الشباب.

ويرجع السبب في ذلك الى تدهور القطاعين الصناعي والزراعي، وعدم قدرتهما على الانتاج وتوظيف المزيد من العاطلين عن العمل، أضف الى ذلك ارتفاع نسب الشرائح الواقعة دون مستوى خط الفقر، بالتالي فإن هذا التصاعد في معدلات البطالة ليس أمراً مفاجئا في ظّل الأسباب التي ذكرت من جهة، فضلاً عن وجود طبقة سياسية غير حازمة في اصلاحات جادة كونها اعتادت على الوضع الراهن الذي يعيشه العراق، وعلى المنافع التي تجنيها منه بغض النظر عما مرّ به العراق وما سيمر به. ومن المتوقع في ضوء تراجع الانفاق الحكومي المرتبط بانخفاض أسعار النفط وتداعيات جائحة كورونا التي أغلقت اقتصاد البلد جزئيا، وألحقت الضرر الكبير بالقطاع الخاص العراقي الذي يعمل فيه اكثر من 8 ملايين شخص، ان ترتفع معدلات البطالة، وبنسب مرتفعة في البلاد في عام 2020.

6- الأثر على التجارة

نظرا للصدمة المزدوجة التي يعاني منها العراق والمتمثلة بانهيار اسعار النفط وجائحة كورونا، فقد اخذت الاثار الاقتصادية السلبية على العراق تبرز بشكل واضح، ارتباطا بإغلاق المنافذ البرية والجوية امام الحركة التجارية والسياحية مع دول الجوار، وكذلك تقلص النشاط التجاري والاقتصادي الداخلي، جراء القيود المفروضة من قبل الجهات الحكومية كجزء من الاجراءات الاحترازية لمنع انتشار وتفشي كورونا، وما يمكن ان يترتب على ذلك من ارتفاع اسعار المواد والسلع المختلفة، خصوصا الاساسية منها، وهو ما أخذت بوادره وملامحه تلوح وتظهر مبكرا.

وبما أن الصين وايران، اللتين تعرضتا للفايروس بدرجة أكبر من غيرهما من الدول الاخرى، ولأنهما تعدان النافذتين الرئيسيتين للاقتصاد العراقي بشقيه الاستهلاكي والاستثماري، بحكم عوامل مختلفة من بينها قلة الكلف والاسعار بالنسبة للصين، والقرب الجغرافي بالنسبة لإيران، فإنه من الطبيعي جدا ان تنعكس التداعيات الاقتصادية فيهما على الواقع الاقتصادي والاجتماعي العراقي، وهو امر واقع، لا يتحمل مسؤوليته طرف معين. وما حدث من انخفاض في أسعار النفط كان مشكلة إضافية، لأن موازنة 2020 لم تقر بسبب موجة الاحتجاجات والانتفاضة، فضلاً عن انعكاس أزمة فيروس كورونا على الاقتصاد العراقي، حيث تسببت بتقليل التبادل التجاري الكبير بين العراق وجيرانه.

7- الأثر على الاحتياطيات النقدية

لا يمكن للعراق أن يواصل تسييل الدين الحكومي دون التأثير على استقرار سعر صرف الدينار تجاه الدولار. بلغ اجمالي الاحتياطيات الدولية للعراق 67.6 مليار دولار في نهاية عام 2019 ولكنها انخفضت الى 59 مليار دولار في نهاية شباط 2020، وكلما طالت الازمة المالية الحالية الناجمة عن انهيار أسعار النفط وتراجع معدلات تصدير النفط العراقي، كلما انخفضت عائدات البلد من العملات الأجنبية، وهو ما سيقلل من قدرة البنك المركزي العراقي في الدفاع عن سعر صرف الدينار العراقي من خلال نافذة بيع العملات الأجنبية. ومن دون زيادة كبيرة في الإيرادات فان ذلك سيحتم على الحكومة العراقية، ان تخطط لتخفيض فوري وكبير في النفقات العامة.

8- الأثر على الطلب الاستهلاكي

تمثل الرواتب جانبا كبيرا من الطلب الكلي الذي يعد احد جناحي العملية الاقتصادية الذي يمثل العرض جناحه الثاني. ويظهر التأثير المباشر للإنفاق الحكومي على الاستهلاك الخاص من خلال ما تدفعه الحكومة من رواتب للموظفين الذين يخصصون الجزء الأكبر من دخولهم للاستهلاك. ويمكن ان يحفز الطلب الكبير الانتاج المحلي فيما لو كانت هناك سياسات اقتصادية فاعلة، لتوسيع قاعدة الانتاج الوطني من السلع والخدمات المختلفة بالاتجاه الذي يفضي الى تلبية الطلب المحلي الكبير، مما يقود الى تطوير الاقتصاد العراقي وتنويعه، ذلك لأن ضآلة الطلب الكلي المتوقع في العراق بسبب استقطاع الرواتب المتوقع سيعمق من حالة الركود الاقتصادي التي يعاني منها العراق حاليا. وسيؤدي ذلك الى آثار سلبية على القطاع الخاص والانتاج المحلي ويدفع العديد من الوحدات الاقتصادية الى تقليص انتاجها وتسريح بعض العاملين فيها مما يقود الى آثار اقتصادية سلبية تراكمية تضر بالاقتصاد الوطني، لأنها تخفض الاستهلاك وتخفض الطلب على السلع ما يعني ركود الأسواق في قطاعات واسعة خصوصا التجارية والخدمية منها، وهذا سيقود الى تداعيات كارثية على الفئات الهشّة والفقيرة.

9- الأثر على الفقر

لم تعلن الحكومة العراقية عن خطتها لإنقاذ الاقتصاد، اذ ان العراق بحاجة الى حقن الاقتصاد بمزيد من الانفاق الاجتماعي، وتوفير موارد مالية للفئات المتضررة من الازمتين النفطية والصحية، التي تتطلب مواجهة أوضاع المتضررين، بفعل الإجراءات التي تطلبها الحجر الصحي الاختياري وتعطيل العمل في القطاع الخاص، مما يعد بتأثيرات سلبية على الكسبة وعمال الاجور اليومية. هذا فضلا عن الحاجة الى مزيد من الانفاق الصحي لرعاية مرضى الجائحة. ان الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحجر الصحي، وتراجع الانفاق العام نتيجة لانخفاض أسعار النفط لا تقتصر على توقف الاعمال والبطالة، لأن فقدان مصادر الدخل لملايين من الناس، يمكن أن يتضمن تداعيات كارثية على الفئات الهشة والفقيرة. وهنا نستحضر خصائص الفقر في العراق، إذ اشارت الى ان ما

يميز الفقر في العراق، هو قرب نسبة كبيرة من السكان من خط الفقر، وهو ما يعني هشاشة أوضاع ملايين الناس، الذين ستؤدي الأزمة الى وقوعهم تحت خط الفقر مع تراجع دخولهم.

وتشير وزارة التخطيط الى نسبة الفقر في العراق بلغت 22.9% عام 2017 ترتفع في الجنوب الى 31% وإن نسبة كبيرة من السكان يعيشون قرب مستوى خط الفقر، وعلى ذلك سوف تتسع مساحة الفقر في العراق بسبب الاضرار الكبيرة التي تعرض لها القطاع الخاص الرسمي وغير الرسمي بسبب الركود الاقتصادي المرتبط بانهيار أسعار النفط وجائحة كورونا. وهذا من شأنه ان يرفع نسبة الفقر في العراق خاصة وأن نسبة الاعالة مرتفعة في العراق؛ اذ ان 46.5% من العوائل العراقية، يتراوح حجمها ما بين 5 - 7 افراد.

المصادر :

1- وزارة نفط العراق، www.oli.gov.iq

2- وزارة المالية، دائرة المحاسبة قسم التوحيد/ نظام توحيد حسابات الدولة على الموازنة الجارية والاستثمارية http://mof.gov.iq/Pages/MainMof.aspx

3- د .نبيل جعفر عبد الرضا، مستقبل الاقتصاد العراقي في ظل صدمتي كورونا والنفط، الحوار المتمدن - العدد: 6550 - 2020/4/29

4- د. مظهر محمد صالح، المعادلة النفطية الصعبة في العراق, شبكة العراقيين الاقتصاديين.

5- صندوق النقد العربي، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 2019.

6- صندوق النقد الدولي, التقارير السنوية.

7- صندوق النقد الدولي, مستجدات آفاق الاقتصاد الإقليمي: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى, ابريل 2020 .

8- البنك المركزي العراقي, مديرية الاحصاء والابحاث https://cbi.iq/news/section/4

9- مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، اثار هبوط اسعار النفط على كبرى الدول النفطية، 2020 ، متاح على شبكة الانترنت https://fikercenter.com

10- شركة تسويق النفط العراقي (سومو) https://somooil.gov.iq/

11- بارق شبر، الحكومة العراقية الجديدة في مواجهة الازمة، 2020، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين.

12- وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الاحصائية، سنوات مختلفة، صفحات مختلفة.

نحو رؤية جديدة للاقتصاد العراقي بعيدا عن الريعية

باسم جميل أنطوان

بكالوريوس ادارة واقتصاد، خبرة 55 سنة في مجال الصناعة والقطاع الخاص، وساهم في عدة لجان لوضع خطط التنمية الوطنية الخمسية. كما مثل القطاع الخاص العراقي في المنظمات العربية والدولية.

ورث العراق تركة ثقيلة من النظام السابق، وذلك بسبب سوء الإدارة ونتيجة للسياسة الاقتصادية الخاطئة والمركزية التي فرضها النظام المذكور عبر ثلاثة عقود من الزمن والتي كبلت الاقتصاد العراقي بمشاكل ومعضلات كبيرة، بقينا ندفع ثمنها حتى الوقت الحاضر. هذا اضافة للحروب المتعددة التي خاضها النظام، والحصار عبر اكثر من 13 سنة، وقد تجسدت هذه المشاكل بما يأتي:

1. الاقتصاد الاحادي المعتمد على القطاع النفطي حيث أصبح يشكل هذا القطاع أكثر من 65% من الناتج المحلي الاجمالي، وتمثل عائداته المكونة من صادرات النفط أكثر من 94% من ايرادات الحكومة، و98% من عوائد صادرات العراق، بحيث أصبح تمويل المصروفات الاستثمارية والاستهلاكية وتحويل الاستيراد سنّة.

2. هيمنة القطاع العام على النشاط الاقتصادي الذي ادى الى تدني الكفاءة في الإنتاجية وتباطؤ في النمو، وتخلف في طرق الإنتاج وأصبح خارجا عن المنافسة مع المنتجات الاجنبية بل حتى تعطل المؤسسات الحكومية، وتسخيرها للمنتج الحربي والعسكري، اضافة الى ضعف دور القطاع الخاص في عملية التنمية الاقتصادية، وتوقف منشآته وانحسار تنوع قاعدته الإنتاجية عدا فترة 1991 – 1996.

3. التمايز الكبير في تقديم الخدمات الاجتماعية بين مناطق العراق الجغرافية والفئات المساندة للنظام السابق، خاصة في مجال الصحة والتعليم والخدمات العامة، وعلى حساب الفئات ذات الدخل الواطئ.

4. التجنيد الالزامي في الجيش لشريحة الشباب، وهم في قمة الحيوية والانتاج والذين يشكلون أكثر من 55% من سكان العراق كرأسمال بشري منتج لبناء المجتمع، مع حرمانهم من التعليم والتدريب المهني

واكتساب المهارات، والذي ترك أثره السلبي على العمالة الفنية والوسطية من افراد المجتمع.

5. تفشي البطالة التي جاوزت 50% من مجموع الايدي العاملة، والتي ادت الى انتشار الفقر بين طبقات المجتمع، التي كانت تعيش بمستوى متوسط الدخل حيث جاوز خط الفقر 45%.

6. اعقبها تعرض المنشآت الحكومية الى عملية السلب والنهب والحرق والدمار بعد سقوط النظام، ما ادى الى انهيار قدرات الجهاز الحكومي، وعجزه عن ادارة الدولة.

7. ارتفاع نسب التضخم النقدي، بسبب اقدام النظام السابق على تمويل العجز في ميزانية الدولة عن الاصدار النقدي بدون مقابل، حيث زادت عن 50% سنويا، وتدهور سعر صرف الدينار العراقي.

8. بقي الرأسمال الاجتماعي في العراق لفترة طويلة يقاوم كل سلبيات المجتمع، وهو حلقة وصل بين الانسان ودخله، لكنه في الآخر شهد استنزافا قاد الى افتقار معظم الفئات الاجتماعية بسبب فقدان العدالة الاجتماعية في توزيع الدخل.

10. ان الوضع السياسي والاقتصادي الذي نعيشه في العراق لا يختلف عن باقي العالم، فاقتصادنا هو اقتصاد تابع لاستقبال أزمات العالم الرأسمالي، لكنه اخذ لباسا آخر هو مظلة الدين والقومية والمذهب.

سمات الاقتصاد العراقي

رغم ما ذكر من سلبيات وعقبات بوجه نهوض الاقتصاد العراقي إلا ان هناك مزايا عديدة تجعل مهمة النهوض بالاقتصاد ممكنة، حيث يمتاز العراق بتوازن كبير بين مساحته وعدد سكانه والفئات الشبابية التي يمتلكها، وموارده الطبيعية، اضافة لموقعه الجغرافي وقد وفرت هذه السمات النسبية قدرات تنموية كامنة لتضعه في مقدمة الاقتصادات الواعدة في منطقة الشرق الأوسط، غير أن السياسات الاقتصادية الخاطئة والحروب العبثية الثلاث التي زج النظام السابق العراق فيها، خلال ربع القرن الماضي، ادت الى استنزاف في الموارد المالية والبشرية وخراب البنى التحتية. هذا اضافة الى تدهور القيمة الحقيقية للاستثمارات وتراجع النشاط الاقتصادي في القطاعات الاقتصادية المختلفة، وتفاقم مشكلة البطالة واتساع نطاق الفقر، إضافة الى التضييق على القطاع الخاص وحصر نشاطاته في المجالات التي تخدم ماكنة الدولة وآلتها الحربية، ومصانع التصنيع العسكري، خاصة بعد حرب احتلال الكويت (1990)، إضافة الى تدهور البنى التحتية، وعليه أصبحت عملية إعادة الاعمار والإصلاح الاقتصادي تواجه تحديات كبيرة.

ان التصدي لهذه التحديات يتطلب إرادة حقيقية للحكومة مع اعداد برامج متطورة وشخوص وأدوات لتنفيذ هذه البرامج ووضع سياسات اقتصادية واجتماعية ضمن رؤية استراتيجية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع إعادة هيكلة الاقتصاد الوطني وتوسيع قاعدته الإنتاجية وإعطاء دور مميز للقطاع الخاص العراقي، لكي يستقطب رؤوس الأموال المهاجرة وتعزيز قدراته المالية والفنية، ليلعب الدور الرئيس في التكوين الرأسمالي لتشغيل الايدي العاملة واستقطاب الكفاءات والخريجين الى سوق العمل خاصة من الشباب والكف عن اللحاق وراء الاستثمار الحكومي غير المنتج،

وتحقيق معدلات طموحة في النمو الاقتصادي والتوجه نحو مفهوم التنمية المستدامة، والتي تعتبر الأساس في تقدم البلد.

كانت الآمال المبنية على التغيير عريضة ومتفائلة خاصة ما كنا نسمعه ونتابعه عبر أجهزة الاعلام ومجيء بعض المستشارين المرافقين للقطعات العسكرية الامريكية. وقد اتيحت لنا الفرصة للقاء البعض منهم وسماع الاخبار والبرامج التي وعدوا بها للتنفيذ في عملية الإصلاح الاقتصادي بعدما عانينا بشكل كبير من الاضطهاد السياسي والاقتصادي، عبر اكثر من ثلاثة عقود من الزمن، وخاصة بعد توقف اهم القطاعات الإنتاجية في الصناعة سواء كان ذلك في القطاع العام ام الخاص. وبدأت عملية اعمار أولية من قبل المحتلين لتامين المعسكرات لهم، والبنى التحتية لبعض المصانع والمواقع ليحولوها بعدئذ الى معسكرات لهم وتأمين وضعهم العسكري، بالأخص بعض منشآت التصنيع العسكري، وبشكل عشوائي في بغداد وباقي المحافظات. وقامت الوحدات العسكرية لقوة التحالف بعملية الاعمار بنفسها والاستعانة بالعمالة العراقية البسيطة وبمبالغ زهيدة، تخللها الفساد بين المتعهدين والشركات الامريكية وافراد من الجيش المحتل من التحالف، منطلقين من مبدأ الامريكان تحت شعار (الفوضى الخلاقة).

بدت الحياة تسير بشكل عشوائي اقتصاديا، حيث اقدم الحاكم الأمريكي (بول بريمر) على فتح الحدود على مصراعيها في استيراد شتى أنواع المواد الاستهلاكية، وفي مقدمتها الستلايتات التي كان المواطن العراقي محروما منها في زمن النظام السابق، إضافة الى باقي السلع من مأكل وملبس وسلع استهلاكية أخرى. كما قام بتجميد قانون التعرفة الجمركية وإعطاء إعفاءات ضريبية واسعة لمدة سنة وثلاثة اشهر. وأصبحت هذه القاعدة الأساسية للاستيراد العشوائي ودخول السلع خارج التسعيرة والمواصفات الوطنية؛ فضربت الإنتاج الوطني في قطاعي الصناعة والزراعة، اكبر قطاعين انتاجيين مشغلين للأيدي العاملة.

ولحين تشكيل مجلس الحكم والذي وضع الأساس السياسي والطائفي والاثني للطبقة الحاكمة في العراق، ومزّق وحدة الشعب العراقي، واستباح الاقتصاد العراقي، فدخلت الى السوق العراقية بضائع رخيصة الثمن، رديئة النوعية، مخالفة للشروط الصحية والسلامة العامة، قادمة من جنوب شرق اسيا ودول الجوار، ودون رقابة على التحويل الخارجي، الذي كان الأساس وصمام الأمان في عملية السيطرة على حركة العملة الأجنبية في البلد. وما كان هناك أحد من الحكام (معظم أعضاء مجلس الحكم) ليدرك ابعاد هذه العملية وتأثيرها على الإنتاج الوطني، خاصة في ظل الحرمان الذي عاشه البلد خلال سنوات من الحكم المركزي.

لم يكن هناك منهاج استيراد، يحدد كميات السلع المطلوب استيرادها، ولا نوعياتها لكي يخلق توازنا بين المنتج المحلي والمستورد، ودخلت طبقة طفيلية على العملية الاستيرادية. وقد زاد الطين بلة بعد بدء مزاد العملة والانفتاح على اقتصاد السوق الليبرالي المشوه، حيث استمر اغراق السوق العراقية بالسلع والحاجات الاستهلاكية المتنوعة، وكان هناك عطش كبير لذلك. وبدأت الشرائح التجارية الطفيلية، تمارس نشاطها ودورها في عملية الإغراق السلعي، واستشرى الفساد

على المنافذ الحدودية وجرى اختراق كبير لهيئة الجمارك وضريبة الدخل في تسعير السلع والبضائع الداخلة للبلد بعد قرار رسم إعادة الاعمار للسلع المستوردة وبنسبة 5% بدلا من التعرفة الجمركية.

الواقع والطموح

إزاء هذا التغيير الذي حدث في طبيعة الحكم، كنا نتوقع نحن أبناء القطاع الخاص من صناعيين ومزارعين وتجار وسياحيين وشتى النشاطات الاقتصادية ان يصار الى اصدار تشريعات تخدم الاقتصاد الوطني وتبقي على سيادة قطاع انتاجي وطني اسوة بما كان عليه العراق في فترات الخمسينات والستينات من القرن الماضي، حيث كان العراق يمتلك قطاعا خاصا وطنيا سياسيا، ينتمي للوطن قبل ان ينتمي لجيوبه ومصلحته بل كان منه قادة في الحركة الوطنية والسياسية للبلد.

كانت الطبقة الحاكمة بعد الاحتلال التي ذرت الرماد بعيون الشعب تحت ستار شعارات دينية ومذهبية وقومية، قد مزقت الشعب العراقي، لا تدرك معنى الاقتصاد والتنمية وليست لديها تطلعات اقتصادية تنموية، بل بدأت بالاستعانة بالطبقات الطفيلية من رجال الاعمال لغرض الهيمنة على كل المرافق الاقتصادية واقربها لها هي التجارة والاستيراد السريع الذي يحقق اكبر الأرباح في اسرع الأوقات، ودون مسؤوليات. بخلاف القطاع الإنتاجي في الصناعة والزراعة، وحولت السوق العراقية الى مرتع خصب لبضائع وسلع دول الجوار وجنوب شرق اسيا. وبذلك عملت على ضرب القطاع الأهم والوطني الا وهو قطاع الصناعة الذي يعمل على خلق فرص عمل للعاطلين، ويقلل من نسب الفقر في المجتمع، ويغني عن الاستيرادات التي أصبحت واسطة لتهريب العملة، وتبييض الأموال. فهجرت الصناعة الوطنية الاهلية إضافة الى 250 مصنعا للقطاع العام في وزارة الصناعة والمعادن واكثر من 16 شركة منتجة في القطاع المختلط كانت تسد حاجة البلد من السلع البيتية والاستهلاكية والمتنوعة والغذائية. وبدأت مصانع وزارة الصناعة والمعادن تقترض شهريا، وسنويا رواتب العاملين من المصارف لتسد الرواتب والأجور حتى بلغت لغاية عام 2015 ما يقرب من 15 ترليون دينار، دون مساهمات تذكر في الناتج المحلي الإجمالي، لانهم اصبحوا عاجزين عن منافسة السلع المستوردة. وما شجع ذلك هو الانتماءات السياسية لعدد من السياسيين لدول الجوار، واصبحوا يدينون بالولاء السياسي والاقتصادي لتلك الدول، واستباحة السوق العراقية لها. كما ادخلت كثيرا منهم شركاء واوصياء لبعض طفيليي القطاع الخاص من الذين يدينون بالولاء لهذه الدول وخلقت طبقة انتهازية سياسية طفيلية اقتصاديا، لم يكن لها أساس اقتصادي ومادي في السابق، بل امتلكت الثروات والعمارات والدور والاطيان بين ليلة وضحاها، ولم يعد هناك مكان للصناعيين الاصلاء، وشلت معامل القطاع الخاص في الإنتاج.

كنا نرفع مطالبنا ونشكل الوفود عبر المنظمات والاتحادات الوطنية ونرفع التوصيات، كما أجرينا المقابلات المتعددة مع لجان وأعضاء مجلس النواب والمسؤولين في هيئة المستشارين لعلنا نفلح وبالفعل استطعنا وبالتعاون مع العديد من المخلصين

في الوزارات وهيئة المستشارين من وضع استراتيجيات متعددة، منها الصناعية والزراعية، السياحية، التعليم المهني والتشغيل والقطاع الخاص..الخ. ودفعناهم وبالتعاون معنا الى تشريع قوانين اقتصادية مهمة، منها قانون التعرفة الجمركية، وقانون حماية المنتج الوطني، وقانون حماية المستهلك وقانون التنافسية ومنع الإغراق السلعي، وقانون الاستثمار العراقي، إضافة الى مسودة قانون الشراكة بين العام والخاص، وقانون التعليم المهني. ولكن للأسف الشديد جميع هذه القوانين لم تر التطبيق الفعلي على ارض الواقع، او طبقت بشكل خجول منذ عام 2010 لغاية عام 2019.

لم تكن هناك رؤى للاقتصاد العراقي لدى الحكام طوال السنوات التي مضت فقد كان همهم الرئيس هو إبقاء الاقتصاد العراقي ريعيا بامتياز. وهذا ما أكده رؤساء وزارات بانفسهم. كان لدينا تصور عن مسيرة الاقتصاد واقتصاد السوق الاجتماعي يعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب، لكننا لم نكن نمتلك القرار. نحن كنا نمتلك الرؤى لكننا لا نمتلك القرار، وهم يمتلكون القرار ولكنهم لا يمتلكون الرؤى الاقتصادية. وربما كنا واهمين في ذلك فهم يريدون العشوائية في إدارة الاقتصاد ويحجمون الكفاءات العراقية والخبراء والمهنيين ليبقى الفساد مستشريا في البلد، ويجري العبث بالموازنات دون حسابات ختامية. كما بدا بعض المسؤولين يستغلون مواقعهم في الزيادات غير النظامية بالرواتب والمخصصات ما اثقل كاهل الموازنة التشغيلية على حساب الاستثمار الوطني. واستمرت عملية هدر المال العام لأغراض الكسب السياسي والانتخابي (فمن ملكَ المال والسلطة ملكَ الحكم) وبالتالي سد الطريق على القوى الوطنية والأكاديمية والمثقفة والنزيهة من الوصول الى مقاليد الحكم عبر التزوير المستمر في العملية الانتخابية وحرمان هذه الشرائح من المساهمة في عملية الإصلاح الاقتصادي، وحتى في حالة وصول مفردات من أصوات التغيير يبدأ التآمر عليهم بشتى السبل لحرمانهم من المساهمة في العملية السياسية ومحاولة تشويه سمعتهم.

ان سيطرة القرار السياسي والقرار الاقتصادي لن يسمح بنهوض القطاعات الإنتاجية في البلد وبالأخص الصناعة والزراعة، بل سيعمل على استقطاب رؤوس الأموال الاستثمارية والإنتاجية والهجرة الى خارج البلد. ويبقى العراق بيئة طاردة للاستثمارات وتحول مبالغها الى دول الجوار، لتحقيق استثمارات آمنة لهم، ويبقى سوقها الأساسي للاستيلاء هو العراق. وربما قسم منهم تورط في تحويل استثماراته الى ايران، طمعا في سعر الفائدة المبالغ فيه، الى ان تورط بانخفاض أسعار عملتها، إضافة الى التوجه نحو شراء العقارات في دول الجوار مثل تركيا، الأردن والامارات واستقرار كثير من رؤوس الأموال العراقية في هذه الدول حتى وصلت السيولة النقدية العراقية في بعض البنوك الأردنية، اكثر من 15 مليار دينار اردني، وهذا حسب تصريح مسؤول رسمي اردني.

لقد تحول العراق وريعه النفطي الى بقرة حلوب لتغذية وارضاع دول المنطقة وليس لبناء قاعدة إنتاجية او صناديق سيادية لحل مشاكله وقت الازمات. وتحول الاقتصاد الى تابع للازمات العالمية العاصفة بالكرة

الأرضية سياسيا واقتصاديا، خاصة أزمات النفط والطاقة وموازنة يندر ان تخلو من عجز سواء كان النفط في حال بحبوحة او انكماش في أسعاره، ولا يشعر المواطن العراقي بأي مصلحة له، عدا ما ذكر بالدستور (النفط والغاز ملك الشعب العراقي جميعه)، او تحسن حالته المعيشية. واليوم الازمة التي تضرب العالم جميعه فهي اشد وطأة على الاقتصاد العراقي الهش، حيث تهيمن عليه الريعية والرعوية والتشوه في هيكليته التنموية، هذا إضافة الى ظهور جائحة كورونا مع انهيار كبير في أسعار النفط، وتراكم الديون عليه خارجيا وداخليا، واستعصاء تشريع موازنة عام 2020، وحسب تصريح وزير المالية. عليه تتطلب عملية الإصلاح الاقتصادي أولا، اصلاحا سياسيا كبيرا، وله روى اقتصادية واضحة، مع إرادة حقيقية لأصحاب القرار بالتغيير السلمي للوضع، مكون من كل القوى المتضررة من هذا الوضع القائم.

فمنذ عام 2003 ولحد الآن ـ مع نسيان الخلافات الثانوية وخلق أجواء وطنية ـ تجمع كل العراقيين الشرفاء حول برنامج إصلاحي واسع النطاق، ويجمع عليه كل المستفيدين من التغيير تحت خيمة العراق أولا، حيث ما زالت هناك فرصة لإعادة تقييم الموقف، طالما هناك بارقة أمل من برنامج رئيس الوزراء الجديد السيد مصطفى الكاظمي، ضمن المحور الثالث في البرنامج المقدم الى البرلمان وتوابعه. وهذا يحتاج الى شخوص نزيهين اكفاء مخلصين للبلد بعد التخلص من الطبقات الطفيلية المعشعشة في أجهزة الدولة، وضرب الفساد المستشري في اطناب الدولة العميقة.

وهذا يتطلب نقاطا أساسية عدة وبرنامجا واسعا على مراحل: قصير الأمد وطويل الأمد، وكما يلي:

1. ان ما نعيشه الآن هو أكبر من ازمة مالية ونقدية تجعلنا نفكر برواتب الموظفين والمتقاعدين فقط. والحقيقة ان الوضع الحالي هو تراكم لسياسات اقتصادية خاطئة، فاسدة ليس مشكلتها نقص المال بل سوء إدارة الأموال والتصرف بها بشكل مبعثر، عبثي، وهدر فاضح للمال العام.

2. تحويل الاقتصاد العراقي من اقتصاد ريعي الى اقتصاد انتاجي، مادي، يسد حاجة المجتمع، ويغني عن الاستيرادات خاصة المأكل والمشرب والملبس، واحياء الصناعات الصغيرة والمتوسطة المشغلة لأكبر عدد من العمالة، وبكلف اقل، وبالتالي المساهمة في تقليل نسب الفقر والبطالة فهي الآفة في المجتمعات الريعية.

3. التوجه الجاد نحو تنمية ودعم القطاع الخاص العراقي الأصيل، المنتج للسلع والخدمات اليومية للمواطن العراقي ومشاركته الفعلية، في اتخاذ القرارات والمساهمة في تنفيذها وتحمل المسؤولية، والكف عن ادخال الطفيليين في العملية الانتاجية والتنموية، فهم أدوات وسماسرة للهيمنة على الاقتصاد، بدعم ومشاركة ودفع من رؤوس قابعة في السلطة بشكل دخيل على حساب المجتمع، واستغلت مراكزها الوظيفية، حيث يعمل في هذا القطاع الخاص، أكثر من 8 مليون مواطن من عمال وموظفين.

4. وضع منهاج استيراد للسلع والحاجات التي لا ينتج لها بديل في العراق، وتحديث كميات الاستيراد حسب حاجة السوق

المحلية، والحد من سياسة الإغراق السلعي، لضرب المنتج المحلي، وخلق توازن بين الإنتاج المحلي والاستيراد الأجنبي.

5. تطبيق التشريعات والقوانين الأربعة التي صدرت عن مجلس النواب منذ عام 2010 وبدفع من القطاع الخاص وهي: قانون التعرفة الجمركية، قانون فائدة الإنتاج المحلي، قانون حماية المستهلك، قانون التنافسية ومنع الإغراق السلعي. ومن ثم تمكين القطاع الصناعي من العمل على المساهمة في خلق فرص عمل للعاطلين واستيعاب العمالة الفائضة، حيث يبلغ عدد الخريجين من الجامعات والكليات والمعاهد اكثر من 150 الف منتسب سنويا، دون خلق فرص عمل لهم.

6. تنمية وتطوير كفاءات العمالة العراقية عبر معاهد مهنية متطورة ومحدثة للالتحاق بأساليب العمل الحديثة، بعد غياب انتاجي دام اكثر من ثلاثة عقود وفقدان المهنية لدى العمالة العراقية مع الكف عن ادخال العمالة الأجنبية غير الماهرة الى البلد، حيث تجاوز عددها 750 الف عامل، وانخفضت إنتاجية الموظف العراقي الى 17 دقيقة في اليوم نتيجة للترهل في أجهزة الدولة، وتكدس اعداد من الموظفين على شكل تعيينات غير مجدية، ذات طابع سياسي وحزبي وفئوي لغرض كسب الأحزاب أصواتا انتخابية على حساب الموازنات، والعمل على تنفيذ قانون مجلس الخدمة الاتحادي لتحقيق العدالة بالتعيينات.

7. احقاق القانون وتطبيقه في كافة النشاطات الاقتصادية: مجال ضريبة الدخل والجمارك والرسوم وشمول كل النشاطات الاقتصادية بالمظلة القانونية، حيث يغلب الطابع الرمادي في النشاطات الاقتصادية والتي قد تصل الى 65% منها غير مسجلة خاصة في مجال التجارة والتوزيع والمهن الأخرى غير المسجلة في مجال الصيرفة، وتحويل العملة وغيرها.

8. اعادة هيكلة النظام المصرفي وبالأخص نشاط مصارف القطاع الخاص، وتحويلها من خزائن للمال والمضاربات الى مصارف للاستثمار والاعمار والتنمية اسوة بباقي دول العالم، مع تحديث النظام المصرفي، وحسب متطلبات التنمية وبصيغة جديدة لاستقطاب رؤوس الأموال من البيوت والقاصات الخاصة الى الاستثمار بالسوق وتحويل الادخار الى استثمار بدل الاكتناز وإعادة بث روح الحياة الى أسواق العراق للأوراق المالية وتسهيل عودة رؤوس الأموال المهاجرة من أسواق دول الجوار الى البلاد.

9. على القطاع الخاص ان يصنع هويته بنفسه وبمعزل عن الهيمنة السياسية للأحزاب والكتل المختلفة خارجيا او داخليا، وعليه ان يخلق تراكما فكريا من ارث القطاع الخاص الأصيل عبر التاريخ الوطني له، وخلق وعي طبقي خال من الانانية، ويتمتع بنكران الذات. وان يختار ممثليه الأمناء عبر المنظمات والاتحادات من ذوي المقدرة والكفاءة والنزاهة، ومنع الهيمنة والبيروقراطية في العمل، واتباع الشفافية في تولي قيادة المنظمات، لكي يتولى مسؤولية المساهمة في الريادة والبناء والاقتصاد.

10. محاربة الفساد المستشري بشكل واسع في كل مفاصل الدولة، وخاصة الاقتصادية منها والمدعوم سياسيا، سواء

أكان عن طريق اللجان الاقتصادية في الوزارات ام عبر مسؤولين أصبحوا شركاء للفاسدين من القطاع الخاص، واتخذوا منهم واجهات لتسيير أعمالهم في أجهزة الدولة، عبر الأحزاب السياسية، ما عمل على هروب القطاع الخاص الأصيل من الصناعيين والمقاولين والبدء بتأسيس صناديق سيادية، اسوة بالدول الريعية للاستفادة منها، وقت الازمات.

11. اعادة هيكلة الموازنة العامة للدولة وتغليب القسم الاستثماري فيها على التشغيلي الذي أصبحت فيه الرواتب لذوي الدرجات الخاصة عالية، والمخصصات والتقاعدات الضخمة المبالغ فيها بئرا، تبتلع كل الإيرادات النفطية، ووضع قانون رواتب موحد يشمل كل الوزارات والدرجات الوظيفية، وحسب تدرج عادل يحقق العدالة الاجتماعية بين افراد الشعب، لتسري المادة الدستورية 111، وليس لموظفي الدولة فقط دون باقي الافراد من العاملين بالقطاع الخاص.

12. ان الطموح في معدل النمو الاقتصادي يجب ان يتناسب مع الزيادة السكانية حوالي 3% وإلا فسوف يكون هناك استهلاك وتآكل متواصل للبنى التحتية، مع سوء الاستعمال لهذه المنشآت. وعليه يجب خلق توازن بين النمو السنوي والاندثار السنوي، لكي لا يحدث تراجع في بناء المجتمع.

13. اعادة ترشيق أجهزة الدولة من الاعداد الفائضة في التعيينات السياسية والكسب المادي، والتي جرت في فترات الفوضى العشوائية، تحت ستار تقليص البطالة وتحويل هذه الجيوش من الموظفين الحقيقيين والوهميين والفضائيين الى قطاع الإنتاج بكل اشكاله وبالتالي القضاء على البطالة المقنعة والناقصة في دوائر الدولة، ورفع نسبة مساهمة القطاعات الإنتاجية في الناتج المحلي الإجمالي، حيث يدخل سوق العمل سنويا ما يقرب من 500 ألف شاب وشابة.

14. تطبيق آليات جديدة للضمان الاجتماعي والقيام بإصلاحات جوهرية والتعرف إلى أوضاع نظم الحماية الاجتماعية والبحث عن ثغراتها، ومعرفة آراء ومقترحات جميع الأطراف المعنية بها، خاصة الطبقات الفقيرة، وكما ورد في الدستور العراقي المادة 30 منه في حق التقاعد والتعليم والصحة وحقوق المرأة والطفل والرعاية الاجتماعية.

15. استقطاب الاستثمارات الأجنبية والمحلية والعربية عبر خلق بيئة قانونية جاذبة والقضاء على الروتين والبيروقراطية في التعامل مع المستثمر، وتطوير هيأة الاستثمار بكفاءات وطنية.

16. وضع رقابة على مزاد بيع العملة ومعرفة مصادر رؤوس الأموال المساهمة في المزاد وإخضاع هذا المفصل لضريبة الدخل، والعمل على توسيع الوعاء الضريبي المباشر للمتهربين منهم، وضبط المنافذ الحدودية في استحصال حصة الدولة من الرسوم الجمركية، وضريبة الدخل، والتأكد من وصف البضاعة ومتابعة تجاوزات المافيات في الهيمنة على المنافذ الحدودية، ومتابعة المنافذ غير الرسمية وإيقاف الابتزازات في السيطرات الوهمية على السلع والبضائع الداخلة الى العراق، وإيقاف الهدر الكبير في هذه المنافذ.

التحديات التي تجابه تطبيق البرنامج الإصلاحي:

أولا:

أ. اخفاق الحكومة في اخضاع الإدارة لمنطق الحسابات الاقتصادية السليمة وخضوع القرار الاقتصادي السليم لمعايير تحكم السياسيين، إضافة الى التضخم في الجهاز الإداري، وتبديده الموارد وسيطرة المصالح الشخصية والفئوية، وانخفاض كفاءة الاداء والهرولة خلف المنافع الذاتية.

ب. اضافة الى الفساد الإداري والمالي وتعمق هذه الظاهرة، فقد أصبحت بنية مؤسسية متكاملة مترسخة الجذور وتحول الفساد الى مصدر للاستنزاف وهدر المال العام، كما اصبح العراق من بين الدول العشرة الأولى الأكثر فسادا في العالم، حسب تقرير منظمة الشفافية الدولة لعام 2016 .

ثانيا: التحديات الاقتصادية

أ. تردي مناخ الاستثمار بسبب عوامل مناخية واقتصادية وتشريعية وقانونية وتنظيمية وهذا ما تشير له تقارير المنظمات الدولية، كمؤشر لسهولة الاعمال في دوائر الدولة، حيث كان العراق في المرتبة 165 من مجموع 190 دولة لعام 2016.

ب. اختلال بنية الإنتاج حيث ما زال القطاع النفطي هو القطاع المهيمن على الناتج المحلي الإجمالي المحلي، وتشكل نسبته اكثر من 55% لعام 2016 بينما القطاعات الإنتاجية الأخرى كالزارعة 6.5% والصناعة 2.1% من الناتج المحلي الإجمالي الخاص والعام.

ج. الاختلال في الميزان التجاري حيث بلغت نسبة التجارة الخارجية من الناتج المحلي الإجمالي حوالي 50% للعام 2015، في حين ارتفعت نسبة الصادرات النفطية الى 99% من اجمالي الصادرات العراقية.

د. الاختلالات في بيئة الموازنة العامة واستمرار تمويل الموازنة من الصادرات الريعية النفطية، بنسبة تصل 91%، اضافة الى طغيان القسم التشغيلي على الموازنة، حيث يصل الى 74.5%، والقسم الاستثماري لا يصل الى أكثر من 25.5%، مع عجز متواصل يصل الى 20% للعام 2017، وهذه الظاهرة أدت الى ارتفاع الدين العام.

هـ. تخلف النظام المصرفي من ناحية ادخال التقنيات الحديثة وتطوير الكادر الإداري مع التعثر في استحصال الديون والهيمنة العائلية لبعض مجالس الإدارة على ثروات المصارف الخاصة، وحرمان المساهمين الصغار من حقوقهم.

و. اتساع في الأنشطة الصغيرة التي لا تخضع لرقابة الحكومة وتعمل خارج الإطار الضريبي والقوانين، وهي لا تدخل في حسابات الناتج القومي الإجمالي، وأصبحت تسمى بالاقتصاد الرمادي، الذي يشكل ما بين 55 - 60% من مجموع النشاطات غير المسجلة.

ز. محدودية دور القطاع الخاص او توجه أنشطة القطاع الخاص نحو القطاع التجاري والابتعاد عن القطاعات الإنتاجية في مجال الزراعة والصناعة والسياحة والنقل والاعتماد على سياسة الإغراق السلعي على حساب النوعية، لتحقيق اعلى الأرباح بأقصر الأوقات، ولشراكات مشبوهة مع متنفذين في الحكومة العراقية والقوى السياسية.

ثالثا: تحديات اجتماعية وبيئية

يظهر دليل التنمية البشرية للعام 2016 ان العراق يقع ضمن تسلسل 121 من بلدان

العالم البالغ 188 دولة وهيمنة الولاءات الفرعية وارتفاع نسبة الفقر المتعددة الابعاد، إضافة الى فجوة النوع الاجتماعي التي تقوض أسس البناء التنموي وعجز الدولة عن استيعاب الشباب وتأطيرهم في الحياة العامة، خاصة الخريجين وإيجاد فرص عمل لهم. كما لم تشهد مؤسسات التعليم والتعليم المهني أية مؤشرات متقدمة، بل هناك ضعف في بناه التحتية وارتفاع في مستوى الأمية، مع تراجع مستوى الخدمات الصحية وضعف انتشارها. وقد انكشفت هذه الظاهرة في ظل وباء كورونا مع هجرة الكفاءات الطبية خارج البلد إضافة الى الضعف في تمكين المرأة من اخذ حقوقها. وفي المجال البيئي يقع العراق ضمن دائرة العلاقات السلبية بين البيئة مع التوسع العشوائي في العمران وانتشار العشوائيات حيث وصل الى 8% من مجموع السكان، وامتداد التصحر في الأراضي بسبب تجاوز السكن غير النظامي في المناطق الخضراء، إضافة الى زيادة الاعتماد على الطاقة غير المتجددة بسبب رخص أسعارها.

الخاتمة

ان الخروج من الازمة يتطلب مجموعة إجراءات في المجالات كافة، السياسية أولا، مع النية الصادقة والإدارة الحقيقية للقوة الخيرة، والدخول في جبهة انتخابية عريضة باشراك الجماهير المنتفضة والقوة الشبابية المخلصة في ظل قانون انتخابي متوازن، يعمل على الاتيان بمجلس نيابي ممثل حقيقي للشعب، بأوسع مساهمة جماهيرية، ويأتي بحكومة كفاءات مخلصة وطنية ومهنية جريئة ونزيهة، لا تخشى القوى السياسية المتسلطة، ثم التوجه نحو الإصلاح الاقتصادي والمالي، وكما يأتي:

1. ضغط النفقات العامة:

ويتم عبر تخفيض الانفاق العام الاستهلاكي والاستثماري وتقليص المساعدات الموجهة لمؤسسات ومنشآت ومصانع القطاع العام وتجميد زيادة الرواتب وإعادة هيكلتها مع إيقاف التوظيف الحكومي وحجب اغلب المخصصات العبثية وغيرها.

2. زيادة الإيرادات العامة:

وتكون عبر تقليص الدعم للمشاريع غير المنتجة وإعادة تسعير البضائع المنتجة حكوميا عبر مقياس التنافسية والربح والخسارة. وزيادة الإيرادات الضريبية خلال توسيع الوعاء الضريبي المباشر، ليشمل أطرافا أخرى ومكافحة التهرب الضريبي، وضبط المنافذ الحدودية واعمال التزوير... التي تعاني منها وابتزازات المافيات وتطبيق قانون (من اين لك هذا؟)، ومحاسبة البنوك المتعاملة في مزاد العملة واستقطاب الكتلة النقدية الصادرة والمدخرة لأغراض الاكتناز الى المصارف لتدويرها وتمويلها لأغراض الاستثمار.

3. تعزيز دور القطاع الخاص والاعتماد عليه في عملية الإصلاح واشراكه فعليا في الاستثمار الوطني. والمقصود به القطاع الخاص الأصيل، وليس الطفيلي الذي عمل على إنهاك الاقتصاد وهروب العملة خارج البلد، والعمل معه سوية على تحويل طابع الاقتصاد من ريعي الى إنتاجي في مجالات الزراعة والصناعة والنقل والسياحة والتامين وخصخصة بعض المنشآت الخاسرة مع احياء الاستراتيجيات التي وضعت في هيئة المستشارين بالتعاون مع القطاع الخاص.

التطور الاقتصادي في العراق والليبرالية الجديدة منذ 2003

د. ماجد الصوري

الدكتور ماجد الصوري خبير مالي واقتصادي، حاصل على شهادة الدكتوراه في معهد الاقتصاد الوطني في موسكو، عمل خبيرا اقتصاديا في "الاتحاد العربي للحديد والصلب"، ومدير المكتب الاقليمي في بيروت، وخبير في "الشركة العربية للتعدين" في الاردن، ومدير "مصرف البركة" في كازاخستان، وعمل مستشارا في البنك المركزي، وفي "البنك الدولي لإعادة هيكلة المصارف"، وعضو مجلس إدارة البنك المركزي.

في كتابه، "عام قضيته في العراق"، كتب بريمر عن الاقتصاد العراقي ما يلي: "كان النظام الاقتصادي الذي تبناه حزب البعث يجمع بين اسوأ ما في الاشتراكية - الايمان الطوباوي بالتوجه البيروقراطي والمشاريع التي تملكها الدولة - والفساد الذي تتميز به النظم الاستبدادية. والنتيجة هي اساءة تخصيص الموارد الرأسمالية العراقية بصورة متواصلة ومذهلة. لذا فان العراق الجديد يحتاج الى اقتصاد حديث". وهذا ما كان يردده كثيرا في تصريحاته ومحادثاته. ويظهر ان واضعي الدستور اعجبتهم هذه العبارات التي كان يرددها بريمر، فتمت اعادة صياغتها في المادة 25 من الدستور، حيث ورد فيها ما يلي: "تكفل الدولة اصلاح الاقتصاد العراقي وفق اسس اقتصادية حديثة، وبما يضمن استثمار كامل موارده، وتنويع مصادره، وتشجيع القطاع الخاص وتنميته". ان الصياغة المبهمة لهذه المادة والمتعلقة بالاسس الاقتصادية الحديثة لا توضح المقصود، ولا تحدد هوية الاقتصاد العراقي، ولا دور الدولة فيها.

بعد انتهاء الحربين العالميتين الاولى والثانية تم تبني نظم اقتصادية كلها تتكلم عن الحداثة والعمل لمصلحة المجتمع، فالنظام الاشتراكي المتمثل بدولة الاتحاد السوفياتي وبقية دول المنظومة الاشتراكية (عدا الصين) رغم الممارسات الايجابية الكبيرة والكثيرة، إلا اننا شهدنا نهاية رمزيته، بشكل موقت حسب ما اعتقد، في بداية تسعينيات القرن الماضي، وبسبب عوامل داخلية ناجمة عن سوء الادارة، اضافة الى العوامل الخارجية، وبمجمله تحول الى نظام اقتصاد السوق (الحر)، بخصائص محددة بكل دولة على حدة.

وبعد الحرب العالمية الثانية قام النظام

الرأسمالي، وعلى رأسه الولايات المتحدة الامريكية التي ظهرت قوة دولية كبرى، بتجديد نفسه باتباع نظام دولة الرفاهية الكينزية، وخصوصا في الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة، وريثة بريطانيا العظمى، التي مزجت بين تدخل الدولة والحرية الاقتصادية، وعندما برزت الولايات المتحدة الامريكية قوة اقتصادية وعسكرية عظمى، بدأت تتبنى، ومعها المملكة المتحدة، وتطبق سياسة الليبرالية الجديدة، التي اكدت على الاقتصاد الحر وخصخصة المشاريع الحكومية ومنح الدور القيادي للاقتصاد الى رأس المال الكبير، والتي فتحت بابا كبيرة امام التوسع الاقتصادي والسياسي في العالم والعولمة، عن طريق تعزيز المبادلات التجارية والاستثمارات المالية، مستغلة تفكك الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية بشكل عام.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وفي ظل الصراع بين القطبين الكبيرين الاتحاد السوفياتي، والدول الاشتراكية الاخرى، والولايات المتحدة الامريكية وبعض دول اوربا الغربية، برز نظام اقتصاد السوق الاجتماعي بطليعته المانيا الاتحادية، وبمساعدة امريكية واضحة وخطة مارشال لإعادة بناء دول اوروبا الغربية، لتكون مثالا منافسا لدول اوروبا الشرقية الاشتراكية. وفعلا حقق نجاحات كبيرة في فترة قصيرة. وكان هناك تلميح صريح من بريمر الحاكم العسكري للاحتلال في العراق حول رغبته في تقليد المانيا بالعراق، حيث كتب في نفس الكتاب: "ليس هناك لودفيغ ايرهارد في العراق. حسدت اسلافي في المانيا المحتلة لانهم وجدوا في ايرهارد - وهو موظف مدني بسيط - رجلا ذكيا في ان يصبح مهندس التعافي الاقتصادي الالماني". اما ما حدث في الواقع فهو التجاهل الكبير للطاقات العراقية في جميع المجالات الاقتصادية والهندسية والطبية وغيرها، وتم الاعتماد على المتزلفين والمتحذلقين من القوى السياسية بشكل عام، ومنحت لهم السلطة مع معرفتهم بعدم قدرتهم على تسييرها بالشكل الذي يتماشى مع مصالح الشعب العراقي.

وفي سبعينيات القرن الماضي برزت من النظام الاشتراكي السابق دولة الصين الشعبية بقيادة الحزب الشيوعي الصيني، متبنية ما يسمى باقتصاد السوق الاشتراكي، او بالاشتراكية على النمط الصيني. وهو اقتصاد قاد الى تطور الصين من دولة متخلفة فقيرة جائعة الى دولة صناعية عظمى وثاني اكبر اقتصاد في العالم. مستغلة بذلك سياسة العولمة وحرية التجارة، والحاجة الكبيرة للدول الرأسمالية، وخصوصا الولايات المتحدة الامريكية، في التوسع الاقتصادي تلبية لمتطلبات رأس المال الكبير. وفي عام 2001 انضمت الصين الى منظمة التجارة الدولية، مستغلة توجه الليبرالية الجديدة في توسيع التجارة وحرية حركة رأس المال، فنقل الكثير من الشركات الأمريكية والأوربية نشاطهم الى الصين، مستغلة انخفاض كلفة العمالة، وسعة السوق الصينية، والتسهيلات الكبيرة التي قدمتها لهم الصين. وقد اشترطت الصين في حينها، نقل التكنولوجيا وحقوق الملكية الفكرية معهم. وحاولت الصين التسلل لمعرفة اسرار حتى تلك الشركات

التي لم تنقل عملها، كما فعلت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، في خمسينيات القرن الماضي. وتقدر الحكومة الامريكية ان الحجم الاجمالي للملكية الفكرية التي "سرقتها" الصين خلال الفترة من 2013 الى 2017 فقط بحدود 1,2 ترليون دولار. وفي كتاب "حرب السرية: كيف سيطرت الصين بينما النخبة الامريكية نائمة" كتب البريغادير جنرال روبرت سبالدنغ، بعد ان ترك الجيش: "ان التهديد الصيني هو اكبر تهديد وجودي منذ الحزب النازي في الحرب العالمية الثانية، وانه اكبر من التهديد السوفياتي بكثير، وان لها القدرة على الوصول الى الحكومات والمؤسسات في الغرب بدرجة تتجاوز ما كان عليه السوفيات بكثير". كل هذا الهجوم كان نتيجة للتطور الاقتصادي الكبير الذي حققته الصين في جميع المجالات، وخصوصا في المجال التكنولوجي، وغزو الصين للأسواق العالمية شرقها وغربها، شمالها وجنوبها. ونتيجة ايضا الى العجز في الميزان التجاري بين الدولتين لصالح الصين، حيث تم رفع الحظر بين البلدين عام 1971. وكان الميزان التجاري لصالح الولايات المتحدة حتى عام 1984. وسجل اول فائض لصالح الصين عام 1985، بمبلغ 6 مليون دولار، وارتفع الى حوالي 103 مليار دولار عام 2002، والى حوالي 376 مليار دولار عام 2017. حيث وصل حجم التبادل التجاري بين البلدين الى حوالي 506 مليارات دولار. وانخفض العجز في الميزان التجاري الى حوالي 296 مليارا عام 2019، بعد الحرب التجارية التي شنتها امريكا ضد الصين.

ان النمو الاقتصادي الكبير الذي حققته الصين، بغفلة عن الولايات المتحدة الامريكية وبقية دول العالم الرأسمالي، بتطبيق مبادئ الليبرالية الجديدة (العولمة) في علاقاتها الدولية، والتي يمكن ان تبرز فيها الدور القيادي للولايات المتحدة، هو احد المتغيرات الاساسية على الصعيد العالمي، مما ادى الى اسراع الولايات المتحدة الامريكية في اتخاذ الاجراءات الحمائية في التجارة الدولية ضد الصين، وبعض الدول الاخرى، مما بيّن وبشكل مفضوح كذب الادعاءات المتعلقة بالعولمة الاقتصادية، وبالتحرر المالي والتجاري. وقد جاءت جائحة فيروس كورونا لتكشف تناقضات العالم الرأسمالي الذي تقوده الولايات المتحدة الامريكية، ونواقص وهشاشة النظام الرأسمالي العالمي، ولتعميق الصدع في مسار العولمة. ومن الممكن الاستنتاج ان العولمة الاقتصادية المنادية بسياسات التحرر المالي والتجاري قد ظهر زيفها وعقمها وافلاسها في تسيير السياسة الاقتصادية، على المستويين المحلي والعالمي، وانها كانت السبب في جميع الازمات المالية والاقتصادية والسياسية المحلية، والتي تم تصديرها الى العالم عن طريق العولمة. وان اغلب المدارس والنظريات التي برزت والمبنية على اساس الحفاظ على النظام الرأسمالي، باعتباره الحل الامثل للمشاكل الاجتماعية والتنمية الاقتصادية، قد اثبتت عدم ملاءمتها للواقع الذي تعيش فيه، او الواقع الذي تريد ان تعيش فيه اغلب شعوب العالم. وهي غير قابلة ولا قادرة على مواكبة متطلبات العصر بالسلم والعدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات. ان الاقتصاد العالمي (الحديث) الرأسمالي،

الذي تراكمت فيه الازمات وحصلت فيه الثورات الاجتماعية، لم يكن الا بسبب سياسات الليبرالية الجديدة الاقتصادية، التي بقيت متشبثة بدعم كبار رجال الاعمال والاستثمار الخاص والسوق الحر المتوحش، وتقليل او رفع الدعم عن المواد والخدمات الاساسية، وزيادة الضرائب على الطبقات المتوسطة والفقيرة، وتخفيفها عن كل الطبقة الرأسمالية الكبيرة، بحجة ان الكاس عندما تفيض لدى هذه الطبقة ستعم كل الشعب والعالم. ان المدارس والنظريات الاقتصادية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة والايادي الخفية لتنظيم الاقتصاد، لم تعد صالحة في وقتنا الذي ما زال يعاني من غياب العدالة الاجتماعية والفساد الاداري والمالي، والابتعاد عن تغطية الحاجات الاساسية للشعب. وعلى النظام الراسمالي والليبرالية الجديدة والمنظرين الرأسماليين ايجاد الحلول المناسبة للخروج من الازمات المتكررة لهذا النظام، وتطويره بما يتلاءم ومتطلبات العصر في العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات.

هذا هو الوضع الاقتصادي العالمي، وها هي الاساليب الاقتصادية الحديثة، فأي منها يريد العراق ان يتبع.

اذا ما اعترفنا بالدستور واحترمنا ضرورة تطبيقه، فان مواده المتعلقة بتنظيم الاقتصاد والمالية والمجتمع، حسب رأيي، تعزز التوجه نحو اعتماد نظام اقتصاد السوق الاجتماعي، مع الاحتفاظ بدور القطاع واهميته، فقد اكد في المادة 27 منه على: "للأموال العامة حرمة خاصة، وحمايتها واجبة على كل مواطن. على أن ينظم القانون الأحكام الخاصة بحفظ أموال الدولة وإدارتها، وشروط التصرف فيها، والحدود التي لا يجوز فيها النزول عن شيء من هذه الأموال". وبمعنى اخر، الحفاظ على القطاع العام، مع ضرورة تشجيع القطاع الخاص وتنميته. الا انه بعد الاحتلال الامريكي عام 2003 وقبل صدور الدستور، بدأ الاحتلال، ومعه معظم المؤسسات الدولية، وبعض السياسيين، والاحزاب الذين يعرفون كيف تنتهز الفرص، وبمساعدة بعض الاقتصاديين المنتفعين، الذين لم يكن من بينهم لودفيك ايرهارد العراق كما قال بريمر، بالترويج لنظام اقتصاد السوق الحر الفوضوي، والفوضى في ادارة امور البلاد، بحجة الديمقراطية، (المسلفنة)، وتطبيق سياسة الليبرالية الجديدة والعولمة. وكان الهدف الاسترتيجي للاحتلال الامريكي، كما كتب بريمر، "هو فتح الاقتصاد العراقي على العالم"، و"سنسعى الى تحرير قوانين التجارة والاستثمار في العراق". و"ان السياسة الاقتصادية في 2003 ركزت على اصلاحات لصالح اقتصاد السوق، التي يمكن ان يتم اتباعها من قبل الحكومات العراقية القادمة". واعلن الامريكان بعد دخولهم بغداد مباشرة، فتح الحدود العراقية بحجة التعويض عن معاناة العراقيين من الحصار الاقتصادي الذي فرض عليهم سابقا. واصدرت سلطات الاحتلال عطلة كمركية حتى نهاية كانون اول 2003، وامتلأت المخازن العراقية والمحلات والبسطات والشوارع بالسلع والمواد المستوردة. وبلغ حجم الاستيراد في تلك السنة حوالي 10 مليار دولار. وفي 2003/9/19 اصدرت قوات التحالف امرا بوضع تعرفة كمركية

بمقدار 5% لاعمار العراق، تفرض على كل السلع عدا المواد الغذائية والادوية والملابس. وقبلها في 2003/9/3 صدر قانون الاستثمار الاجنبي، وفتح المجال للاستثمار الاجنبي، عدا الاستثمار في قطاع النفط. وفي نفس الوقت بدأت الدعاية للخصخصة الكاملة لمشاريع الدولة، باعتبارها الطريق الامثل لتطوير الاقتصاد العراقي، والطريق الوحيد لتحقيق التنمية، وهو ما تريده الليبرالية الحديثة، فتم تأسيس هيئة خاصة لعملية الخصخصة (الغيت فيما بعد)، حتى قام البعض بالدعوة لخصخصة الصناعات النفطية. وكان على رأس المؤيدين لدعوات الخصخصة هو راس المال الكردي، الذي بدأ تكوينه بشكل كبير في بداية التسعينيات، منذ تأسيس منطقة الحظر الجوي، ومغادرة القوات العراقية لمنطقة كردستان، وابتعاد المنطقة الكردية عن سلطة الحكم المركزية، وحصول الاكراد على 13% من عائدات النفط العراقية باشراف الامم المتحدة، والحرب بين الحزبين الكبيرين هناك، وبداية تهريب النفط العراقي عن طريق كردستان، التي ادت الى تركز كبير لراس المال لدى بعض المتنفذين من الحزبين الكبيرين في الاقليم. واصبح عشرات الاشخاص من كردستان العراق يملكون الملايين والمليارات من الدولارات.

ان انفتاح السوق العراقية الذي فرضته قوات الاحتلال، تطبيقا لسياسة الليبرالية الجديدة، لقي صداه لدى الكثير من العراقيين الذين حصلوا على ثرواتهم من السرقات الكبيرة في زمن الديكتاتورية، وفي بداية فترة الاحتلال وبمساعدة قواته، وغيرها من الاساليب غير النظيفة. وقد ادرك اغلب السياسيين واحزابهم الذين تكالبوا على السلطة، وتعاونوا بشكل مباشر او ببعض من التمنع مع سلطة الاحتلال، الفرصة السانحة للحصول على المكاسب المادية من ممتلكات الدولة وثرواتها وخصوصا الموارد النفطية، عن طريق تقاسم السلطة وتوليهم المناصب الحكومية السيادية، ومن خلال العلاقات المتشابكة التي انشأوها مع جهاز الدولة وقطاعاته الاقتصادية. فنشروا التعصب للافكار الطائفية والقومية والمناطقية، وابتعدوا عن فكرة الوطن والمواطن. وبمساعدة سلطة الاحتلال معهم في هذا التوجه. وكان هذا وما زال هو السلاح المفضل لدى الفئات الحاكمة لشق صفوف الشعب وتجنيده للاصطفاف معها، وهذا يعني عزل فئات كبيرة من الشعب العراقي، من غير المؤمنة بهذه السلوكية، والابتعاد عن الاستفادة من التطورات الجديدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لصالح التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وكان اول ما قاموا به هو الوقوف ضد خصخصة الصناعة النفطية وابقوها ضمن ملكية الدولة التي هي ملكيتهم الابدية حسب ما تصوروا. وقاموا بمقاومة عملية خصخصة المشاريع الحكومية الكبيرة عن طريق وضع العقبات الكبيرة، وخصوصا بالنسبة للمصارف الحكومية، والمشاريع الصناعية الاستراتيجية. وقد ادركت الاحزاب والشخصيات المسيطرة على السلطة، بجميع طوائفها وقومياتها ان الفرصة قد سنحت لهم للإثراء السريع والسيطرة على ممتلكات الدولة العقارية، اضافة الى العقارات والممتلكات الشخصية

التابعة لرجال النظام السابق ولبعض الطوائف الدينية. وقد ساعد الوضع الجديد على عسكرة المجتمع، وتكوين التجمعات العسكرية الخاصة، التي ساعدت الى درجة كبيرة في تدعيم سلطة الاحزاب المتنفذة وفي دعم قدرتهم على جمع الاموال بكل الاساليب الممكنة، الشرعية وغير الشرعية. وحولوا الوزارات الى قلاع محصنة لذوي القربى والمناصرين لهم لتوسيع قواعدهم الانتخابية، وللوهميين، (الفضائيين)، ولمتعددي الرواتب والامتيازات، للاستفادة من الامكانيات المالية التي توفرها عن طريقهم. فارتفع عدد العاملين في الدولة من 850 الف شخص في عام 2003، الى ما يقارب 3 ملايين انسان عام 2019 (وفقا للموازنات المصادق عليها) عدا العاملين في الشركات العامة والهيئات المستقلة والعاملين بأجور او بعقود موقتة، الذين يبلغ تعدادهم اكثر من 1,5 مليون انسان. مع زيادة عدد المتقاعدين الى حوالي 3,6 مليون انسان في نهاية عام 2019. ومن الملاحظ ان عدد العاملين في الدولة يرتفع بارتفاع الواردات النفطية، وفي حالة انخفاضها يتم اللجوء الى الدين العام الداخلي والخارجي، وتكبيل الاجيال الحالية والقادمة بأعبائها واعباء خدمتها. وقد صاحب الارتفاع في عدد العاملين ارتفاع في الرواتب والاجور والمخصصات والامتيازات ببذخ، دون مراعاة العدالة في التوزيع. ولم يتركوا فرصة الا واستغلوها من اجل الاثراء السريع لهم ولمكوناتهم. واعتبروا التقرب من هذه المصالح خطا أحمر، لا يجوز المساس به او تخطيه. وقد ادى ذلك الى زيادة الطلب على السلع والخدمات الى درجة كبيرة.

إن الضعف الشديد لرأس المال الوطني للقطاع الخاص الصناعي والزراعي، والتعمد في عدم تنميته وتشجيعه، وتجاهل هيكلة وتطوير القطاع العام الانتاجي والخدمي من قبل السلطة السياسية، ادى الى تدهور مستمر في العملية الانتاجية، وتعزيز التوجه نحو الاستيراد، فقد ارتفعت استيرادات العراق من السلع، الحكومي والخاص، وحسب احصائيات البنك المركزي المستقاة من نشرات صندوق النقد الدولي، بعد مقارنته مع المعلومات الاخرى، من حوالي 10 مليار دولار عام 2003 الى 45,2 عام 2010 والى 61,3 عام 2014، وعندما انخفضت العائدات النفطية انخفض حجم الاستيراد الى 34,2 في عام 2016، وعاد وارتفع الى 45,7 عام 2018. لقد بلغ اجمالي الحجم الكلي للاستيرادات للاعوام 2003 - 2018 بحدود 625 مليار دولار، فاذا ما علمنا ان ارباح هذه التجارة تتراوح بين 20 و25%، وحتى اكثر، فان حجم الربح المتحقق خلال الفترة يتراوح بين 125 و156 مليار دولار. كل هذه الاموال تراكمت لدى التجار والمرتبطين معهم من السياسيين والاداريين في الجهاز الحكومي. هذا مع العلم ان الارقام المذكورة لا تشمل استيرادات العراق من ايران، ولا تشمل الاستيرادات غير المنظورة التي تتمثل بالسياحة والسفر الى الخارج من اجل العلاج. وقد تراوحت استيرادات العراق من ايران، طوال الفترات السابقة، حسب بعض المعلومات، بين 6 و14 مليار دولار. اما الاستيرادات غير المنظورة خلال نفس الفترة، فقد تراوحت بين 2 الى 10 مليار دولار سنويا (معلومات غير متكاملة). وفي

نفس الوقت توجهت الكثير من الفوائض المالية المتراكمة لدى هذه المجموعات الى القطاع المالي والمصرفي. في عام 2004 كان عدد المصارف 26 مصرفا، منها 7 مصارف حكومية، بلغ اجمالي رأسمال جميع المصارف 37,7 مليار دينار في الاول من كانون الثاني 2004. وفي عام 2010 بلغ عدد المصارف الاهلية 36 مصرفا، وارتفع عددها الى 70 مصرفا عام 2020 عدا الحكومية. اما اجمالي رؤوس اموال المصارف، فارتفع الى 2391 مليار دينار عام 2010 والى 15401 مليار دينار عام 2020, منها 3401 مليار دينار للمصارف الحكومية. لقد كانت هذه المصارف عاملا مهما للكسب غير المشروع للمتنفذين فيها، وخصوصا من العمليات المالية المتعلقة بالتجارة الخارجية، التي ساعدت الى درجة كبيرة في تراكم اكبر لرأس المال، لدى الفئات السياسية المرتبطة بهذه المصارف.

وفي نفس الوقت تم الضغط على الانتاج المحلي بكل الوسائل المتاحة، من التهريب عن طريق المنافذ الحدودية الرسمية وغير الرسمية، والتي لا سيطرة للدولة عليها وبشكل متعمد، وتغييب البنى التحتية، وبالذات الطاقة الكهربائية، الحجر الاساس في التنمية الاقتصادية والاجتماعية. لقد قامت الحكومات المتعاقبة بانفاق مبالغ كبيرة لزيادة الطاقة الانتاجية لشبكة الكهرباء الوطنية، الا انه وحتى هذه اللحظة لم يتم حل هذه الاشكالية، التي تسببت في الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، وعرقلت عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة بسبب المصالح الذاتية لراس المال التجاري والمالي، والمصالح الذاتية لبعض المتنفذين للحصول على المكاسب المالية التي يحققها اصحاب المولدات التابعين لهم. لقد تم تنفيذ المادة 25 من الدستور المتعلقة بتنمية القطاع الخاص عن طريق تنمية القطاع الخاص التجاري والمالي، المنتج الاسرع والاقل خطورة لتراكم راس المال لدى هذه المجموعات المتنفذة سياسيا. ان التوسع الحكومي في الانفاق غير الانتاجي قد حفز المزيد من الاستيراد وحرم الاقتصاد المحلي من فرصة تلبية الطلب المتزايد. وبالرغم من ان البلطجة والحروب والعصابات والاستغلال والفساد والنهب والجريمة وتجارة المخدرات، كانت الاساس في بداية تراكم رأس المال في اغلب الدول الرأسمالية، وخصوصا الولايات المتحدة الامريكية، (وهو ما حدث في العراق بعد عام 2003). الا ان تركز وتراكم راس المال في تلك الدول كان يستغل في النتيجة النهائية في العملية الانتاجية وتطوير الصناعة والزراعة والخدمات. اما في العراق فقد ادى تركز راس المال، ونتيجة للمصالح الانانية والارتباطات الخارجية، الى هجرة جزء كبير من راس المال الى الخارج او توظيفه في العقارات، او تلبية طموحات استهلاكية او طموحات شخصية اخرى، او تلبية منافع سياسية محلية او اقليمية. وبذلك اخذ الفائض الاقتصادي، بشكل عام، يتجه نحو الانفاق الاستهلاكي وليس الانتاجي. واصبحت هذه الفئات المسيطرة على السلطة، تكتفي بالحديث عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ووضع الاستراتيجيات والخطط المختلفة، دون تطبيق يذكر. ان اعتماد الاقتصاد العراقي

بشكل شبه متكامل على تغطية حاجاته الاستهلاكية من السلع والخدمات على الاستيراد، وعلى احادية موارده الريعية التي تعتمد على التغيرات في اداء الاقتصاد العالمي، قد وثق ارتباطه الى حد كبير بالاقتصاد العالمي واقتصاد دول الجوار. وسرعان ما انعكست عليه الازمات العالمية وازمات الدول الاقليمية، وكان تأثيرها الاكبر على فئات المجتمع محدودة الدخل. ان عدم تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ليس من صالح جميع الفئات، بما ذلك الفئات المسيطرة على السلطة والمرتبطة بها. فقد ادى ذلك الى زيادة افقار الجماهير. ان النظام الريعي في العراق الذي تمثل فيه الحكومة ومؤازريها سلطة اقطاعية معزولة عن التطور، طفيلية، مبددة للموارد المالية والبشرية، اصبحت سببا في انتاج الفقر والتخلف. لقد اصبحت السلطة عائقا كبيرا ومعرقلا اساسيا لعملية تحديث الاقتصاد، كما نص عليه الدستور لتحقيق التنمية الاقتصادية المستدامة. حيث اصبح الفساد السمة الغالبة لها، واحد اهم العقبات امام التنمية المستدامة. وعمل على توسيع دائرة الفقر، وتخريب مؤسسات الدولة، وتخريب المجتمع وتفرقته، وعلى التجاوز على الانظمة والقوانين، وشرعنة قوة السلاح المنتشر خارج اطار الدولة، والعمل على حماية مصالحها من اجل اضعاف هيبة الدولة وقدرتها على التحكم بالامور. ان الفئات التي طرحت نفسها سلطة على العراق، اصبحت جزءا من الازمة الفكرية لتنظيم الاقتصاد وتحقيق التنمية، بسبب تقلبها وتذبذبها في اتخاذ القرارات الاقتصادية، التي عكست عدم وحدتها وتناقضاتها وتفرقها الى اجنحة مختلفة متناقضة مع بعضها، سواء على شكل مجموعات متنافرة، او قيادات نالت نصيبها من الثروة والجاه. وهذا ما كان يهمها من نضالها السياسي والفكري، حيث تركت قواعدها وجماهيرها والشعب العراقي والعراق وغادرت العمل السياسي مكتفية بما نالته من ثروة وجاه وسلطة مالية. ولذلك فان هذه السلطة ضعيفة ومنخورة، وسهل التخلص منها ومن سلبياتها، اذا ما تمت زيادة الضغط الجماهيري عليها، ونشر عيوبها وفضح فسادها، والاصرار على تطبيق القوانين، والعمل على قانون من اين لك هذا.

ان الاقتصاد العراقي بعد كل ما مر به من حروب وانتكاسات وسوء ادارة، يعتبر اقتصادا متخلفا، تم تأسيسه على نظام اجتماعي غير مترابط ومتعدد الاتجاهات. ان الشعارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والمذهبية التي يتم رفعها من قبل المستولين على السلطة، ما هي الا معارك جانبية يتم الهاء الشعب بها. الا ان مضمونها واهدافها تبقى اقتصادية مالية صرفة، بغرض السيطرة على الاموال العامة، وخلق بيئة مناسبة للاستمرار في الصراع المذهبي القومي الطائفي، لإبعاد الشعب عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي يعيش فيه. ولذلك يجب النظر الى الاقتصاد العراقي واصلاحه من منطلق تفكيك المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها، واختيار الطريقة المناسبة للتعامل معها، وليس من منطلق نظريات قائمة تم وضعها على اسس وواقع اقتصادي لمجتمعات تطورت في ظروف تاريخية

معينة، وفي مجتمعات تختلف في بيئتها ونشاتها وعاداتها وتقاليدها وسلوكياتها الاقتصادية. فلكل نظرية ثوابتها ومتغيراتها التي تخص مجتمعا معينا وحالة معينة. وعلينا ان نجد آلية تنمية اكثر ملاءمة وكفاءة للمجتمع العراقي. ولذلك لا بد في البداية من وضع الاسس اللازمة لتحقيق عملية التنمية المستدامة. ان التناقضات التي يعاني منها العراق كبيرة وكثيرة، سببها الاساسي هو سيطرة المصالح السياسية والمنافع المادية الضيقة. ان الارباك الموجود في العراق هو وجود الكثير من المتضادات. متضادات بين الديمقراطية وانتشار السلاح وعسكرة المجتمع، بين المركزية واللامركزية وتعدد مراكز اتخاذ القرار، بين حكم الدين والشريعة واستقلالية الدولة عن الدين، بين سيطرة الاستيراد والتنمية الاقتصادية المستدامة، بين دور القطاع الخاص والقطاع العام، بين التوسع في دور الحكومة في الاقتصاد والليبرالية الجديدة واقتصاد السوق غير المنضبط. وغيرها من المتناقضات والتضادات الكثيرة. ان المجتمع العراقي يجمع بين المظاهر القديمة والحديثة، بين التخلف والحداثة، بين الاتكالية على الدولة وحرية العمل في القطاع الخاص. ان النفسية العامة للشعب العراقي هي التمسك بالقطاع العام وتقديم الخدمات من قبل الدولة. ولم تستطع الحكومات المتعاقبة منذ عام 2003 وحتى الان من تغيير هذه النفسية وهذا التوجه العام. ويمكن الاستفادة من هذا التوجه، في دعم القطاع العام وتعزيز دور الدولة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتقديم الخدمات في جميع المجالات، باعتبارها المالك الاكبر للثروة الاقتصادية في العراق وصاحبة اكبر رأس مال. وفي نفس الوقت تطوير وتنمية القطاع الخاص الوطني والمنضبط، مع تنظيمه بالشكل الذي يحصل العاملون فيه على جميع الامتيازات التي يحصل عليها العاملون في القطاع العام والجهاز الاداري الحكومي، واعني بذلك نظام التقاعد والضمان الاجتماعي والصحي، وغير ذلك من الخدمات التي تشمل القطاعين العام والخاص. وفي اعتقادي ان هذه افضل آلية للتنمية في العراق والاكثر ملاءمة وكفاءة للمجتمع العراقي. وهي الفرصة الاكثر حيوية لتحرير العراق من الاعتماد على الريع النفطي. ولذلك لا بد من استخدام ادوات المالية العامة، الموازنة العامة والسياسة الضريبية والنظام المالي، لتحقيق التوازن في الاقتصاد، والتوزيع واعادة التوزيع العادل للدخل، والتوسع في تقديم الخدمات العامة، ما يساعد على استعادة الثقة بالدولة ومؤسساتها. ان الشروط الاساسية لتحقيق ذلك تكمن في محاربة الفساد والبيروقراطية والقضاء على الترهل في الجهاز الاداري وتعدد اتخاذ مراكز القرار الاستراتيجي، والشفافية في جميع الفعاليات المالية والاقتصادية. والتخلص من جميع السياسات الاقتصادية والقرارات التي ادت الى المزيد من الازمات الاقتصادية والمالية، وتعميق الخلل الاقتصادي والاجتماعي وتزايد المشاكل والاحتجاجات الشعبية.

حزيران 2020

تواصل (الثقافة الجديدة) رصد انتفاضة تشرين 2019 ومتابعة تحولاتها والقوى المنخرطة فيها ومساراتها. وننشر في هذا العدد اربع مساهمات جديدة تقارب الانتفاضة من زوايا مختلفة. وسيبقى ملف الانتفاضة مفتوحا لمساهمات جديدة في الاعداد المقبلة.

ثورة تشرين.. رهانها وأفقها السياسي

حيدر سعيد
باحث وكاتب عراقي

لم تنفك ثورةُ تشرين في العراق، منذ أن تحوّلت من كونها حركةً احتجاجية ذات طابع مطلبي إلى أن تكون حركة واسعة تستهدف إسقاطَ النظام القائم أو إجراء إصلاحات جذرية فيه بما يسمح بولادة نظام بديل (وهو ما أطلق عليه "ثورة")، عن التفكير بآلياتها الداخلية التي توصلها إلى الهدف، والعوائق التي تقف دون ذلك، فلم يعد التفكيرُ ينحصر بهدف إسقاط النظام، وقد بات هذا الهدفُ مفروغا منه، وبمنزلة تحصيل الحاصل، بل باتت الأسئلةُ عن الخطوة اللاحقة، وعن سبل تطوير العمل الاحتجاجي، وكيفية إخراج نهاية الثورة، والمسارات السياسية المصاحبة والموازية لذلك، وما إلى ذلك من أسئلة تدور في هذه الدائرة، هي الأسئلة الأكثر حضورا.

وبلا شك، هذه الأسئلة هي الأهم في صناعة مسار الثورة من سواها. ولا تختلف الثورةُ في ذلك عمّا سبقها من ثورات في العالم، حدّدت مساراتها، ورسمت مخرجاتها، وحتى رموزها، وأيقوناتها، وقادتها، أسئلة على هذه الشاكلة. وما حصل لثورة تشرين شيء من هذا، فالقادة الذين أفرزتهم الثورة هم الذين أطلقوا مبادرات لإدارة آلياتها الداخلية، بما يوصلها إلى أهدافها، وليس الذين صاغوا رؤيتَها وأهدافها.

وإذا كان التفكير في الآليات الداخلية للثورة تحركه رغبة في نجاح الثورة (أي أن تبلغ أهدافَها)، فإن نجاح الثورات لا يتوقف على تماسكها وآلياتها الداخلية، التي - على أهميتها البالغة - لا تمثل سوى عامل واحد فقط، ففي لحظات محددة، ومواضع محددة، يكون لعوامل أخرى القول الفصل في نجاح الثورات، كالعوامل الخارجية والإقليمية، وتركيبة الأنظمة نفسها، وسوى ذلك. غير أن قوى الثورة لا تستطيع إلا إدارة الآليات الداخلية والتفكير فيها، فليس في مقدورها ترتيب وإدارة كم كبير من المتغيرات، يقع خارج نطاق سيطرتها.

وإذ تفتقد الثورةُ إطارا تنظيميا، أو قادة، أو أحزابا قائدة، باتت الأسئلةُ عن آلياتها الداخلية أسئلةً عامة، تشغل كل المعنيين بشأنها، على اختلاف مواقعهم ومدى إسهامهم فيها، المحتجين الفعليّين على الأرض، وداعميها من خارج الميادين، الذين لم ينخرطوا - بالضرورة - في الفعل الاحتجاجي المباشر، ولكنهم لا يجدون

أنفُسَهم بعيدين عن مطالب الإصلاح السياسي. ولذلك، هم يعملون على أن تبلغ الثورةُ هدفَها، كل بقدر ما يملك، ومن حيث يكون.

الثورة حالةً لا غاية

ترتبط الأسئلة عن الآليات الداخلية للثورة بالمخاوف العامة المحيطة بها. وبكلمة، هي الوجه الآخر للرغبة في نجاحها، هي ما يمكن أن نعبّر عنه - في هذا الموضع - بأنها الخوف على الثورة من أن تذوي قبل أن تبلغ هدفَها. وبالتأكيد، كان الخوف على الثورة، في كثير من اللحظات، أعلى وأكثر وضوحًا من الرغبة في نجاحها. وستشرح الفقرات اللاحقة ذلك.

كانت ثمة حزمة من المخاوف التي تحيط بثورة تشرين، منها أن تقود الثورة - بشكل من الأشكال وباستغلال ودفع من قوى مختلفة - إلى أن تنزلق البلاد إلى أعمال عنف، بالكاد برأت منه، ومنها أن تُحبَس الثورةُ في إيقاع محدد، يقضي عليها، غير أن الخشية الكبرى كانت تتمثل - دائما - في أن "زخم الاستمرارية" مهدَّد، بمعنى أن الثورة ستتوقف - في لحظة - عن إبداع فعل احتجاجي على الأرض يهدد النظام، وهو الأمر الذي سيجعلها تذوي، فمن دون الاحتجاج على الأرض، لن يكون مفيدا التضامن العام والداعم للثورة، في أي مكان، وبأية وسيلة كانت.

لعبة الوقت هذه يدركها النظام، ويلعب عليها لاستنزاف زمان الثورة، ولا سيما إن شرائح مجتمعية عدة - منها من يتضامن مع الثورة ويعمل على إنجاحها - تحس بالحاجة إلى أن تعود الحياة إلى طبيعتها، فتنتهي الاعتصامات، والإضرابات، والإغلاقات، وتستأنف الدراسة، والأسواق، والأعمال.

غير أن الثورة مفاجأة مستمرة، فقد كانت تمضي في طريقها بإصرار، بعد كل لحظة، كان يبدو فيها أنها ستقلب صفحتها الأخيرة، وقد ووجهت بعنف غير مسبوق، من اغتيال للمئات من شبابها، واعتقال، وتغييب، وترهيب، وتنكيل.

كان يحفّ بكل ذلك شعور يصل إلى حد العدمية: ليس ثمة ما نخسره، إذا استمرت الثورة، أكثر مما خسرناه، وما يمكن أن نخسره وننزفه في حال بقي هذا النظام. هذه العدمية المرافقة للثورة هي التي خلقت التصورَ بأننا أمام نمط جديد من الثورات: ثورات طويلة، لا تحقق هدفها - بالضرورة - في أسابيع قليلة، ولا تتوقف إذا لم يتحقق هدفها، على نحو عاجل.

ومع ذلك، لم تتحول الثورةُ إلى غاية، بل أصبحت "حالة"، عَبُرت هدفَ إسقاط النظام، وأصبحت فضاءً، يكتشف فيه جيل جديد (وشعب بأكمله) معنى الوطنية العراقية، ويعيد بناءها. وما تصنعه هذه الحالةُ الثورية أهم بكثير، بلا شك، من المسار السياسي الذي ينضج ببطء، ليصنع - في النهاية - لحظةَ تحول كبير.

وفي الحقيقة، أن تحول الثورة إلى حالة، تجوس عقدا تاريخية مركّبة، كان أحد العوامل الأساسية التي أعطتها هذا النفَس الطويل، أبعدَ من الهدف المباشر بإسقاط النظام.

طولُ الثورة هذا، وقد أصبحت حالة أكثر مما هي ديناميكية تغيير سياسي سريع، ومن ثم، بطءُ المسار السياسي في صناعة لحظة التحول، كان يزامنه ويرافقه (ويدعمه) أن

الأغلبية من العراقيات والعراقيين ليسوا مع الخيار التصفيري. أي خيار الإسقاط الكامل للنظام وبناء نظام سياسي جديد وعملية سياسية جديدة، من الحجر الأول. ومع أن هناك رؤية تنتشر بين بعض المحتجين بضرورة إسقاط النظام القائم، وبناء نظام جديد من الصفر، ثمة - في المقابل - خشية غالبة مما يمكن أن يؤدي إليه التصفير من عودة التجمع في إطار الهويات الإثنية والطائفية لتحقيق المكاسب السياسية، ومما يمكن أن يفضي إليه هذا من عنف، إذا افتقدت البلاد إلى ناظم يوجّه عملية الانتقال نحو النظام الجديد وبنائه. ولا تزال ذاكرةُ تجربة ما بعد 2003 شاخصة، إذ انتهى سقوطُ الاستبداد إلى حرب أهلية (2006 2008)، مع وجود ناظم خارجي فرض قواه المسلحة في الأرض، وهو الولايات المتحدة. وفوق كل ذلك، لا أحد يملك ضمانة بأن العودة إلى النقطة صفر ستقود إلى نتائج أحسن مما آلت إليه الأمور، منذ 2003 وإلى هذه اللحظة.

ولذلك، كانت ثمة رؤية دائمة بأن الحل يمكن أن يأتي من المسار السياسي القائم.

من هنا، كانت الرؤية الأهم التي بنتها الحركة الاحتجاجية، منذ مبتدئها في مطلع تشرين الاول/ أكتوبر 2019، هي رفض الإصلاحات "الترقيعية"، بفهم أن سائر دعوات الإصلاح التي صدرت عن نظام ما بعد 2003 وسائر ما قام به من إجراءات، لا يمس ولا يستهدف المكامنَ البنيوية التي قادت إلى عطب النظام.

وفي تقديري، أن "الإصلاحات"، التي كان يبادر إليها النظام (منذ 2010، في أقل التقديرات)، إنما كانت تستهدف احتواءَ الضغط الاحتجاجي، ومن ثم، "ديمومةَ النظام"، ببنيته القائمة أساسا.

إن هذا كله يعني أن نقد "الإصلاحات الترقيعية" كان يتضمن - إلى حد كبير - قبولا بمبدأ "الإصلاح"، على أن يكون بشكل آخر، جذريا، غير ما مارسه نظام ما بعد 2003. وما أفكار "الانتخابات المبكرة"، و"إصلاح القانون الانتخابي"، و"إصلاح مفوضية الانتخابات"، التي تبناها طيف واسع من المحتجين، إلا أفكار للعمل من داخل النظام القائم، لا بنقضه وإنكاره ونسفه. ولكنها أفكار ذات طابع جذري، تمس بنى مؤسسية أساسية، تسهم في تشكيل النظام.

وقد تبنت أركان مهمة داخل النظام مثل هذه الأفكار، ما يعني أن النظام نفسه (أو جزءا منه) يؤمن بأن حل أزمته لا يكون إلا بإصلاح بعض مفاصله وتغييرها. وقد كانت لحظة استقالة حكومة عادل عبد المهدي، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019 تحت ضغط الاحتجاجات، هي اللحظة الأهم في هذا المجال، فمعها، أصبحت قوى السلطة أمام خيار، لا فقط تقديم رئيس وزراء مقبول - بدرجة ما - من الشارع والحركة الاحتجاجية، بل كذلك فتح مسار لحكومة انتقالية، وإجراء انتخابات مبكرة، وتعديل قانون الانتخابات، وتغيير مفوضية الانتخابات. وهي مطالب تبنتها أركان أساسية في منظومة السلطة.

وبلا شك، أن هذه المنظومة، بحد ذاتها، بما تضمّه من أحزاب، وتنظيمات، ومؤسسات، وزعامات، هي أهم عائق أمام الإصلاح، وهي - في الحقيقة – ما تريد الحركةُ الاحتجاجية الخلاصَ منه لبناء نظام

جديد. هذا فضلًا عن أن أطرافا مهمة في هذه المنظومة تملك إرادةَ القتل وأداته، وقد طبّقت ذلك في مواجهتها للحركة الاحتجاجية القائمة، ولا يملك أحد – في المقابل - القوةَ لإقصائها، كما حصل مع نظام البعث، الذي فكّكته أعتى قوة عسكرية في العالم.

ومع ذلك، أن "غريزة البقاء" لدى النظام، وشعوره بأنه مهدَّد باحتجاجات يمكن أن تنفجر بأية لحظة، يشكلّان لحظة سياسية مفصلية، لا ينبغي أن تمضي من دون أن تُستَغَل لإجبار النظام على القبول بإصلاحات جذرية، تحت وقع الاحتجاجات المستمرة.

ثورة الإصلاحات الجذرية

أنا أصف، هنا في الحقيقة، الطرقَ والخلفيات التي قادت إلى رسم الملامح السياسية للثورة، فقد أسهم كل هذا - الموصوف في ما تقدم - في صناعة الأفق السياسي لثورة تشرين: أن يسهم الضغط الاحتجاجي، الطويل والمتواصل، في بناء مسار سياسي، يفضي إلى تعديلات جذرية في النظام، بما يجعل منه شيئا (نوعا) آخر.

وعلى الرغم من شعار "إسقاط النظام"، الذي يُرفَع في الثورة، هنا وهناك، وبين آونة وأخرى، ثمة قبول ببقاء النظام إطارا، وإنما الأملُ الأكبر في إصلاحه إصلاحا جذريا. وهذا ما تكشفه وثائق الثورة[1]، التي تعترف بالمؤسسات القائمة ولا تتنكر لها. ويدخل في هذا الأمل، ترقب ما إذا كانت مخرجات المسار السياسي (تشكيل حكومة جديدة بعد استقالة الحكومة السابقة، وتشكيل لجنة لتعديل الدستور، وإجراء تعديلات على قانون الانتخابات،..) ستقود إلى إصلاحات جذرية.

وإذا كان لنا أن نستعمل تعبير "إعادة بَنْيَنَة" لوصف هذه العملية، فإنها ينبغي أن تتضمن أمرين: الاستمرارية مع النظام القائم (القديم)، بغض النظر عن شكل هذه الاستمرارية وقَدْرها، والانطلاق منه لصناعة بنية جديدة.

وهذا يعني أن ثمة ثلاثة مكوّنات أو مفاهيم تشكل الأفق السياسي للثورة ومسار الانتقال إلى نظام جديد:

- الاحتجاجات الطويلة والمتواصلة،
- والمسار السياسي الذي يكون هدفه، الأول والأخير، إصلاح النظام السياسي،
- والطابع الجذري لهذه الإصلاحات.

هذه المفاهيم الثلاثة متراكبة ومترابطة، ولا يمكن أن تستوي الثورةُ ومسار الانتقال إلا بها جميعا.

والوعي بهذا الترابط مهم جدا، فثمة خشية محيطة بالثورة من أن تؤدي فكرة الانطلاق من النظام القديم لإصلاحه، والرغبةُ العارمة بدرء المخاطر التي قد تنزلق إليها الثورة، إلى نوع من "الحلول" المتعجّلة، التي لا تنهي أزمة النظام.

ولا يمكن أن يكون ثمة حل من دون تفكير جدي بعمق الأزمة، من حيث هي أزمة نظام، وليست أزمة أشخاص، أو سياسات. والانفجارُ الذي حدث يمكن أن يتكرر في أية لحظة قادمة، ما لم تُعالَج جذوره.

ومن ثم، ينبغي أن تكون النزعة "الجذرية" حاضرة في أي تفكير بمصير النظام السياسي.

في قراءته لثورات الربيع العربي، يحدّد عزمي بشارة هذه الثورات بأنها كانت

"ثورات إصلاحية". وهو يستعمل هذا التعبير، الذي يبدو أنه يجمع بين ديناميكيتين مختلفتين، "ثورة" و"إصلاح"، في الإشارة إلى التجارب الناجحة في الثورات العربية، التي كان من سماتها أنه كان للنظام القديم (أو جزء منه) دور في عملية الانتقال[2]. ويمكن القول إن نجاح هذه التجارب إنما بُني على صفقة مع النظام، شكّلت نقطةً مفصلية في مسار هذه التجارب. والمثال الأهم، هنا، تجربة تونس، التي مرّ الانتقال بها بأزمة في العام 2013، جرى تجاوزها من خلال ما عُدّ صفقة مع النظام القديم، هي التي أرست تجربةَ الانتقال وأسبغت عليها الديمومة والثبات. وبهذا المعنى، يكون الانتقال أشبه بعملية إصلاح داخل النظام القديم، طويلة ومعقدة وجذرية وهيكلية.

وعلى نحو عام، أن واحدا من أهم الدروس التي قدّمتها تجربةُ الربيع العربي أنه لا يمكن لعملية الانتقال أن تمضي من دون أن يكون ثمة موقع للنظام فيها، بمعنى أن النظام هو أحد الفواعل الأساسيين والمؤثرين المهمين في هذه العملية، وهو يسهم في تحديد مخرجات هذا الانتقال، إلا في حالة قد تكون استثنائية، وهي أن تعمل قوة خارجية على تفكيك النظام بشكل كامل، كما حصل في حالة نظام صدّام، فلا تبقى لأي جزء فيه إمكانية الحركة أو الفعل السياسي. وفي العادة، حتى مع الثورات التي تطيح بالأنظمة، تبقى أجزاء من هذه الأنظمة قائمة، إما بشكل مشرعن ومعترف به في النظام الجديد، أو بشكل وحدة متماسكة وقادرة على الفعل. وقد تكون أجزاء النظام هذه مؤسسةً عسكرية (كما في حالة مصر)، أو حزبا، أو جهازا بيروقراطيا، أو نخبة سياسية (كما في حالة تونس)، أو مؤسسات، أو سوى ذلك.

ومن ثم، يكون السؤال هنا ذَا شقين: كيف يخطّط النظامُ للمرحلة الانتقالية؟ وكيف يرى دوره فيها؟ والشق الآخر، وهو الأهم، كيف تدير قوى الثورة والقوى الفاعلة في المرحلة الانتقالية التعاطي مع النظام؟ وكيف تتعامل معه؟

وهذان العاملان (تصور النظام القديم وخططه لدوره في المرحلة الانتقالية، وإدارة العلاقة مع النظام) هما العاملان الأساسيان اللذان سيحددان نجاحَ الانتقال من عدمه.

وبالفعل، كان للنظام، في حالات الانتقال العربية، دور حاسم في صياغة التغيير، بدءا من دور الجيش في تونس ومصر في إجبار بن علي ومبارك على الرحيل، وانتهاء بإسهام الجيش السوداني، في ثورة كانون الأول/ ديسمبر 2018، في الإطاحة بعمر البشير، تحت ضغط الثورة.

إن التفسير الأكثر قبولا من المختصين لفشل الانتقال الديمقراطي في مصر بعد ثورة يناير 2011 يرتبط، من بين أسباب عدة، بفشل قوى الثورة في عقد صفقة مع النظام، وهو ما قاده (ممثّلا بالمؤسسة العسكرية) إلى الانقلاب، في حين أن تجربة الانتقال في السودان قد يكون لها مصير مختلف وتمضي باتجاه معاكس، بسبب الاتفاق بين القوى الأساسية في الثورة والمؤسسة العسكرية (التي حكمت السودان من 1989 - 2019) على الشراكة في إدارة المرحلة الانتقالية.

إن هذه السمة التي طبعت تجربةَ الانتقال في البلدان العربية (موقع النظام القديم داخل

عملية الانتقال) ستجعلها شبيهةً بتجربة الانتقال في أميركا اللاتينية في السبعينيات، التي حدث الانتقال فيها بعد أزمة سياسية، قادت إلى انشقاق قوة من داخل النظام لتعقد صفقة مع المعارضة، ومن ثم، حدث الانتقال من خلال صفقة، بين معتدلي النظام ومعتدلي المعارضة.

وفي الحقيقة، أن استحضار تجربة أميركا اللاتينية، هنا، لم يكن من جهة كونها حالة يمكن استعمالها لتقريب توصيف الحالة العربية، بل لأن هذه التجربة أصبحت نمطا انتقاليا (على المستوى الدراسي)، أنتجت دراستُه مجموعةً من المفاهيم النظرية في دراسات الانتقال الديمقراطي، التي جرى تجريدها واستخلاصها منه، وهي مفاهيم يمكن استعمالها بوصفها أطرا منهجية. وفي صدارة ذلك، مفهوم "الصفقة"، أو "الميثاق" (Pact). وهذا يعني أن الأمر يتعدى، هنا، المقارنة المنهجية، ليصل إلى التوظيف المفاهيمي.

التفاوض على الإصلاح

الأفق الذي تمضي إليه ثورةُ تشرين، إذن، هو الإصلاحات الجذرية؟

ولكن، ما هذه الإصلاحات الجذرية؟ ما الجوهري والأساسي في هذه الإصلاحات؟ وما الهامشي والثانوي؟

لقد اعترفت الطبقة السياسية نفسها (أو جزء منها) بالحاجة إلى الإصلاح، وأنها تريد حلا سلميا للأزمة، "خشية من أن تنزلق البلاد إلى أعمال عنف"، بحسب ما تدّعي. ومن هذا الإصلاح، الذي اعترفت به ودعت إليه، ما هو جذري وبنيوي، من قبيل إجراء تعديلات دستورية، وإصدار قوانين أو تعديلات على قوانين ذات صلة بهيكل النظام السياسي.

وفي الحقيقة، ليس ثمة اتفاق على مفهوم "الإصلاحات الجذرية"، من أين يبدأ الإصلاح؟ وأين يقف؟ أو ينبغي له أن يقف؟

وبسبب هذه "اللاتحديدية"، سيتشكل مجال للتفاوض (وللتنازع أيضا) على تحديد ما ينبغي إصلاحه في النظام، بين قوى السلطة وقوى الثورة.

وستتخلق مخرجات الثورة، من ثم، من تقاطع مسارين: الديناميكية القائمة داخل العملية السياسية الحالية وطبقتها السياسية، بما أعلنته من تغييرات ومشروع تعديل للدستور وقوانين جديدة، بما فيها القانون الانتخابي، وكذلك ما سيفضي إليه الجدل داخلها، والحراك الثوري.

وهذا هو معنى ما نقوله: إن الانتقال لا يتحقق إلا من خلال موقع النظام داخله، والدور الذي يؤديه فيه.

وهذه هي، بالأحرى، صفقة الانتقال في الحالة العراقية.

غير أن الحالة هذه، والكيفية التي تموقعت بها قوى الثورة وقوى النظام من عملية تفاوضٍ (وانتقال) طويلة، وعدم وضوح ويقينيةِ المخرجات، التي سيرسمها - في النهاية - نضالُ كل طرف من أجلها، تلك الأمور كلها ستصنع استراتيجيات مختلفة ومتعارضة، ستؤثر في عملية الانتقال.

وفي تقديري، وبما يمكن أن نستنتجه منطقيا، ستكون الاستراتيجية الأساسية التي تعتمدها قوى السلطة خلال هذه العملية هي تحجيم ما يمكن أن تضحي به، وما يمكن أن تحصل عليه قوى الثورة. وستستعمل في

سبيل ذلك مجموعة من الأدوات، لن تقف عند التلاعبات السياسية، أو تحريك الشارع المضاد للاحتجاجات، وهو - في العادة - جزء من الشبكة الزبائنية للنظام، بل سيكون العنفُ إحدى أدوات السلطة الأساسية. ومع أن للعنف الذي استعملته قوى السلطة خلال الثورة وظائفَ (ومعانيَ) مختلفة، تغيرت مع تطور الثورة وما فرضته من مسار سياسي، بات كَوْنُه أداةً تفاوضية (أو أداة في النزاع) هو وظيفته الأولى والأهم، ولا سيما بعد أن لم يعد بإمكان هذه القوى القضاء على الثورة، وأصبح من المحتم على النظام السياسي أن يجري تعديلات (إن لم نقل إصلاحات) بتأثير الاحتجاجات ومطالبها.

وفي النتيجة، لا تدل هذه الاستراتيجية فقط على عدم إيمان قوى النظام بالإصلاح، بل إنها تكشف أنها تريد أن تجعل توازنات القوى خلال عملية التفاوض على الإصلاح، مسارا لاستعادة (وفرض) فكرة الإصلاحات الترقيعية، التي ما فتئت تقدمها.

وفي المقابل، لا ينبغي لقوى الثورة أن تغادر الإيمان بأن جذرية الإصلاح ستضعف ولن تكون نتيجة أكيدة، إذا ضعف الزخم الثوري، وأن المسار السياسي - من ثم - لا يمكن أن يمضي وحده من دون هذا الزخم، وأن الثورة (بما تعنيه من احتجاج مستمر) هي الأداة (أداتنا) الوحيدة للوصول إلى عراق آخر.

الهوامش

1- في كل الأحوال، تعد وثائق ثورة تشرين (أي البيانات والنصوص الصادرة عنها، وتعبّر عن رؤى سياسية، عن شكل النظام البديل، وشكل المرحلة الانتقالية) قليلة، قياسا بوثائق ثورة كانون الأول/ ديسمبر 2018 في السودان، مثلًا. ويعود الأمر، في تقديري، إلى وجود طرف منظِّم، رئيس ومركزي، في الحالة السودانية، وهو طرف كلاسيكي - إلى حد ما -، بمعنى أنه ينتمي إلى أشكال تنظيمية تقليدية وقارة، وهي النقابات، التي كان لها الدور الأساسي في الثورة السودانية. ولا يعدم هذا الطرفُ، من ثم، تدريبا في صياغة الرؤى السياسية، في حين أن ثورة تشرين في العراق تنطلق من عقم الحياة الحزبية في البلاد، بمعنى أنها - بنحو من الأنحاء - اعتراض على الفضاء الحزبي القائم وردُّ فعل عليه، ولكنها لا تنطلق من بديل قائم له. ومن ثم، وللمقارنة ذات الدلالة هنا، إذا كانت الثورات العربية في العام 2011 قد نتجت من التنظيمات السياسية الجديدة والحركات الاجتماعية التي انتعشت في العقد الذي سبق الثورات، وبعضُها كان له صلة بأحزاب راسخة، وكلُّها استطاعت التنظيمَ داخل فضاء الثورة، كما في حالة "ائتلاف شباب الثورة في مصر"، فإن ثورة تشرين في العراق هي حالة خاصة من هذه الحركات الاجتماعية، لم تنطلق من تنظيم مسبق، ولم تُنتِج تنظيما، ولا يمكن تصنيفها جزءا مما بات يسمى راهنا في العلوم الاجتماعية "اللاحركات الاجتماعية"، ولكنها أيضا شكل متقدم من الحركات الاجتماعية.

2- انظر: عزمي بشارة، الانتقال الديمقراطي وإشكالياته: دراسة نظرية وتطبيقية مقارنة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/ بيروت، 2020.

تشرين.. ضد الخروج من التاريخ

سرمد الطائي
كاتب وباحث

صيف 2018، لم يزد مانشيت صحيفة لوموند الفرنسية عن ثلاث كلمات في وصف حادثة نادرة فاجأت كثيرين، وهي احراق الشباب المحتجين لقنصلية ايران في البصرة، في صعود متسارع للوطنية العراقية، وتطور في المقاربة السياسية التي يتبناها المحتجون. لقد عنونت اللوموند يومها: العراق.. جيل 2018.

ولأنه جيل جديد يعكس تحولا لا مجرد اعتراض، فقد كرست مع زملاء آخرين، العامين الماضيين للحديث عن فوارق هذا الجيل عن الاحزاب الحاكمة، ومفاجآته، وخطه الفكري البديل، واسئلته الصادمة التي يطرحها على الشعب، وهذا ما يحاول المقال الحالي الاشارة السريعة إليه.

وبداية من احتجاجات البصرة تلك، انتبه الكثير من المراقبين المحليين والدوليين الى ان جيلا جديدا من فئة عمرية شابة بدأت تظهر سماته، ويختلف في مستويات كثيرة عن الاجيال التي نشأت في ظل نظام صدام حسين. فصار الباحثون امام شباب من البنات والبنين يقودون الاحتجاجات متسلحين بتطلعات مختلفة ويقيمون تواصلا مع العالم عبر ثورة الانترنت منذ طفولتهم. وعلى غير العادة العراقية شاعت بين هؤلاء ظاهرة اتقان لغة ثانية، وتيسر لهم السفر والتنقل بعد عقود كانت بمثابة السجن، وتحقق مستوى من التواصل مع التجارب الدولية بعد عزلة طويلة عانتها الاجيال السابقة حتى قبل حرب الثمانينات.

هذه النقاط وسواها شجعت الباحثين على القول بان احتجاجات العراق لم تعد منذ 2018 مجرد اعتراض سياسي بل هي انعكاس لتحول اجتماعي عميق سيتواصل، تعززه نسبة الشباب الغالبة في المجتمع، الذي يمثل اليوم سوقا كبيرة بنحو 40 مليون نسمة معظمهم دون سن الثلاثين.

ولأن الحركة تعكس تحولا اجتماعيا جارفا فان في وسعنا القول بانه لا يمكن القضاء عليها او تبخرها، وسيضطر الفاعل المحلي والخارجي الى ان يبدأ بالتكيف مع هذه التحولات والعمل من داخلها والقبول بتنازلات كبيرة امامها.

ولادة اللحظة المدنية

لا يمكن فهم حركة تشرين 2019 واحتجاجاتها المدوية في بغداد وكل الجنوب العراقي ومعظم الوسط، دون النظر الى تحولات اجتماعية تسارعت وتركت اثرها على جيل الشباب، خلال الاعوام الخمسة الاخيرة، فمقاربة ذلك التحول هو ابرز مدخل يسهل علينا فهم سلسلة المفاجآت السياسية والثقافية التي جاءت بها هذه الحركة والقدرة على المطاولة وعدم الخضوع للمجازر التي ارتكبتها الميليشيات الموالية لإيران بحقها.

وقد تأثر تطور اساليب الاحتجاج بشكل الحياة العامة في المدن، وهو شكل حظي بتحسن في زوايا مهمة حتى مع بقاء الفقر والازمات، وحتى اثناء الحرب مع داعش عام 2014 والتقشف المالي الشديد بعد انهيار اسواق النفط.

وفي تلك الفترة اتضحت قوة التيار المدني في الحياة العامة بنحو اكثر وضوحا بالمقارنة مع الاعوام التي سبقت 2012 وهي سنة انسحاب اميركا من العراق، فلاحقا لم يعد احد يسأل عن مدى قوة التيار المدني وجناحه الشبابي الواسع، بل اخذوا يتساءلون عن السر في الابتكار والاصرار: كيف اعاد المدنيون الحياة لسينمات البصرة بعد ربع قرن من الاغلاق، وكيف نجحوا في تشجيع الاف النساء على قيادة السيارة في النجف وبابل بعد انقطاع طويل، وكيف تدخل البنات الحياة العامة بتسارع في الناصرية وسواها من المدن المحافظة، ولماذا ينجح هؤلاء في تنظيم مهرجانات الكتاب العلماني الواسعة في عموم البلاد، الى جانب بازارات خيرية وتجمعات شبابية تضم الطوائف من سهل نينوى الى رأس الخليج، وما هي خطوتهم المقبلة، بل اخذ بعض الاسلاميين يتساءلون: كيف يجب ان نواجه ونقيد انشطة المدنيين المتزايدة؟

ومع تغير صياغة السؤال حول دور التيار المدني، راحت مراكز الرصد الدولية تصف التحول الجاري بأنه نابع من جيل شبابي جديد، يمثل مرحلة ما بعد صدام حسين، اذ ولأول مرة منذ عقود يمتلك الشباب فرصة السفر والدراسة، والاختلاط مع مئات الالاف من الخبراء الاجانب للعمل في حقول الطاقة والنقل والجيش والمنظمات الدولية، والانفتاح الجديد على المحيطين العربي والدولي، ما انتج تطلعات جديدة تمنح فئة الشباب ثقة بالنفس وتجعلهم اقل ميلا للطائفة والقبيلة، في لحظة هيمنة كبيرة لهاتين المؤسستين التقليديتين.

ولا بد لكل تحول من خطوط فكرية وبديل ثقافي يطرحه بعد عقود من الفشل. وهنا حاول كثيرون سلب تشرين هذا الحق.

تشرين وخطوطها الفكرية

هل حقا ان مدنية ثورة تشرين لا تمتلك مبادئ وبرامج ووحدة فكرية؟ وانها تعاني فوضى وانقسامات وبلا هوية، كما يحاول البعض ان يتهموها بذلك بعد ثمانية شهور على اندلاعها؟

أم ان تشرين هي اوضح صوت عراقي، يطلق لاول مرة منذ الخمسينيات

ربما، حوارا بمهابة العراق مع العالم كله وبمنطق الدنيا الحديثة؟

هل حقا ان شباب هذا التيار فوضويون، ام ان لديهم مبادئ عمل يجمعون عليها وتمثل ورقة ومشروعا كبيرا ومهما؟

لقد رصدنا لشهور طويلة خطاب تشرين الاساسي رغم وجود انقسامات ومراجعات وخلافات، ووجدت ومعي كثيرون، ان افكار تشرين وصياغاتها للحلم العراقي بنسخته الواقعية، هي مدخل مهم وصادق وشجاع للتغيير، وايضا بداية للشراكة مع باقي العراقيين بتنوعهم.

لذلك فان خطاب تشرين حظي باحترام اغلبية الشعب، واحترام المجتمع الدولي ايضا، بعكس معظم تصورات الاحزاب المتشنجة إزاء الحياة والدنيا، والتي تثير سخرية العالم وقد شوهت فعليا صورة العراق في مناسبات همهمة.

ان التيار التشريني ويتصدره المدنيون (ومعهم في لحظات كثيرة شركاء متدينون وحزبيون بنحو وبآخر)، بدأ بتنظيم افكاره ومقولاته بشكل اوضح منذ حركة البصرة تموز 2018 ونلاحظ نجاح الثورة في وضع مطالب عميقة اساسية، حصلت بعد 25 تشرين 2019 عبرت عن نفسها بتوحيد الشعار المطلبي، من قبيل قضايا كبرى تهدف الى اصلاح وتغيير ما افسدته عقول الاحزاب المترددة او المراوغة. ويمكن الاشارة بينها الى ما يأتي:

اولا: اصلاح مفهوم الانتخابات بما يعنيه من اعادة تقييم الاوزان في صناعة القرار.

ثانيا: ضبط السلاح وفوضى الفصائل وعدم القبول بتأجيل ذلك، بما يسمح بتكوين الدولة لتصبح كيانا قويا طبيعيا بعد خراب طويل.

ثالثا: الحياد في النزاعات الدولية، وذكر صراع اميركا وإيران في لحظة واحدة، وان العراق ليس مسرحا لتصفية اي حسابات.

رابعا: طرح فهم عميق لحقيقة ان تحقيق سيادة العراق مقرون بنزع التوتر مع البلدان الاخرى وتحويل البلاد من مشروع فاشل مثير للسخرية، الى شريك موثوق مسؤول في امن العالم واقتصاده، كما كان العراق على مر عصوره الذهبية.

خامسا: تدعيم الحقوق والحريات لنصبح بلادا تشبه العالم. لا تستوحش منا الدنيا، الى جانب تحديث بنية الرقابة لمكافحة الفساد ومكافحة الانقسام الطائفي.. الخ.

سادسا: جزء اساسي من جمهور ومثقفي تشرين بقي يقترح دعم الحوار الديني العلماني لبناء ركيزة اساسية في التعايش والاستقرار الاجتماعي داخل العراق ومع العالم حولنا، كي نحول الصراع الفكري الى تكامل وموضوع للشراكة بأهداف اخلاقية وتنضيج سياسي، ونقلص الاحتقانات والمواجهات التي في الغالب يستفيد منها المتشددون وداعموهم الخارجيون.

ولذلك ستبقى النقاط اعلاه كخطاب تشريني شبه مجمع عليه، تقوم بتطوير السجال العراقي لعقود مقبلة، وتطوي كثيرا من صفحات الصراع الفكري

والطائفي، الذي ارتهن واحتجز سياسة العراق ومجتمعه لعقود مضت. والآن تبدأ الاشياء وحسب، كما يتصور كثيرون أمثالي، وما كان مستحيلا يصبح واقعا بفضل شجاعة وتضحيات جيل الشباب العراقي الذي يحظى اليوم باحترام الدنيا.

ثلاثة فوارق بين تشرين والاحزاب

ان وجود خطوط فكرية بلورتها حركة تشرين، تضع فوارق عميقة بينها وبين الاحزاب الحاكمة، وترسم طريقا مختلفا إثر ذلك.

وبشكل عام يشعر جيل الحاكم العراقي بانه ضعيف مطعون في شرعيته، فيبادر الى الشك دفاعا عن اوهام السلطة، بينما يشعر شباب تشرين بالقوة والثقة بالنفس فيتمسكون بالدفاع عن الصراحة والثقة والمستقبل المغاير. هنا مكمن الفرق.

ولنحاول اختصار الاشارة الى نقاط ضعف الاحزاب في ادناه:

الاولى، عاشت الطبقة السياسية بعمومها عقدة الماضي وخلافاته خصوصا منذ تأسيس الدولة الحديثة قبل 100 عام، وبدل ان تعالج الاحزاب الانقسام المكوناتي اندفعت لتأجيجه بحجة نقص الثقة بين اجزاء البلاد، وفهم الجميع متأخرين ان تلك كانت نكبة أخّرت التقدم واضاعت الهيبة العراقية.

الثانية، الخوف من العالم بدل الانفتاح عليه، فقد انخرط كل طرف في محور اقليمي، وضاعت فرص كثيرة مع الدنيا، وفسرنا مبادرات دولية معقولة بنحو خاطئ فجرى نبذنا، واستخدمنا اساليب تحليل بائسة ولم نحصل على اصدقاء وشركاء عميقين يثقون بنا. وهكذا عشنا عزلة دولية واقليمية ندفع ثمنها ونواجه صعوبة في تخفيفها.

الثالثة، الخوف من تنوع ثقافات العراق، والتشدد في الدفاع عن تقاليد خاصة تقيد الاتجاهات الحرة المتنوعة في العراق التاريخي، وتجعل الحاكم يبدو متناسيا لأولويات العدالة، ومنهمكا في تطبيق قرارات القبيلة او الدين، مع ان القبيلة والدين اكثر انفتاحا من هذا الحاكم في احيان كثيرة. وخلق لنا ذلك مشاغلة رهيبة وضيّع وقتنا، وبدد مواردنا في الكثير من مقاطع العمل.

اما جيل تشرين فقد تميز بنقيض هذه العُقد الثلاث، فكان مساهما في محاربة الانقسام المكوناتي، داعيا الى وطن تحكمه العدالة، وقد احسن هذا الجيل تعريف الوطن بانه عنصر مهيب يحفظ كرامة المكونات في وحدته، وينبذ عقدة الكراهية للعالم ويتواصل مع الآخرين.

ويقبل على تبادل الثقافات واقامة الشراكات، ولذلك اتهمه السلطويون بانه عميل للاجانب، بدل ان يروا فيه انفتاحا ضروريا سبق في تجارب دولية اخرى، ان حقق المكاسب الجوهرية.

ويحتفي جيل تشرين بالتنوع الثقافي في البلاد، ويعيد إلينا في لحظات النبذ والاهمال، صورة العراق المنفتح التي عرفناها منذ العهد العثماني والملكي وصولا الى الثمانينات، رغم كل منغص سلبي رهيب في تلك العصور، وذلك قبل ان تتعرض منظومة الاخلاق والسلوك والأفكار الى عقد الحروب

والموت والتلاعن والكراهية الداخلية والخارجية.

وهكذا يشعر جيل الحاكم بأنه ضعيف فيبادر الى الشك دفاعا عن اوهام السلطة، بينما يشعر شباب تشرين بالقوة والثقة بالنفس، فيتمسكون بالدفاع عن الصراحة والثقة والايجابية كطريق للدفاع عن الامل والمستقبل وفكرة التغيير.

لذلك يجد العراقيون الشجعان انفسهم مع تشرين ضد عُقد الاحزاب، ولذلك فان تشرين تفتي ويتبعها المفتون، في عبارة أستخدمُها منذ شهور وتثير زعل بعض الاصدقاء من التيارات الاخرى، وتضع تشرين القواعد الجديدة لما سيأتي من الوقائع والأخطار، وتجعلنا نقول: لقد بات لدينا امور تستحق الترقب.

وأسئلتهم الجديدة في اعناقنا

ادرك خطاب تشرين ان الخسارة قرار، وإننا لا نمر بنكسة ولا خسارة نازلة من السماء كلعنة، وادركوا ان الخسارة يوجد فيها رابح. اما في مصيبتنا فكلنا خاسرون وننزف ونهدر الارواح والسنوات من اجل لا شيء، ما يوجب الحسم والسرعة في التغيير.

ادركت حركة تشرين اننا لا نمر بمجرد خسارة، بل نعيش بصيغة مصممة للخسارات فقط. لاننا قررنا البقاء خارج التاريخ. وما نعيشه اليوم هو مجرد طعم التواجد خارج التاريخ.

لقد خرجنا من ذوق وقواعد العالم المتقدم وصرنا نكره الموسيقى والسينما، ولا نتعامل مع الشركات الاجنبية، ونقيد حركة النساء، ونشك بكل ما هو حديث، ونبالغ في كل هذه الموضوعات وننشغل بها اكثر من اللازم.

لم نعد شركاء للدنيا. الاجانب القادمون الينا يشعرون بالوحشة والخوف والغربة. فقد تقمصنا طريقة حياة لا علاقة لها بالعالم.

ثم انتكسنا تربويا وتنمويا وحتى صحيا، فغرقت مدننا في القذارة والازبال، وصرنا نسأل انفسنا: كيف يمكن الحصول على مدينة نظيفة؟ اما الآن فعلينا ان نسأل: بعد ان يعيش الناس سنوات طويلة في مدن تملؤها الاوساخ، وتحرم فيها الموسيقى، ويحاصر الشباب، وتقيد المرأة، ويخشى الاجنبي زيارتها او العمل فيها، فهل يمكن ان نحصل على مدن نظيفة وادارة نزيهة؟

لكن الحكاية لم تنته بعد لدى تشرين. فجعلت من الحراك تحولا في الاسئلة لن يتوقف، ولذلك قلنا انها تحول عميق وثورة.

لم يكن الشهداء ينزفون دما بل اسئلة جديدة للأمة العراقية. لذلك كانوا شهداء مميزين. صنعوا اجواء مختلفة وبدأوا قواعد عمل جديدة. تتصارع مع طعم الخروج من التاريخ.

وهل التاريخ إلا لعبة جر حبل، طرف فيها مدبر عاقل شجاع، والآخر منفعل يصرخ ويهرب من الاسئلة..؟ ها قد بدأت اللعبة الكبرى.

لكن هذا بمجمله يضاعف مسؤولية تشرين ويجعلها اكثر حساسية وجسامة، وعلينا في مناسبة أخرى ان نتحدث عن ثلاث نقاط حتمية، كيف نراجع الحركة، وكيف ننضجها باضطراد، وكيف نحميها؟

دور وسائل التواصل الاجتماعي في الانتفاضة العراقية

طالب عبد الأمير
باحث وإعلامي، وقاص،
ماجستير في الاعلام والاتصالات وبكالوريوس هندسة

لا شك في أن العوامل الاجتماعيةوالسياسيةوالاقتصادية في أي بلد هي المحرك الأساسي لإشعال شرارة التظاهرات والإحتجاجات والإضرابات، حتى تحولها الى انتفاضة جماهيرية واسعة، الا أن وسائل الإتصال الجماهيرية الحديثة التي جاءت بها ثورة تقنية المعلومات، وهي ذات مسميات متعددة، ولكن أشهرها الفيسبوك والتويتر، والتي يطلق عليها وسائل التواصل الاجتماعي، خلقت أرضية صلبة للفضاء العمومي، الذي يشكل حسب الباحث والفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، ميداناً للنقاش العام. وفي هذه المساحة الواسعة والمترامية الأطراف في العالم الإفتراضي، تتفاعل السجالات وتتبلور الأفكار. وهو الأمر الذي يقود بالتالي الى أن تُتخذ المواقف إزاء المسائل التي تعكس اهتمامات المشاركين. ويرى هابرماس بأن واحدة من أهم صفات الفضاء العمومي تكمن في إمكانية بلورة رأي عام نقدي، بطريقة سريعة وواسعة الإنتشار، انطلاقاً من ممارسة إنسانية إجتماعية، تشترك فيها مختلف الخلفيات المجتمعية. وذات أبعاد وأهداف محددة، يدمج فيها الفرد بالمجموعة. إذ تتيح تقنية وسائل التواصل الاجتماعي إمكانية ممارسة ديمقراطية وحرية تعبير واسعة، لكل المنخرطين في الفضاء العمومي، على اختلاف مستوياتهم وفئاتهم وجذورهم التي ينحدرون منها.

لقد شكل تطور تقنية المعلومات والإتصالات، خاصة وسائل التواصل الاجتماعي، في التظاهرات والاحتجاجات الشبابية التي شملت عددا من بلدان ما سمي بالربيع العربي، قبل ثمان سنوات، فَرقاً كبيراً في قدرة الجماهير على أن تأخذ بيدها زمام المبادرة في التعبئة والعمل على توجيه الرأي العام بشكل يتيح لها إمكانية التأثير، وبصورة سريعة، على أية سلطة كانت، مقارنة بما قبل ظهور هذا الفضاء، وهذه الوسائل الحديثة. بالإضافة الى تكوين ثقافة جديدة مؤسسة على تبادل المعلومات، من سماتها خلق فكر جديد يُحَسِّن من آليات التعبير ويشحذ بلاغة الحديث الملتزم. وكمحصلة لما قدمته هذه الوسائل في بلدان

الربيع العربي، تونس ومصر تحديداً، فقد أفرزت، بشكل عام قيماً أساسية رفعت من عمل الحركات الجماهيرية الى مستويات أعلى، وأهمها:

- أسهمت وسائل التواصل الإجتماعي في جعل مستخدم هذه الوسائل، أن يكون بمثابة الصحفي الميداني في جميع ميادين الاحتجاجات الجماهيرية.

- أتاحت وسائل التواصل الاجتماعي للشبيبة التي خرجت للتظاهر إمكانية إبراز كفاءات شبابية وخطاب بلاغي متميز بقوته، ازاء هشاشة الخطاب الرسمي الحكومي.

- خلقت انتفاضات الشباب من الإنترنت ميداناً تنطلق منه لتنظيم فعالياتها الاحتجاجية.

- كسرت حاجز الخوف، وأظهرت مدى التكاتف بين المنتفضين، حيث الشعور بالتعاضد والتفاعل في الفضاء العمومي، حسب أطروحة يورغن هبرماس.

- حطمت وسائل التواصل الاجتماعي جدار إحتكار القصة الخبرية التي كانت تملكها السلطات، نتيجة امتلاكها لوسائل الاعلام والاتصالات. فأصبحت القصة الخبرية مشاعة وتصل الى جميع الناس بعيداً عن سلطة الاعلام الرسمي. وأصبحت المعلومة تأتي من مصدرها دون خضوعها الى فلترات.

- ساعدت على ترسيخ مفاهيم العدالة الاجتماعية وحقوق الانسان والديمقراطية والتعايش والتسامح، وقبر الطائفية والتمييز.

- فسحت المجال للجماهير الغفيرة أن يكون لها صوت مسموع، بل وهادر، في غابة وسائل الاعلام المملوكة من قبل جهات معينة والتي حاولت وتحاول فرض رؤيتها على الجماهير من خلال التأثير على عقولها.

- أظهرت قوة هذه الوسائل الإعلامية في التأثير على وعي الجماهير وتوجهاتها وأفكارها. وهذا الإفراز له شقان سلبي وايجابي في ذات الوقت. يعتمد الأمر على كيفية التعامل معه.

ولكن يجب أن لا ننسى في الوقت ذاته أن هذه الوسائل ليست ديمقراطية بحد ذاتها، فهي مملوكة من قبل شركات ربحية كبيرة، ويمكن بسهولة ان يتم اغلاقها في اي وقت. ومن هنا نجد ثمة صعوبة في هضم فكرة أن يكون لها الدور الحاسم في خلق ثورة، وانما هي أداة ذات أهمية كبيرة لتحقيقها.

انتفاضة تشرين العراقية ووسائل التواصل الجماهيرية

انطلقت الانتفاضة العراقية في بداية تشرين الاول 2019 بتظاهرات مطلبية بسيطة ولكنها مهمة بالنسبة للشباب وتتعلق بمستقبلهم. شكل انطلاقة هذه التظاهرات أوحى لي على الأقل، منذ اليومين الأولين لانطلاقها، بأنها ليست كسابقاتها من الاحتجاجات والتظاهرات التي بدأت بشكل فعلي منذ 2011 وما تلاها. وهذا ما كتبت عنه في اليوم الثالث للانتفاضة مع بداية اكتوبر، بأن هذه المرة جاءت مختلفة تماماً. ولم يكن ذلك حدساً فحسب، بل بناء على مؤشرات نابعة من طبيعة التظاهرات التي شملت مدناً عراقية في الوسط والجنوب، ولم تقتصر على بغداد وساحة التحرير. وعلى الكيل الذي طفح، وعلى الغليان الذي بلغ مداه بشبيبة وجدت نفسها امام واقع مر،

وفي بلد ينخر جسمه فساد مستشري، يباع فيه ويشترى كل شيء، حتى مناصب في الحكومة والبرلمان ومجالس محافظات، وهم يبحثون عن قوتهم اليومي. فقراء يعيشون في بيوت عشوائية من صفيح، فيما العراق، الغني العريق بحضارته وطاقاته البشرية الخلاقة، التي لم يستفد منها الوطن، ينُهب أمام أعينهم. شباب وجد نفسه يعيش، بلا أمل في بؤرة من التضليل والكذب السياسي الذي يشترك فيه حتى معممون، ربما كانوا يشكلون لبعضهم، يوماً، مثالا للتقوى، فوجدوهم يتاجرون حتى بالدين.

وقد عزز هذا اليقين التظاهرات الجماهيرية الواسعة التي استأنفت ليلة الخميس 24 من تشرين الأول، لتجعل من الخامس والعشرين منه العام 2019 يوماً تاريخياً في حياة العراق والعراقيين. رغم خطورة أن يواجه المتظاهرون من جديد قمع وقتل وقنص، شمل الآلاف بين قتيل وجريح ومختطف. الى جانب تهم جاهزة، وهو ما حصل بالفعل.

إن الإصرار المتنامي لدى الشباب المنتفضين على المضي قدماً بمطاليبهم، ليست الشخصية، بل تلك التي تخص حياة الشعب جميعاً، وعلى رأسها إنقاذ الوطن من الضياع، يشكل دليلاً على ادراك بما ستؤول اليه حال البلاد، لو بقي الأمر على هذه الشاكلة.

لا شك في أن ما سمي بالربيع العربي الذي هوى، قبل سنوات ليست بعيدة، بسلطاتٍ وبحكام سديميين في تونس وليبيا ومصر كانوا يمسكون الحكم بأسنانهم، وأرعب حكاماً آخرين، كالمغرب، على سبيل المثال، فسارعوا الى اتخاذ اجراءات وتعديلات، في محاولة لامتصاص غضب الجماهير، عادت رياح هذا الربيع تهب من جديد، وهذه المرة في السودان والجزائر والعراق ولبنان وايران. وفرسان هذا الربيع، كالعادة شباب نشأوا في الزمن الجديد، فاستخدموا تقنياته لتنظيم صفوفهم وإيصال أصواتهم الى العالم. هذا العالم الذي قلص تطور تقنية وسائل التواصل وسرعة تبادل المعلومات، دائرتَه لتحوله الى قرية عالمية، فيها المعلومات متاحة للجميع، وموثقة بالصوت والصورة.

لم تتعلم الحكومات من تجارب الأخريات أهمية هذه التقنيات والاستفادة منها هي للنهوض بمجتمعاتها تنموياً، ولتوفير احتياجات المواطنين الأساسية في العيش بكرامة وعزة، فلجأت، كما في سابقاتها في انتفاضات الربيع العربي الى محاربة الجماهير الغاضبة بقطع خدمات الاتصالات والانترنت عنها، في محاولة يائسة، للتأثير على هذه الوسائل، التي كان لها دور كبير في إنجاح انتفاضات الربيع العربي، رغم ما شابها لاحقاً من تشويش وركوب قوى لموجتها.

ولكن هذه الأنظمة التي تعصف بها رياح الربيع العربي الجديد تحاول الاستفادة من بعض ممارسات سابقاتها والتي ادركت حجم الدور الذي تلعبه وسائل التواصل الاجتماعي والانترنت في أحداثها، بالتنظيم والتواصل والتعبئة، والتأثير الذي احدثته في سياق مجريات الأمور داخليا وخارجيا. لذا لجأت هذه الأنظمة الى تشكيل جيوش الكترونية مضادة تبث معلومات مفبركة، عبر نشر صور ومقاطع فيديو، أو أخبار كاذبة وتعليقات تبعث من خلالها رسائل

لخلق عدم استقرار في التعامل مع هذه الوسائل وللترويج لسياسات وأفكار معينة، تماماً مثل ما حدث في الثورة المصرية التي أسمتها الميليشيات الإلكترونية. وتتكون من مجموعات مرتزقة يتقاضى أفرادها أجوراً، أو أنهم منتمون لمؤسسات حكومية وغيرها ومرتبطون بأوامر فوقية. وإما أن يكونوا من أتباع "الطرف الثالث؟" وهو المصطلح الذي يشير الى سلطة أو قوة ثالثة، خارج إطار الدولة، لربما تكون من افرازات الدولة العميقة، كما يُصطلح عليها أيضاً.

كما عمدت هذه الانظمة الى ذات الاجراءات البائسة التي قامت بها حكومة الربيع العربي باعتقال المدونين وقطع الانترنت، الذي لم يدر نفعاً لها، وتمكناً من الحد من تأثيرها. إذ لجأ الشباب العراقي إلى استخدام وسائل إرسال سرية وطرقاً تقنية غير مستخدمة على نطاق واسع، كتطبيقات VPN ، التي تعتمد على خوادم موجودة في بلدان أخرى، للالتفاف على حجب الفيسبوك والتويتر. كما استخدموا الرسائل القصيرة وتصوير الفيديوهات، التي توثق وتنشر بعدما تعود الشبكة الى العمل ثانية.

سرعة قياسية في انتشار وسائل التواصل الاجتماعي

تخبرنا أحدث الإحصائيات في مجال الانترنت في العالم، عن مدى التطور المتسارع في استخدامات الشبكة العنكبوتية. إذ تشير أحدث إرقام Internet World Stats "إحصاءات الانترنيت العالمية" التي أجريت في يونيو، حزيران 2019 الى ان عدد مستخدمي الإنترنت في العالم، بلغ ما يقرب من 4.536 مليار مستخدم، اي حوالي 58,8% من عدد سكان الكرة الأرضية. ومن المتوقع ان تصل النسبة الى 70% خلال الاعوام القليلة القادمة، أي الى 5.1 مليار شخص، على وفق توقعات "الاتحاد الدولي للاتصالات".

وفي بلدان الشرق الأوسط بلغ العدد 175,503 مليون مستخدم، أي بنسبة 67.9% من عدد السكان. بينما كان العدد مع بداية الالفية الثالثة لا يتجاوز 3,300 مليون. تتصدر القائمة الكويت وقطر، بنسبة 99.6% نسبة الى عدد السكان، وتأتي بعدهما البحرين 98.6%. وفي العراق بلغ عدد مستخدمي الانترنيت اليوم حوالي 20 مليون اي بنسبة 49.9% بينما كان عدد مستخدمي الانترنيت 12 مليونا مع بداية الألفية الثالثة.

ومن الجدير بالذكر أن استخدام تقنيات وسائل التواصل الاجتماعي، الفيسبوك والتويتر، والتي تتمتع بحصة الأسد في إحصاءات الإنترنت يتطلب، ليس فهماً بكيفية تطبيقها فحسب، ولكن أيضاً وعياً من جانب مستخدميها، لغربلة الأفكار والمعلومات التي تنشر على هذه الوسائل، والتمييز بين المعلومات والأخبار الحقيقية وتلك المضللة، عبر التأكد من مصادرها. وقد أثبت الشباب العراقي امتلاكه هذا الوعي، كما هو إدراكهم بأن الوضع السياسي والاجتماعي في البلاد اليوم، لا يمكن السكوت عليه.

الشباب المنتفض هم من جيل الألفية الجديدة، ولدوا في عصر الإنترنت وتفتحت أعينهم على ما يجرى في العالم من إحترام للانسان وكرامته وحماية حقوقه. بينما هم يرون انفسهم وأهلهم يلاقون الذل والهوان، في بلد يفرط بأبناء شعبه وكفاءاته في

مجالات شتى؛ حيث يعيشون المنافي، داخل الوطن وخارجه. شباب لم يستطع حتى ملامسة أبسط طموحاته في الدراسة التي يرغبون فيها، إذ ليس بمقدورهم أن ينافسوا من يملك المال والجاه والسلطة والمحسوبية، فيلتجئون الى معاهد ومؤسسات تعليمية على قدر المستطاع. وحينما يتخرجون لم يجدوا لهم مكان عمل. شباب غالبيتهم ولِد وشبّ، بعد سقوط النظام القمعي، الذي لم يعرفوا عن شيئاً. وأن ولد بعضهم في السنوات القليلة قبل 2003، فهم لم يعيشوا ما كانت تقترفه السلطة في ظل النظام السابق سوى آثار حروبه المدمرة والحصار والرعب الذي عانى منه أهاليهم. وبدلاً من أن يتمتعوا بوطن كان يفترض أن يتعافى بعد التخلص من جراح ذلك النظام، وجدوا انفسهم وسط صراعات طائفية ومحاصصة بغيضة، ونهب وفساد مالي واداري متواصل.

التظاهرات والاحتجاجات التي بدأت مطالبة بأبسط حقوق المواطنة، تحولت الى مطلب عام هو: استعادة الوطن المفقود الذي لم يشعرون بوجوده. فما نفع المطالبة بالتشغيل وتحسين الظروف إذا كان الوطن مسلوب الإرادة؟ لذلك أظهرت هذه الفعاليات الاحتجاجية، الهوّة الواسعة بين افكار الشباب الثائر والواعي، الرافض للتدخلات الخارجية وعقلية الحكام وسياسيي البلاد الذين مازالوا يفكرون بشراء الذمم وتكرار اسطوانة الوعود الكاذبة التي تستفز عقولهم؛ ففيما يستخدم الشباب المسالمون العزل وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات الحديثة أسلوباً حضارياً وميداناً لتنظيم صفوفهم وايصال صوتهم الى العالم، يواجههم اصحاب العقليات، التي تخلفت عن لغة العصر، بالقمع المفرط حد اطلاق الرصاص الحي والاغتيال المباشر.

لقد كشفت الحركة الاحتجاجية التي انطلقت في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2019 من ساحة التحرير والهبت شرارتها مناطق الجنوب والفرات الأوسط، عُمق إدراك الشبيبة بوضع العراق الراهن، وبرهنت على خطل التصورات الجاهزة عنها، والتي اعتبرتها تائهة في مهب رياح العدمية وضعف الوعي والتقوقع في بيئات هامشية. جاء الواقع ليرد على ذلك بأمثلة حية وصارخة على سعة الإدراك بمصير العراق، والى أين يتجه لو بقي النظام، على هذا الحال الذي يغوص به في وحل المحاصصة والفساد المالي والإداري، فأخذ دفة المبادرة بصرخته المدوية كفى. ولخص ما يريده بجملة واحدة "نريد وطناً". ولم يكتفوا بالمطالبة به، بل صمموا نموذجاً مصغراً له في ساحة التحرير، التي صنعوا فيها دولة يسود بين مواطنيها الإخاء والتكاتف، بين جميع مكونات الشعب، حيث شيعوا الطائفية الى مثواها الأخير، وأنشأوا مؤسسات طوعية تحاكي وزارات الدولة. لكن بدون رئيس أو مرؤوس؛ دولة شفافة ومسالمة وكلها خدمات مجانية ممولة من تبرعات المواطنين. فهناك:

- وزارة صحة شبابية: مفارز طبية ومسعفين؛
- وزارة نقل شبابية: إسعاف تكتك وسيارات شخصية؛
- وزارة دفاع شبابية: خطوط صد القنابل المسيلة ومطعم تركي؛
- وزارة تجارة شبابية: مواكب مجانية ودعم لوجستي؛

- وزارة ثقافة شبابية: رسوم ولوحات فنية وفرق موسيقية وترتيبات؛

- وزارة كهرباء شبابية: تأسيسات كهربائية للمطعم التركي بيوم واحد. لو أرادت الحكومة أن تجهزها لاحتاجت الى ميزانية بحدود ٦ مليارات والمدة سنتين. الشباب أسسوها بكلفة لا تتجاوز "١٠٠ الف" وأنجزوها في "يوم واحد".

- وزارة اتصالات شبابية: تجهيز الساحة بالإنترنيت من شباب الشركات؛

- دوائر بلدية شبابية: حملات تنظيف من الصبح لليل؛

- وزارة مالية شبابية: تبرعات فورية لحالات انسانية.

كل هذا جرى تأسيسه في اسبوع واحد، بجهود شباب وشابات، عملوا جنباً الى جنب، بإخلاص وحرص وأخلاق عالية. شاركهم في العمل أمهات وآباء جاؤوا الى التحرير دعماً لأبنائهم.

وإضافة الى ما ذكرناه في أعلاه حول السمات القيمة التي افرزها استخدام انتفاضات الربيع العربي، لوسائل التواصل الاجتماعي، وهي تنطبق جميعها وبشكل أوسع على الانتفاضة العراقية، نتيجة ما أفرزته من قيم اجتماعية، أضافتها الانتفاضة العراقية، ويمكن تلخيصها في النقاط الاتية:

- القبول بالآخر، برغم الاختلافات الفكرية والتعليمية بين العناصر الشبابية المشاركة في التظاهرات، طالما أن المطالب واحدة والهدف واحد والمصير مشترك.

- أبرزت انتفاضة تشرين عمق الهوة بين الشباب وأولئك المتشبثين بالسلطة؛ فالشباب يتحدثون بلغة العصر، فيما يتحدث الحكام بلغة بالية عفى عليها الزمن.

- شاركت كل فئات الشعب في هذه الانتفاضة: عمال وفلاحون وطلبة ومحامون، كتاب وشعراء واساتذة جامعة.

- افرزت الانتفاضة شباباً ينبأ بأن يكون قائداً لمستقبل الدولة العراقية.

- أفرزت ملكة هذه الشبيبة، الأفكار الخلاقة في البناء والتعمير والجمال في الفن والأدب بشكل عام.

- شكلت ظاهرة توثيق الأحداث والأنشطة الميدانية للانتفاضة الجماهيرية، وما تقوم به الحكومة واقطابها ضد المتظاهرين، سابقة لا مثيل لها في كل الاحتجاجات الأخرى، حتى بالنسبة للربيع العربي. فلم يكتف الشباب المشارك في الانتفاضة بأن يلعب دور الصحفي الميداني، فحسب، بل والموثق الميداني للأحداث، ما يوفر لمن يريد التحقيق في سلمية الانتفاضة، وكيف جوبهت بالرصاص وسقوط عدد كبير من الضحايا، ادلة لا تقبل التأويل عن الخروقات والتجاوزات التي حدثت، وراح ضحيتها مئات الشباب العزل.

- لم يقتصر التفاعل في هذه الانتفاضة على فضاءات الفيسبوك والتويتر، بل لعب اليوتيوب والانستغرام دوراً كبيراً في النشر الإعلامي لحركة الاحتجاج وساحاتها في التحرير وميادين المدن المختلفة.

- كشفت الانتفاضة عن وعي وإدراك عميقين للشبيبة العراقية في كافة المجالات.

- كشفت الإنتفاضة عن تكاتف واسع بين كافة شرائح المجتمع ومن مختلف الفئات العمرية.

- استعادة المرأة دورها في ساحات الكفاح، وعملها الى جانب الرجل بكل أمان وثقة.

- بعثت مواصلة التظاهرات والاحتجاجات السلمية لانتفاضة الشبيبة العراقية، رسالة معفرة بدم الشهداء الذين سقطوا في الساحات، للسلطة او السلطات التي تحكم البلاد وللمرجعيات وللأحزاب، أن لا رجعة الى الوراء، حتى انهيار منظومة الفساد والمحاصصة، وبناء عراق جديد على اسس نقية تتناسب ومكانته.

- ان ما أقدم عليه البرلمان والحكومة باتخاذ جملة من القرارات التي هي جزء من مطاليب الشعب، يؤكد على مدى الارتباك وجدية وخطورة الوضع.

- تحقيق الانتفاضة جزءاً كبيراً من أهدافها التي تمثلت:

- بإقالة الحكومة
- تشكيل هيئة جديدة مستقلة للانتخابات
- سن قانون جديد للانتخابات
- إسقاط جميع التابوهات والقدسيات المصطنعة التي غلقت منافذ التفكير وعرقلت خلق المتغيرات الفكرية والثقافية.
- استطاعت الانتفاضة توفير الأرضية المناسبة لاستعادة الهوية الوطنية من أفكار مختطفيها المتشبثين بالهويات الفرعية، سواء الاثنية والدينية والأيديولوجية وغيرها، من خلال رفع الشعار المركزي: نريد وطن.

المصادر:

Mc Luan, M ,Poznovanja opisťila- covekovihproduzetaka, prosveta, Belgrad 1971

Davies, Paul Information Technologi, Oxford University, 2002

Eco, Umberto, Otvorenodjelosarajevo, 1965

Abdulamir Talib, Syśte mimaovnih komunikacija u Arabskom svetu, Magisťerski rad, Varazdin, Kroatien 1989. Information,

Förlag Cambridge University Press, 2004

An interview with Matt Waite about the future of Drone Journalism,7 sept.2016

Abdulamir Talib, Inervju med Nobelpris‘tagaren Ahmed Zwel, SR, 8 december 1999

Freiden Roy, Science from Fisher

المصادر باللغة العربية:

- سمير أمين، مناخ العصر، رؤية نقدية، سينا للنشر، ومؤسسة الانتشار العربي، 1999.
- طالب عبد الأمير، "ليست كسابقاتها"، "الحوار المتمدن"، 27 أكتوبر 2019.
- Internet World Stats" إحصاءات الانترنيت العالمية" يونيو 2019.
- شيللر هربرت، "المتلاعبون بالعقول"، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، 1986.
- ادور ايف، غزو العقول.. ترجمة غسان ادريس، منشورات دار البعث للصحافة والطباعة والنشر في سوريا، 1980.
- جولدسميث جاك، و وو تيم، من يحكم الانترنت – أوهام عالم بلا حدود، دار كلمة، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، 2009.

"تكتك"، صحيفة ساحة التحرير.

النظام السياسي والاحتجاج
القدرة والتأثير

علاء حميد إدريس
باحث في مجال الأنثروبولوجيا

تمثّل العلاقة بين النظام السياسي والاحتجاج نوعاً من المعيار الكاشف لقدرة تأثير أحدهما على الآخر، ولذلك حين نتابع خط سير الاحتجاجات في أغلب البلدان التي وقعت فيها، نجد أنّها تحاول تحقيق هذه الثنائية "القدرة – التأثير"، عملت أغلب الأنظمة السياسية التي واجهت احتجاجات متكرّرة في البلدان التي تحكمها على إفراغها من مضامينها وسحبها إلى منطقة يمكنها إدانتها فيها والتشكيك في شرعيتها.

وضعت الاحتجاجات الأخيرة في العراق النظام السياسي أمام تحديات متعدّدة، كشفت عن إمكانيات السلطة في استيعاب وفهم ما يجري من تحولات في المجتمع. المفارقة أنّ النظام السياسي منذ احتجاجات 2010، وضع إمكانية إنتاج نوع من التواصل مع المحتجين، خارج تصوره ورغبته، ولذلك أصبحت موجات الاحتجاجات تكرّر في فترات زمنية متقاربة، ولم تتوقف سوى في مرحلة دخول داعش، ثم عادت بعد الخلاص منه.

الاحتجاجات وأنماطها

منذ ظهور أوّل نمط للاحتجاج بعد 2003 في جنوب العراق وغربه، كانت تحمل ملامح مطلبية اجتماعية واقتصادية، ولهذا مارستها فئات معينة من المجتمع العراقي دون بقية الفئات. وبات ينظر لهذا النمط من الاحتجاجات على أنَّه يسعى لإيجاد فرص عمل، ولهذا لم يؤثر كثيرا في النظام السياسي وتوجهاته. إنَّ تلك الاحتجاجات كان يتم التعامل معها عن طريق طرح فرص التوظيف والعمل التي تقدمها القوى الفاعلة في النظام السياسي. ولهذا ظلّت خارج المستوى الذي يرى فيه النظام أنَّها تهديد لوجوده وشرعيته، إذ استطاع تخطيها بشكل ملموس دون أن تأخذ من رصيده الاجتماعي والدستوري. ولكن بعد 2015 أخذ الحال يختلف وباتت الاحتجاجات تدخل في نمط جديد تخطّى المطلبية الاجتماعية والاقتصادية إلى مطالب قانونية ودستورية، مثلا تغيير قانون الانتخابات وتطبيق قوانين مكافحة الفساد، إصلاح العملية السياسية.

مثلت انتخابات 2018 مؤشراً لافتاً إزاء مدى مقبولية النظام السياسي من المجتمع، فكانت نسبة المشاركة في عملية التصويت

الانتخابي نسبة متدنية عن التي سبقتها، لتضع أولى الخطوات نحو إعادة النظر بشكل النظام ومدى كفاءته، زادت هذه المؤشرات من مستوى الصراع بين النظام وفئات واسعة من المجتمع، وبالعودة إلى ثنائية "القدرة – التأثير" نلاحظ ظاهرة انتقال القدرة على الفعل من النظام لقوى أمست تنمو بشكل لافت، وتمتلك وسائل التأثير والدعاية، وبذلك أخذ يصيب النظام ودوره نوع من الاختلال السياسي. من جانبه دخل الاحتجاج ومطالبه في مستوى أوسع؛ وصل إلى حدّ المطالبة بتغيير النظام والدستور. وهذا لم يكن يطرأ على بال من هو مشارك في النظام وإدارته.

وهنا نتساءل كيف تعامل النظام مع هذا النمط الجديد من الاحتجاجات؟ فهي لم تقع في مكان واحد بل انتشرت في أكثر من مكان، وكأنّها تعبير معادل لانخفاض نسبة المشاركة في الانتخابات الأخيرة. وهذا فتح المجال لفهم ورصد خيارات النظام المتاحة للتعامل مع الاحتجاجات أمنياً وقانونياً، فما طرحه النظام من خيارات عبّرت عن رؤيته للاحتجاجات التي أكدت تأثير العامل الخارجي في طريقة تعامله معها.

النظام السياسي وخياراته

تنحصر وتتسع خيارات النظام حسب رؤيته لهذه الاحتجاجات، وهنا علينا أن نتفحّص نظرة القوى المكونة لنظام ما بعد 2018، إنّ أصل هذه النظرة مرتبط بكيفية تعامل تلك القوى مع الاحتجاجات، فمن هذه القوى من يرى أنّها تعمل على إفراغ النظام من شرعيته، وأنّها أسلوب من التدخل الخارجي، لكن بشكل مختلف، وأخرى تراها فرصة للقيام بإصلاح سياسي وقانوني، يطال أغلب مفاصل النظام. إنّ الاختلاف في هذه النظرة يعود إلى طرح الاحتجاج لمطلب تغيير مضمون النظام، ويعني تغيير القوى المتحكّمة فيه، الذي يبقى مرهوناً بعدة متغيرات، منها داخلية وأخرى خارجية. إنَّنا أمام طرفين يتواجهان بشكل غير مباشر من أجل إزاحة أحدهما للآخر، ولهذا نحن نشهد إزاحات لا تستطيع إنتاج تأثير حاسم في كل من "النظام – الاحتجاج". فمرّة يتنامى الاحتجاج في أكثر من مدينة ويقدّم ضحايا لعلّه يترك أثراً في النظام، ويدفعه نحو التنازل عمّا اعتاد عليه من التعامل مع متطلبات وحقوق المجتمع، وفي نفس الوقت يسعى النظام لإظهار ما يفعله الاحتجاج خارج المطلوب والمتاح من وسائل التغيير الكافية لإصلاح النظام ومؤسساته.

بعد هذه الموجة من الاحتجاجات واستمرارها لفترة غير قصيرة، بات الوضع العام للنظام السياسي الذي أقيم بعد 2003 والمحتجين أمام لحظة مفصلية لا يمكن وصفها من داخل إطار قيمي ومعياري، بل هي بداية تكوين وضع عام شبه مختلف كليا عما سبقه، تتسابق أطرافه على كسب قصب السبق في المحافظة والتأسيس. فالنظام يبذل جهداً ملحوظاً في الحفاظ على ما تم إنجازه من تغيير 2003، ولكن تسعى قوى الاحتجاج لتأسيس وضع جديد يزيح تلك القوى، ويضعها خارج ترتيباته القادمة، لكن كل هذا مرهون بما يمتلكه الطرفان من أدوات للصراع والتأثير تنتج لهما ما يريدان فعله.

الاحتجاج ودلالة شعاراته

برز شعاران في الاحتجاج منذ انطلاقه في 1-2019/10/25، هما "نازل أخذ حقي" و"نريد وطن"، هذان الشعاران يلخصان مضمون الأزمة العراقية منذ 2010 ولغاية الآن؛ فمنذ أزمة اختيار رئيس الوزراء التي استمرت مدة تسعة أشهر، كشفت عن وجود مجتمعين منفصلين يعملان بشكل مستقل عن بعضهما؛ "المجتمع العراقي – مجتمع السلطة من أحزاب وقوى مسلحة"، أخذ الانفصال بينهما ينمو منذ تكرار الأزمات بعد 2010 ولغاية اليوم. يكفي دلالة أن مجتمع السلطة صار له أماكن محدّدة لا يستطيع بقية المجتمع العراقي الوصول اليها أو السكن فيها.

أدى هذا التقابل - الذي يصل إلى مستوى المواجهة - ما بين المجتمع ومجتمع السلطة إلى تغيير في نمط الصراع، وتحويله من نمط خارجي؛ طرفاه النظام والإرهاب، إلى داخلي بين النظام والمجتمع، يؤشر هذا التَّحوُّل اضطراب شرعية النظام لدى المجتمع التي تعني مدى الرضا والقبول عند من يعتقد بصلاحيته لإدارة الدولة، ولذلك بات عامل الانقسام يتحقّق وبأشكال مختلفة، منها سياسي بدأت ملامحه في العام 2012 خلال أزمة سحب الثقة من رئيس الوزراء السابق نوري المالكي؛ التي أظهرت انقساما على مستوى الأطراف السياسية المشاركة في السلطة. وكانت "تمثّل بداية انشطار الهويات القومية والمذهبية انشطاراً سياسياً واجتماعياً، وهو ما يسمّيه علماء السياسة انتقال من سياسة الهوية/ identity pol-tics المذهبية والقومية إلى سياسة القضايا/ issue politics" (1).

كشفت حركة الاحتجاج عن تحوُّل اجتماعي وديموغرافي داخل المجتمع العراقي الذي زاد من الفجوة بين النظام والمجتمع. أغلب الفئات المشاركة في فاعليات الاحتجاج كانت من فئة الشباب المنفصلة عن مرحلة ما قبل 2003. ومنذ تغيير النظام السابق والمجتمع العراقي يواجه أكثر من تغيير اجتماعي، عزّز من تحقُّق الفجوة التي أخذت تتسع بين "المجتمع – النظام"، وحين نراجع دلالة الفجوة التي صاغ معناها عالم الاجتماع الاميركي وليم أوجبرن 1886 - 1959، التي تعني "أن التّغيُّرات التكنولوجية المادية عادة ما تحدث بسرعة أكبر من التّغيُّرات اللامادية أو القيمية في المجتمعات، ما يؤدي إلى حصول فجوة ثقافية، تصيب المجتمعات بمشاكل اجتماعية نتيجة ذلك"، بعد 2003 اختلت أغلب البناءات الاجتماعية "الأسرة، العشيرة، الطائفة" نتيجة التَّحوُّل المادي الذي أخذت مظاهره تنمو بشكل واضح. أشر هذا التَّحوُّل أن المجتمع العراقي باتت لديه أغلب الوسائل الحديثة التي عملت على تشكيل نمط من الحياة مختلف، يتطلب قيماً ومعايير اجتماعية وثقافية، تتقاطع مع ما اعتاد عليه قبل 2003. لقد أوجد التقدم المادي التكنولوجي على حساب الاجتماعي والمعنوي تناميا في عامل اللاتوازن الذي وضع المجتمع العراقي في حالة من الأزمة المتعدّدة الجوانب. وكان أبرزها ارتفاع معدلات الطلاق ونسبة الانتحار وعدم ثقة أفراد المجتمع بمؤسّسات النظام.

حين يصبح اللاتوازن بين "السياسي والاجتماعي" مظهرا حاضرا في أغلب مناحي الحياة الاجتماعية في العراق، يكون دور النظام إعادة التوازن؛ حتى لا

يصل المجتمع إلى مرحلة الربط بين دوام الأزمة وأهلية النظام في معالجتها، ما يؤشر أنَّ النظام وقدراته قد أصبحت تحت طائل الاختبار والصلاحية، وهذا ما عبّرت عنه الاحتجاجات منذ قيامها في العراق العام 2010 ولغاية الآن، ومنذ دخول الصراع بين النظام والمجتمع على امتلاك القدرة والتأثير، الذي رافقه ازدياد حركة الاحتجاج، بات النظام يواجه ثلاثة خيارات:

الأوّل: تقبُّل عملية الإصلاح وإعادة تكييف مؤسّساته مع متطلبات الحالة الاجتماعية العراقية.

الثاني: البقاء ضمن دائرة الأزمة مع تنوع مظاهرها، التي قد تفضي إلى حالة من الانهيار الداخلي، كما حصل في العام 2014 في المؤسّسة العسكرية.

الثالث: الدخول في مرحلة الانسداد التي ربّما تقود إلى شيوع الفوضى وعلى مراحل لتصل إلى حالة الانهيار.

إنّ حالة اللاتوازن التي أصابت النظام منذ 2010، كانت نتيجة الفجوة التي اتسعت بين مجتمع السلطة "قوى سياسية حاكمة" وتشكيلات المجتمع العراقي، إذ كرستها عوامل عمَّقت من تلك الفجوة، يأتي في مقدمتها فقدان قدرة التواصل بين هذا النظام ومجتمعه، ما يؤكد دخول الطرفين في عملية انفصال ظهرت معالمها في حركة الاحتجاج.

الهوامش

1- فالح عبد الجبار – سعد عبد الرزاق، حركة الاحتجاج والمساءلة: نهاية الامتثال بداية المساءلة، بيروت، 2017، ص 9.

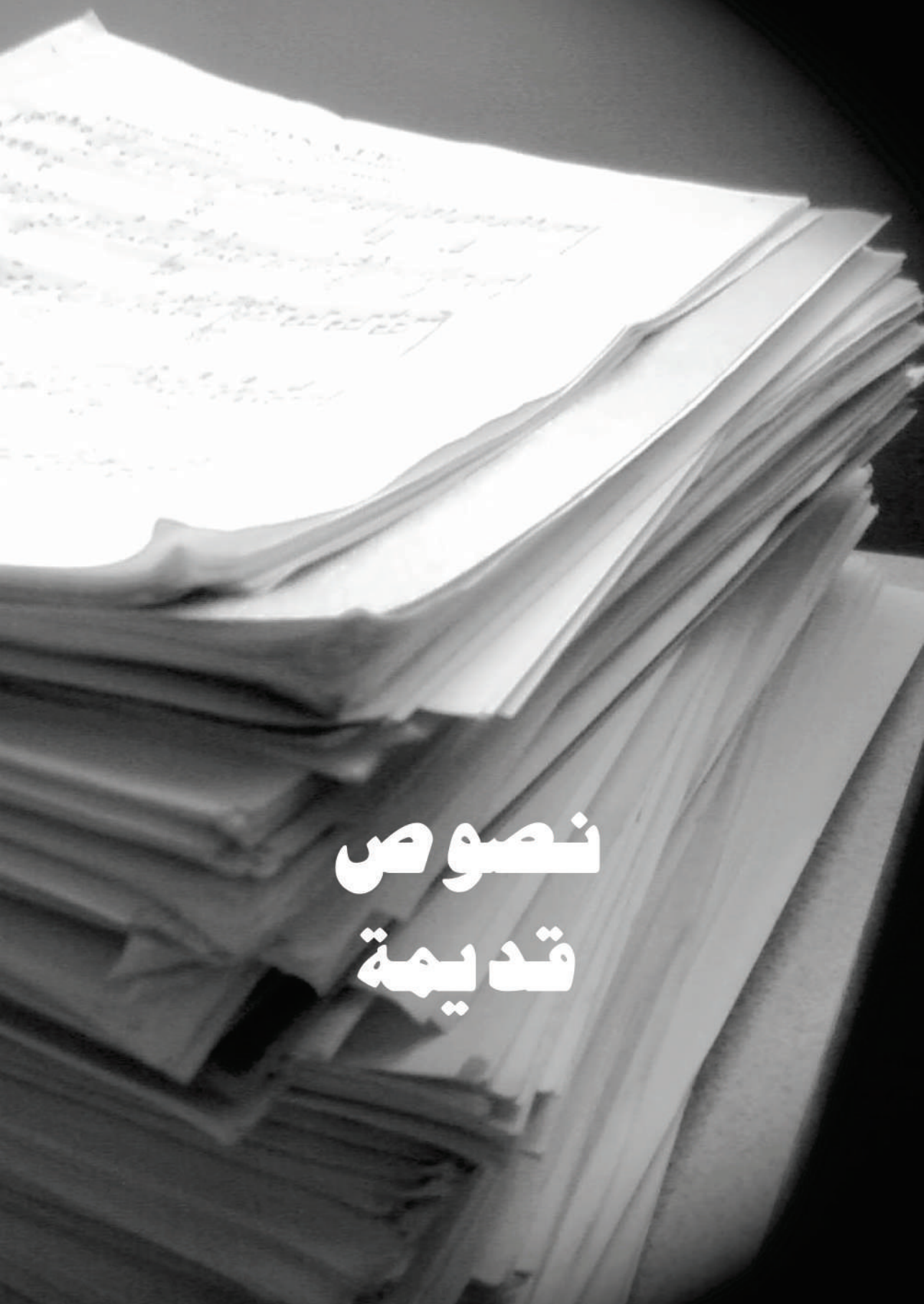

نصوص قديمة

ذكريات من أدب العشرينيات *

حوار مع الأستاذ مصطفى علي

اعداد: د. صفاء الحافظ
سالم المندلاوي

دون موعد سابق، زار صاحب (الثقافة الجديدة) د. صفاء الحافظ، والمحامي سالم المندلاوي دار الأستاذ مصطفى علي، الاديب العراقي المعروف، والوجه الوطني البارز، ووزير العدل في حكومة تموز 1958، حيث يعتكف في اطراف الحارثية ببغداد، يقضي معظم اوقاته في استقبال أصدقائه، وفي العناية بأزاهير وشجيرات حديقته.

تلقى الأستاذ مصطفى علي مندوبي هيئة التحرير ببشاشته المعهودة وجلس يتحدث اليهما على السجية، حديثاً شيقاً عن ذكريات قديمة، يعود معظمها الى أوائل العشرينيات، عندما أصدرت مجموعة من الشباب التقدمي مجلة "الصحيفة". وشنّت حملة واسعة دفاعاً عن المرأة وحقها في مساواة أخيها الرجل.

كان الحوار طبيعياً شاءت الصدفة ان يسجله احد الحاضرين على شريط، آثرنا نقله الى قرائنا، مساهمة من الأستاذ مصطفى علي، ومن (الثقافة الجديدة) في عام المرأة العالمي:

صفاء الحافظ – الرفيق زكي خيري ينقل بعض المعلومات، ربما تذكرك بشيء.. يقول في سنة 1923 أو 1924 كانت توجد جماعة منها محمود احمد، الذي لقب نفسه (بالسيد)، وحسين الرحال، وعوني بكر صدقي، ومصطفى علي، وعبدالله جدوع، وشخص آخر اسمه كمال.. لا يتذكر اسم والده. هؤلاء اصدروا مجلة "الصحيفة"، التي اثارت ضجة حول السفور والحجاب. توجد منها نسخ في مكتبة المتحف العراقي.

مصطفى علي – هذا صحيح.. لكن بدلاً من كمال.. كان سليم فتاح.. اساساً المجلة، كانت أسبوعية صدرت منها ستة أعداد.

صفاء الحافظ – ومن كان رئيساً للتحرير..؟

مصطفى علي – المحرر.. انا – صاحب الامتياز حسين الرحال. هؤلاء الجماعة شاركوا في التحرير: عوني، سليم فتاح، لم يكن هناك كمال.. كان سليم فتاح، قد نشر مقالات في جريدة العراق.. لم ينجز نشرها في هذه الجريدة، الا انه واصل النشر في مجلة الصحيفة.

صفاء الحافظ – هذا يعني ان بداية نشاطكم في جريدة (العراق) لصاحبها غنام.

مصطفى علي – نعم.. هذه الجريدة هي التي التزمت جانبنا. كانت الجريدة الوحيدة التي وقفت الى جانبنا، ولم تكن محايدة.. جريدة (المفيد) لصاحبها إبراهيم حلمي العمر، كانت تنشر للطرفين.. جريدة (العالم العربي) كانت تأخذ ذلك الطرف الآخر، ولو انها نشرت مقالاً لحسين الرحال إلا انها كانت ميالة الى الطرف الآخر. لذا فان الصحيفة التي ساندتنا هي جريدة العراق لرزوق غنام.

صفاء الحافظ – في أي مناسبة صار الجدل؟

مصطفى علي – الجدل دخلناه مدافعين.. لأن القضية الى الآن غير مفهومة، رغم انني شرحتها واوضحتها.. القضية كما يلي:

معزز برتو مديرة مدرسة البارودية الابتدائية للبنات، فتاة تقدمية.. درست في تركيا في إسطنبول.. البيت الذي شغلته مدرسة البنات، كان يعود الى عائلة فهمي المدرس.. هذا البيت كانت تشغله من قبل ذلك مدرسة البارودية للبنين.. اخ فهمي المدرس، وهو جميل المدرس، كان مولعاً بزرع الورود "بالسنادين"، كان يتردد على المدرسة للعناية بازاهيره، ولم يمنعه مدير المدرسة ناجي القشطيني، لأن المدرسة كانت للبنين، ولكن عندما حلت مدرسة البنات محل مدرسة البنين، أراد جميل المدرس مواصلة زيارته، إلا ان المديرة معزز برتو، رفضت الإذن له بالدخول، لأن التقاليد لا تسمح بذلك. زعل جميل المدرس وكتب كلمة ضد معزز برتو، نشرها في جريدة كانت تصدر آنذاك في بغداد اسمها (البدائع)، يصدرها داود العجيل. نشر المقال في عددين.. لم اكن مطلعاً على المقال.. ولكننا كنا حسين الرحال وسليم فتاح وانا، طلاباً في كلية الحقوق. سليم في الثاني وحسين وانا في الأول. وفي صباح يوم باكر، كنا في مقهى

الشابندر، القائمة الآن قرب المحاكم. وما زالت المحاكم هنا، فان هذا المقهى لن يتبدل. دخلت فوجدت توفيق الفكيكي يكتب شيئاً، سألته عما يفعل فقال: انا ارد على (الطبيب الاجتماعي) الذي رد هو الآخر على مقال جميل المدرس (الذي نشر باسم مستعار). اخذت المقال الذي كتبه الطبيب الاجتماعي، وقرأته فوجدته جيداً. قلت لتوفيق: هذا المقال جيد. لماذا ترد عليه، وشرحت له وجهة نظري. قال توفيق: تصورت انك معنا. قلت له: لا انا لست معكم.. ولا تزعلوا اذا قمت بالرد عليكم في حالة نشركم آراءكم. توفيق الفكيكي نشر مقالاً.. هاجم به الطبيب الاجتماعي (سامي شوكت).. وقمت انا بالرد على توفيق. هذه هي بداية المعركة. بعد ذلك قام شخص آخر بتأييد توفيق الفكيكي.. وقع مقالة باسم م.ع.ع. (مصطفى عزت عبدالسلام) أخ محمود عزت عبد السلام وهو متقاعد الآن.. عوني بكر صدقي ردَ على م.ع.ع.

وهكذا انتقل الموضوع من مسألة تعليم البنات على الموسيقى والرقص الخ... الى قضية السفور والحجاب. هكذا انزلقنا الى معركة، لم نفكر فيها في البداية.. كنا نحن بجانب (السفوريين)، والآخرون (الشعب كله الا القليل) كانوا بجانب (الحجابيين). هاجمنا بعض المتزمتين وخطبوا ضدنا.. واحلوا دماءنا لأننا طالبنا بحق المرأة بالسفور.. الجرائد بدأت بهجوم شديد علينا (شتائم).. اضطرت الحكومة بعد مراجعة هؤلاء الأشخاص الى غلق باب النشر. ولكن في الواقع أغلقته بوجهنا فقط، بوجه السفوريين. اطلقت يد الحجابيين وقيدت ايدينا.. واصبحنا مثل الشخص مقيد اليدين، يضرب ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.. شتائم لا توصف.. مثلاً مقالات (مصطفى القاضي) الذي استخدم الفاظاً غير لائقة.. وطالبونا بإخراج امهاتنا واخواتنا سافرات!

سالم المندلاوي - هل كنتم تنشرون باسمكم الصريح يا أبا علاء؟

مصطفى علي - نعم، انا كنت في الواقع انشر بأسماء مستعارة كثيرة.. لكن عندما كانت المسألة تحتدم في النقاش، كنت اخرج باسمي الصريح، ولا اتستر.

هاجمنا بهجت الاثري، إبراهيم ادهم الزهاوي، حسين علي الظريفي.. ملا عبود الكرخي.. آه.. شاعر شعبي.. يؤثر على الشعب اكثر من عندنا.

سالم المندلاوي - نظم فيكم قصيدة؟

مصطفى علي - ثلاث قصائد، واحدة منها المنشورة في الجزء الثالث من ديوان الكرخي (مع كلمة كنت قد نشرتها في حينه). يقول الكرخي:

شوفوا شلون جوگه شعيطها ومعيط
واحد يحلق الشارب وواحد يحف بخيط
بيهم ولد شعره يشبه الخريط
(هذا على عوني).. ضحك..

بعد ذلك صدر مقال بتوقيع (لامعة). ولكن الى يومي هذا لم اعرف هل ان (لامعة) انثى ام رجل متستر بتوقيع مستعار. لقد حاولت كثيراً، لكن لم اعرف الحقيقة. وقد تناولها ملا عبود بقصيدة:

يا اديبه لامعه شعري لنثرك دافعه
. . . . . .
وين لبشر مصطفى والماي بالجره صفى

اما نحن، عندما رأينا ان باب النشر قد

سد بوجهنا، والهجوم يشتد علينا يوماً بعد يوم، قال حسين الرحال: انا عندي امتياز صحيفة، فقررنا إصدارها.

اصدرنا العدد الأول في تشرين الثاني على ما أتذكر 1924.. اصدرناه بهدوء.. لم يشاهد خصومنا، سوى قنبلة رميت عليهم فيها مقالات تتمة لمقالات سليم فتاح.. فيه افتتاحية كتبتها انا، على ما اظن، مقال لحسين الرحال.

عندما صدر العدد الاول من الصحيفة.. سكت الحجابيون كلهم على الاطلاق.. أتذكر ان توفيق الفكيكي شاهدنا على اثره عند محمود حلمي فقال لي:

ولو انكم ضدنا.. الا انني اهنؤكم على هذه المجلة. صدرت الصحيفة فسكت الحجابيون.. استمر النزاع بين الصحيفة، وبين الرجعيين في ذلك الوقت.. تغلبوا علينا بانهم قاومونا مقاومة شديدة.

سالم المندلاوي - باي شكل كانت المقاومة؟

مصطفى علي - لم يسمحوا للصحيفة بالانتشار، من جملة المقاومة ارسلوا الينا اثنين قالا انهما على استعداد لجمع الاشتراكات.. وقعنا وصولات. اخذاها ولم يعودا.. لم نقم ضدهما دعوى.. احدهما لم اره والآخر انتسب الى الجيش. كلنا من المفاليس آنذاك.

صفاء الحافظ ـ لم تكن لديكم موارد مالية؟

مصطفى علي - كلا، انا كنت طالباً. حسين الرحال الوحيد الذي كان في الكمرك. سليم فتاح بدون عمل. اما محمود احمد، فكان مدير تحريرات في متصرفية الديوانية.

سالم المندلاوي ـ محمود احمد المدرس، الرائد الأول للقصة العراقية؟

مصطفى علي - نعم القصاص الأول.. كان يعاضدنا بالمراسلة.. زارنا عدة مرات. كان يكتب اما بتوقيع (م.أ) او باسمه الصريح الواقع. انه غيّر اسمه ثلاث مرات.. نشر قصة في سبيل الزواج بتوقيع محمود المدرس. وبعد ذلك قال انني سوف اغير اسمي، لأن القراء يظنون انني من أقارب فهمي المدرس.. سمى نفسه باسم والده (محمود احمد). والمرة الثالثة وقع باسم: (م.أ. السيد). الحقيقة ان الرجل لم يكن مستقراً على قرار.

صفاء الحافظ ـ ما هو اتجاهه الفكري؟

مصطفى علي - كان يتظاهر بالتقدمية. ويتظاهر بالماركسية. ويتظاهر بالشيوعية. لكن في الحقيقة لا ادري.. كان ينشر عندنا مع السفور وعند غيرنا ضد السفور.

الذي كان مستقراً على رأي هو حسين الرحال. سليم فتاح كان تقدمياً وليس ماركسياً، بالاتجاه الذي ترونه في الصحيفة.. كان يتبع المسألة من النواحي العلمية والنواحي الاجتماعية والسياسية. حسين الرحال ايضاً كان قلقاً، كنتُ بصعوبة احصل منه على المقال.

صفاء الحافظ ـ هل كان حسين الرحال يتحدث عن سفرته الى المانيا؟

مصطفى علي - حسين الرحال اول من سمعت منه عن الماركسية، وكلمة

"شيوعية".. وكلمة الاشتراكية العلمية التي وضعها ماركس.. هو الوحيد الذي سمعت منه هذه الاحاديث. وكنت اتأمل ان يكون له مركز كبير في هذا المضمار، ولكن مع الأسف... لقد توجه الى الوظيفة.

صفاء الحافظ – المعروف عنه انه كان في برلين خلال ثورة 1919ونصب المتاريس.. كان طالباً.. هل حدثكم عن ذلك؟

مصطفى علي – نعم حدثنا.. لقد كان ذكياً ذكاء مفرطاً.. ولكنه لم يأخذ الدراسة بشكل جدي.. عنده دراسات وتتبعات.. لا ينكر ذلك.

صفاء الحافظ-في أي مقهى كنتم تلتقون؟

مصطفى علي – اول ما تعرفت بمحمود السيد وحسين الرحال عام 1920، تعرفت عليهم بواسطة عوني بكر صدقي.. الذي كان طالباً معي في دار المعلمين، ومحمود احمد كان يزوره في هذه الدار. كنا نلتقي في حفلات المولد النبوي، وعزاء الحسين التي كانت تقام في الجوامع قبيل ثورة العشرين، بقصد تحريض الشعب على مقاومة الإنكليز.. كان زعماء الشعب العراقي قد وجدوا طريقة للاجتماع هي طريقة المولد والتعزية.. كان ذلك تمهيداً لثورة العشرين. ملا عثمان الموصلي كان حياً. وجلبوا ايضاً مهدي البصير من الحلة. وبعد قراءات موجزة كان الاجتماع ينقلب الى خطب وقصائد ثورية ضد الاستعمار.. الحفلات التي كانت تقام في بيوت العبادة، كان الغرض منها المناداة باستقلال العراق وطرد الاستعمار.

صفاء الحافظ – كتب احدهم اسمه بطاطة، انه شاهد تقريرا في التحقيقات الجنائية عن مجموعة من الماركسيين هم محمود احمد وحسين الرحال وعوني بكر صدقي ومصطفى علي.. يجتمعون في جامع الحيدرخانة، في غرفة.

مصطفى علي – اذا كانت هناك غرفة في جامع الحيدرخانة لأحد، فهي للسيد احمد ابو محمود، لأنه كان خطيباً في الجامع. اما انا فلم اذهب الى جامع الحيدرخانة ولم ادخل الغرفة ولم اجتمع بأحد هناك. اما هذه التقارير التي ترونها فلا تعتمدوا عليها.. هذه تقارير من جواسيس لا يعرفون شيئاً من الحياة اكثر من ان يقدموا تقريراً حتى يأخذوا اجرة.

صفاء الحافظ – السؤال الذي يسأله الكثيرون.. ما هي بداية الأفكار التقدمية.. بعد الثورة البولشفية.. ما هو تأثير هذه المجموعة من الشباب التقدمي.. وهل كان يجري حديث عنها.. في المقاهي في قنبر علي؟

مصطفى علي – كان يجري حديث حولها دون شك. خاصة حسين الرحال وسليم فتاح. سليم كان يناقش بقوة أفكار ماركس.. لم يكن ضدها ولكنه كان يناقشها.. حسين يرد عليه، ويحتد في كلامه اخيراً.. كانت مقهى النقيب مركزاً لهؤلاء الشباب، حيث يدور جدل و.. كنا بصورة عامة نعرف ان روسيا مزقتها الحرب، ودخل فيها الحلفاء وصارت فيها ثورة يسمونها ثورة أكتوبر وزعيمها اسمه لينين، الذي استطاع ان يخلص البلاد.. إلا اننا لم نعرف مبادئها ومصادرها.

سالم المندلاوي – هل كانت المجلة تهتم بالسفور والحجاب فقط ام عالجت قضايا أخرى؟

مصطفى علي – كلا.. لقد ناقشت نواحي أخرى مثل القضايا الاقتصادية التي كتبها عبدالحميد رفعت بعنوان (متى تنتهي الازمة؟). كان اتجاه رفعت ماركسياً تقدمياً في عام 1924 - 1925. كان يؤيدنا ونلتقي معه. كان في الصف الثاني في كلية الحقوق. ربما كان يحسن اللغة التركية. لكنه بعد ذلك ترك التقدمية الى الوظيفة والقضايا الذاتية.

صفاء الحافظ – من هو عبدالله سرية؟

مصطفى علي – هذا اخ عبد المجيد راغب.

صفاء الحافظ – يقال ان هذا الاخ كان معلماً في المأمونية، وكان اتجاهه ماركسياً.

مصطفى علي – كلا .. عبدالمجيد راغب رجل دين، نزع العمامة وصار يدعو الى التحرر الفكري. ولكنه لم ينتسب الى الماركسية.

صفاء الحافظ – احد طلابه يقول انه هو الذي نبهنا الى الشيوعية والبلشفية.. كان في القراءة هجوم على الشيوعية، الا ان معلمنا نبهنا قائلاً: هذا الكلام لا تصدقوه.

مصطفى علي – عبد المجيد راغب من قنبر علي.. وسمي اخوه عبدالله سرية لانه كان من جمعية سرية.. كانت تأخذ الفلوس من الاغنياء لكي تنشط سياسياً. عبدالله سرية ذهب الى محمود الشابندر وطلب منه نقوداً، وعده بالدفع ونصب له كميناً.. ثم احيل الى المحكمة فحكم عليه مع سيد خليل من باب الشيخ واحمد هدايت.

صفاء الحافظ – هل كان لهذه الجماعة علاقة بمحاولة اغتيال الشيخ عداي الجريان؟

مصطفى علي – قضية عداي قبل ذلك. لقد اطلقت رصاصات من مجهولين على عداي الجريان وسلمان البراك. أصيب سلمان بيده اليسرى وعداي بالحوض. هذه الحادثة صارت في بغداد عام 1924. كان المجلس التأسيسي ينظر المعاهدة مع بريطانيا، وينظر الدستور وقانون الانتخاب.. كان سلمان وعداي مع ابرام المعاهدة. قرر الوطنيون ان يجعلوا منهما واسطة لتأديب غيرهما فقرروا اغتيالهما. أوقفت الحكومة مجموعة من الشباب، منهم قاسم العلوي وعلي محمود وطالب مشتاق وآخرون. بعد ذلك لم يثبت ضدهم شيء.

صفاء الحافظ – علاقتكم بالرصافي تمتد الى أي فترة؟

مصطفى علي – علاقتي بالرصافي تبدأ عندما كنت قرأت له كلمات النشيد المعروف (نحن خواضو غمار الموت).. كان اول نشيد باللغة العربية. قيل لنا انه شعر لشخص اسمه الرصافي. الواقع ان الرصافي كتبه لشاب ضرير فقد بصره في حادث.. قرأنا هذا الشعر. وبعده اخذت اتتبع شعر الرصافي الى ان اتصلت به شخصياً عام 1928.. كانت قصائده مهملة، فاخذتها منه واستنسختها، وعثرت على 12 قصيدة أخرى كانت مفقودة.. كان الرصافي يتحسس آلام الناس لذا كنت ارتاح له.

صفاء الحافظ – ماهي هي علاقتكم بانقلاب 1936؟

مصطفى علي – ليس لي علاقة ببكر صدقي. علاقتي كانت بمحمد علي جواد. كان آمراً للقوة الجوية. كان اصغر مني سناً، ويثق بي الى حد انه اخبرني بالحركة قبل وقوعها. أصبحت عضواً في المجلس لمدة أربعة اشهر.

سالم المندلاوي-ما هي علاقتكم بالاحزاب الوطنية الأخرى كحزب جعفر أبو التمن؟

مصطفى علي – الواقع اننا كنا نؤيد الجانب الوطني، لأن معظم الأحزاب كانت برلمانية – حزب أبو التمن أي الحزب الوطني وحزب الشعب لياسين الهاشمي، وحزب النهضة لمحمد الجرجفي. هذه الاحزاب لم ننتمِ لها.. لكننا كنا ميالين الى الوطنيين. وكلَ حزب او وزير يميل الى تأييد سياسة الإنكليز كنا ضده. الشعب كره الإنكليز، وكل من ايدهم من فيصل وجماعته وانت نازل.

صفاء الحافظ – ولدتم في بغداد؟

مصطفى علي – ولدت في بغداد عام 1900، ودرست في الكتاتيب، كما درس جيلنا ثم التحقت بالمدارس الابتدائية في أواخر العهد العثماني، ثم انتسبت الى دار المعلمين الأولية، واشتغلت معلماً نحو 3 سنوات، والتحقت بالحقوق، وعينت كاتباً للضبط في مجلس الاعيان، وانا طالب في الكلية. كاتب ضبط في مجلس الاعيان، ثم رئيس كتاب في المجلس نفسه. وعينت كاتب عدل وملاحظ ذاتية في وزارة العدل، ثم نائباً عام 1937، والمحاماة الى سنة 1942، وعدت موظفاً في وزارة العدل بصفة مفتش للطابو، ثم مدون قانوني، ومنه الى مديرية الأمور الحقوقية بوزارة المالية، ومنها الى حاكمية البصرة ثم نائب رئيس استئناف البصرة. ثم رئيس محاكم في بعقوبة، ثم مفتش عدلي ثم وزير للعدل عام 1958.. وكان الله يحب المحسنين.

صفاء الحافظ – ماذا كان يشتغل والدكم؟

مصطفى علي – نجار.. وجدي كان فلاحاً جاء الى بغداد، وهو من عشيرة الكروية التي تنتسب الى قيس، وامي من عشيرة الدروبيين.

صفاء الحافظ – سالم المندلاوي – شكراً على حديثكم الشيق.

*** الثقافة الجديدة، العدد 8 /9 آب / ايلول 1975**

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق الاستاذ ناجح المعموري

ولد الاستاذ ناجح المعموري في بابل عام 1944. اكمل دراسته في الحلة. وعين معلما، ولكنه نقل الى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية لاحقا لأسباب سياسية. قاص، وروائي وباحث في مجال الاسطورة والمقدس والتوراة. انتخب منذ عام 2016 رئيسا للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، ومازال. صدرت له العديد من الكتب والبحوث منها: اغنية في قاع ضيق (1969)، موسى واساطير الشرق (2001)، ملحمة كلكامش والتوراة (2009)، الجنس في الاسطورة السومرية (2012)، التوراة وطقوس الجنس المقدس.

بالرغم من انشغالاته الفكرية والبحثية المتنوعة، وارتباطاته الكثيرة بصفته رئيسا لاتحاد الادباء والكتاب في العراق، وافق الاستاذ (ناجح المعموري) على ان نجري معه حوارا فكريا في مجلتنا (الثقافة الجديدة)، وذلك اعتزازا منه وتقديرا للمجلة وتاريخها. وما كانت النية تنعقد ان يكون حوارا بأسئلة محددة، تحول ليصبح سياحة معرفية واسعة. فاستمرت اللقاءات المباشرة والاتصالات الهاتفية، وكانت مرهقة لفرط عفويتها ومتعتها وعذوبتها. وقد زودنا الاستاذ المعموري بعشرات الاوراق المكتوبة بخط يده، وهي اوراق خص بها مجلتنا، اجوبةً ضافية على تساؤلاتنا، بعد ان اخذ علينا عهدا، ان نرجعها بأقرب وقت، لأنها في حقيقتها تمثل مواد خام اولية، لبحوث ودراسات مستقبلية.

وها نحن هنا، اذ ننشر الخلاصات الأعم لما دار بهذه الحوارات، ولما تضمنته الاوراق، يحدونا أمل وحيد، هو ان نقدم لقرائنا مدخلا كافيا ومناسبا ودون اخلال، يُمكنهم من الاطلاع على المشروع الفكري للأستاذ ناجح المعموري.

الثقافة الجديدة: يرتبط الانسان بواقعه عبر آليات صراع، متعددة ومتراكبة ومتغيرة. وبالتالي فإن علاقته بالمقدس كنتاج وكإطار لهذا الواقع هي بالتأكيد علاقة معقدة، وذات تمظهرات متنوعة، خداعة في كثير من الاحيان.

بمعنى اخر، ان علاقة البشر بالمقدس: الأسطورة، والطقس والشعيرة، وغيرها، هي نتاج بنى اجتماعية محددة ومتصارعة. فباسم المقدس، ترتفع الدعوات الى المحبة والخير والسلام من جهة، ومن جهة اخرى تجتمع ارادات على الكره والشر والحرب ايضا.

هل من تعليقات اضافية تساهم في اضاءة هذه القضايا؟ وهل بلغ التقدم المجتمعي والعلمي تلك المرحلة التي تسمح بتضبيط علاقة الانسان بالمقدس؟

الاستاذ المعموري: أمر حتمي جدا ان يرتبط الكائن بقوة مع حياته اليومية، وان يخضعها للمراقبة، عبر النشاط المتمثل بدور الذات وادراكها للصراع والجدل وتراكمات التصرفات، التي تفضي بالنتيجة الى بروز شيء جديد على الأقل، بالإمكان ان نطلق عليه المتتاليات، لتشكل ما يشبه الشبكة الحاوية على الملامح الاجتماعية. ولعل ابرزها هي اللحظة التي تنشأ فيها علاقة مع متخيل، يوفر حماية تتكرس تدريجيا بنشوء ثقافة ذات حضور مقدس. يكون مقدسه الأول انعكاسا لأبرز الظواهر الطبيعية التي تصير مع ما هو جديد، قداسات متعددة، يفرط الكائن بعبادته إليها، وتقديم القرابين والضحايا.

ولعل من اهم تمظهرات ثنائية الكائن والمقدس ترتبط بأوقات محددة من السنة وبالفصول، وما تمنحه الأرض. إنها الاحتفالات والاعياد التي دائما ما تقترن بالعنف لأن الدين يحتاج العنف وتقديم الاضاحي. وقد تعرف عليها الانسان بوقت مبكر، وصاغها عتبة ثقافية جديدة. ومع ان هذا ظل مستمرا، لكنه خضع للتطور. لأنه من غير الممكن القبول بما هو قائم، لأن ما يحصل باستمرار يمثل نوعا من التطور والارتقاء على ما كان سابقا كذاكرة للأفراد والجماعات.

ولأن الثقافة والمعرفة تمثلان كل ما هو مركزي، فهذا ما جعل الكائن متميزا بقدراته على معاينة الحياة، وعلى استمرار التعرف إليها، وحاز بذلك صفته الادمية المميزة له عن الحيوان. ونظرا لأن ما يحصل في الحياة الخارجية هو الجوهري، وللكائن دور بارز فيه، فقد استدعى ذلك بالضرورة نشوء مكونات ثقافية بلورت أنواعا من العلاقات الاجتماعية التي تتشابك مع بعضها البعض الآخر. لقد ظل حضور الجدل مَعلما قاد الانسان بعد ان تبلورت لديه ظاهرة المقدس والايمان به، لان المقدس لا يستمر بسيرورة قداسته اذا تعطل العنف، الدم. لذا نشأت عتبة جديدة استدعاها المقدس بلحظته الأولى، وبرزت الشعائر الدينية والمقدسات التي تمركزت متجوهرة لضروراتها في الحياة اليومية، وظل الانسان مأخوذا بتداولها، وتعزيز التواصل معها، وتحفيز الطقسيات اثناء ما هو جديد، ومثير للانتباه، لان كل ما هو جديد يبدأ عن صراع ثقافي وديني. وهنا برز الصراع بين العناصر الدينية واشتد كثيرا. لأن الفكر/ الوعي لم يكن فكرا

مجرداً، بل هو النابض الحي، وهو كل شيء، هو المبتدأ، وكل ما في الكون حديث عنه وخبر. وأن الذاكرة حافظت على ما انتجه الافراد، بوصفه تكتلا، حاز صفة التاريخ المستوعب لمكونات الدين الكلية، وتطرف بقسوة وعنف من اجل البقاء مع المقدس، ووجوب قبول الانسان به. ان الانسان هو المنفذ للقرابين التي يحتاجها المقدس المتعالي.

لا بد من الإشارة الى ان العتبة البدائية التي كان فيها الدين عتبة العقل ونشوء تمظهرات له، منحت للكائن دورا مركزيا قويا في مبتدأ الحياة وعلاقتها بالمقدس عبر علاقته المبكرة من خلال عناصر التكاثر السحرية، العقائد، الطقوس، الاساطير. وما كان في الابتداء الثقافي ومكونات الديني هي الدال المعبرة عن تفكير الافراد والجماعات.

الملاحظة الجوهرية في هذا السؤال خاصة في التسامي والمحبة والسلم، وهذا امر حقيقي ومهم للغاية تبنته العقائد المبكرة التي كانت فيها الأم الكبرى، هي الالهة العظيمة المنظمة للحياة والنجاح والابتكارات والاختراعات. لذا انا اعتقد بان دور الأم الكبرى، يمثل أعظم الأدوار العظيمة في الحضارة الإنسانية. وأستطيع القول بقناعة تامة، ان للأم الكبرى دورا في بناء عوالم متسامية، ذهبت فيها نحو الجنس المقدس، الرقص، اختراع الخمور، العطور، الأزياء، التجميل.. الخ.

وتضمن السؤال في بدايته، ضرورات نشوء الجدل واهميته وتحقق هذا بسبب التطور الحضاري وابتداء صعود المركز البطرياركي وهيمنته على الأم الكبرى. والدليل على هذه القراءة، الصراعات الدموية التي عرفها العراق القديم، وأبرز الأدلة على ذلك ملحمة كلكامش واسطورة الخليقة البابلية. انا اشك بتحول الدين الى سلطة كونية قادرة على تحقيق السلم والأمان والتعايش مع العالم.

الثقافة الجديدة: كثيرا ما اشرت في ابحاثك ودراساتك، الى ان الاسطورة لا تاريخية بطبيعتها، حتى وان كان لحكاياها ومروياتها تاريخ. وأن وظيفة الرمز في الاسطورة هي نقل الحدث من المجال الارضي الى فضاء الازلية، وتصعيده، الى حقل المقدس. ولشدة اشتباكهما، لا يمكن وضع حد فاصل الا اعتباطا بين الدال والمدلول، بين الرمز والمقدس. فسلطان المقدس متأت من رمزيته العالية. وبالتالي سيصطدم قارئ الاسطورة - والطقس ايضا – دوما بضرورة التعامل مع الرمز.

وكما أوضحت في اكثر من مناسبة، انه وبسبب من هذا التعالي، وهذا التعقيد الرمزي هناك حاجة مستمرة الى ترجمة او تراجم. وكما ان بنية الترميز ونتاجاتها من اساطير وطقوس وشعائر هي نتاج انساني، فإن نظم التفسير والتأويل هي مسؤولية قارئ ما.

في سبيل فهم الرموز وتفسيرها، هناك العديد من القراءات، والتي يمكن ان تصنف الى تلك القراءات التي تكتفي بهتك ستر المقدس، وفضح اسراره وتعرية رموزه، وتلك القراءات الموازية التي تنشد من خلال فك شفرة المقدس، اعادة ربط الانسان بواقعه وشرطه الموضوعي،

وذلك عبر قلب المقلوب. وبين الصنفين شد وجذب كبيران.

هل يمكنكم تعميق هذه الافكار واضاءة جوانبها المختلفة؟

الاستاذ المعموري: يتبدى لي بأن الأسئلة خزان متنوع ومتعدد، وبالتالي ليس من السهولة اللجوء للاختزال او التركيز. ابدأ بالتذكر ان الأسطورة نص تشكل وتبلور متضمنا داخل المكان، واعني المقدس، المعبد، والمزاولات الحاصلة فيه. وقد اشارت العديد من الدراسات الى ان الأسطورة نص مطلق موجود خارج الزمان والتاريخ، وفي هذا الرأي شيء من المبالغة. الحضور الزمني غير شفاف وصعب الإمساك به، ولكن لا يتجاهل التحديد التاريخي والمرحلة الحيوية التي تكشف عن صراع وجدال بين الافراد والجماعات والتي ظلت تتعايش مع صدامات ثقافية خضعت للتنامي. وبرزت تباينات جوهرية بين القوى الاجتماعية التي المح لها السؤال الأول الذي أشار الى ديمومة تواجد المجال الديني وسط شبكات الجدال.

ان تواجد الديني/ المقدس هو جوهر الجدل والتراكم. فشبكة التباين والشد القائمة بين افراد وجماعات تذهب نحو ضرورة التوجه نحو الاتي، للإمام. وهذا فعل/ أفعال معقدة للغاية، ولأن الجدل قوي، كثير الحراك، سيسحب معه المقدس. لكني وعبر الانثروبولوجيا وجدت أن هذا الصراع فيه خطورة، بمعنى البقاء بالعلاقة مع المقدس وبمضامينه الجديدة، ذات المظاهر العنفية. فلا وجود للمقدس بمعزل عن العنف، وعلاقة المقدس بالظواهر الثقافية المغايرة قاسية، ذات طاقة إخضاعية والغائية. وامام مثل هذا الصمود والجبروت الديني يكون دائما متحركا نحو إستقطابات أخرى كثيرة، تمنح فرصا جديدة للعنف، تستدعيها المصالح الثقافية والطقوسية التي تخللت الافراد والجماعات. المقدس، كوجود ثقافي اجتماعي ديني، يتكشف عن حقائق سوسولوجية، تمثل اطاراً معقد العلاقات أحيانا، لكنها كشافة لما يحصل عبر المرايا المجازية والرمزية التي ألمحنا لها. فالرمزيات هي طاقة المقدس وشعائره وطقوسه، وبها تتضح علاقة المقدس وجبروته المتنامي على الافراد والجماعات، مفضية الى تكريس المقدس واعلاء الشأن الشعائري وطقوسه. ويتبدى الدين قوة هائلة ترتبط بالجماعات والمصالح المادية، تقود الحياة العامة نحو الصمت والتدمير من اجل تنامي عنف الطقوس.

اود التذكير ايضا، أن الأسطورة لا تتجاهل مرحلتها الاجتماعية والدينية والتاريخية، لأن الباحث المتتبع لحركة الأسطورة في مرحلة معينة - الحضارة الاكدية - بإمكانه التقاط بذور الجدل وامساك لحظات الصراع والتحولات الجبارة. وهذا ما أكدته ملحمة كلكامش أولا، والتي أعلنت عن ابتداء جدال قوي وصراع عنيف للغاية استوجب من سكان أوروك الإعلان عن احتجاجهم ضد اولى الدكتاتوريات في الشرق. لذا يتحوط المقدس وهنا تتضح انتباهة الاله (انو) حتى تعمق الاحتجاج، لذا طلب من الأم الكبرى (اورورو) ان تخلق شخصا يقف غريما لـ كلكامش. وما يدعم بروز التاريخ وحضوره

بالأسطورة، هو اسطورة الخليقة (حينما كنا في العلى) التي استكملت الصراع العنيف الأول في ملحمة كلكامش. حيث ان (حينما كنا في العلى) هي اسطورة وليست ملحمة، وقد أشرت من قبل الى غياب الدور البشري فيها.

اقترحت الحضارة السومرية انظمة ثقافية ودينية متعددة، أهمها العقائد، الاساطير، الطقوس. وصاغت نسقا دينيا معروفا. فالآلهة، هي التي اوحت للإنسان بالابتكار وابداع انماط العمل المختلفة. وكانت الزراعة اهم تلك العناصر الثقافية التي اضفت عليها الالهة صفة المقدس، وهي ترتبط بعدد من الالهة المعروفة في الحضارة السومرية: أنو، انانيل، اونو، انكي، انانا، عشار، سين. وكان للإله أنكي، دور حيوي ومهم في الخلق والابداع، حيث مكّن الانسان من الاهتداء الى النواميس المشهورة التي شكلت لحظة الحضارة الأولى في بلاد سومر. واذا عدنا للأساطير الخاصة بالآلهة، والماشية والحبوب، والزواج الإلهي وانشيد الطقس الديني، سنجد بأن هذه النصوص قد اكدت على الخصب والتجديد والحياة وتعليم الانسان الزراعة الأولى ومنحه الثقافة. وهي التي جعلت من بلاد سومر مكانا حضاريا جديدا ومهما في فترة 3500 ق.م.

لعب الاله أنكي دورا بارزا في نشوء لحظة ديانة جديدة، واقتراح الخصائص الحضارية التي تشكلت في مدينة اريدو، حيث كان مقر الاله انكي وسيطا لانتقال نواميس الحضارة وعناصرها المعروفة وهي: الجنس، الموسيقى، الكتابة، القوانين، العدل، العمل... الخ.

واستدعت هذه الثقافة اختراع الكتابة المسمارية المعروفة وصورتها التي سبقت كل ما هو معروف في التاريخ، واعتقد بأن تلك اللحظة بلورت، ولأول مرة تعاملت مع الرموز التي اختصرت ما هو كامل في البنية الذهنية، وصارت وسيلة في الاتصال والتبادل، وبالإمكان قراءة تلك الرموز الصورية، سيميائيا، من اجل تواصل العلاقة القائمة بين الرمز ومدلوله الحياتي، الديني. والمحاكاة بين الشيء ورموزه تطورت تدريجيا، حتى وصلت الى التجريد الكلي في مرحلة متقدمة من الحضارة الاكدية التي اخذت من مكونات الابداع والاختراع السومري، وصاغت لغة معروفة.

ومن الرموز الصورية المبكرة، الثور المرتحل من الحياة الى اللغة والثقافة والعقائد والاساطير. ويعتبر الثور اكثر الرموز حضورا ومشاركة في الصوغ الثقافي والديني، ليس في الحضارة السومرية فقط، وانما في كل حضارات الشرق، لسبب بسيط للغاية، وهو علاقة الثور اليومية مع الانسان في الأرض، والزراعة. وتلك أهمية تكرست عقائد وممارسات مقدسة خاصة به. مع ملاحظة تأثر العديد من الثقافات والديانات بالأصل الرمزي للثور في سومر.

الرموز كثيرة الأهمية في سومر وأكد وسوريا وكنعان.. الخ. وهي مقترحات اللغة الصورية الأولى، لأنها تمثيل لما هو موجود في الحياة اليومية. ومن بين الرموز، البقرة، الحمامة، الثور، الافعى، الشجرة، النخلة، ... الخ. وقد ارتبطت هذه الرموز بالنسق الثقافي الامومي، او

ما تعارف عليه بنظام الالوهة المؤنثة، وسلطة الام الكبرى، بحيث صارت رموزها التي اشرنا لها علامات مقدسة، لا يمكن المساس بها أو التي وزعتها. وكان حظ الثور أكثر، وأكثر من الآخر شيوعا. لذا اضفت عليه اللحظة السومرية، ديانة الأم الكبرى قداسة، صفات عديدة مرتبطة بالألوهة الشابة المذكرة، وافضت به الى منطقة الاخصاب والانبعاث، بحيث صار انحيازا للشباب وقوتهم وفتوتهم. ومن تلك التآزرات، التأزرات المتكونة بين الثور والالوهة الشابة مثل ديموزي، تموز، ادونيس، اتيس، ديونيسوس، حورس..الخ. وكذلك العلاقة القائمة بين الثور والبقرة، الثور الذي كان إبنا لها وبالتالي صار زوجا قويا ومقتدرا على الفعل الادخالي والتصدي لكل من حاول استهداف الأم الكبرى. وكلما تطور المجال الحضاري في مكان ما من الشرق، فأن الثور يحوز وظائف السلف، ويقترح لهم ما هو جديد. ولم يخضع الثور الرمزي للمغايرة الدلالية لحظة انتقاله الى حضارة أخرى، مثلما حصل للعديد من الرموز الدينية، مثل الحمامة، الشجرة، النخلة، الافعى. هذه الرموز التي استعادتها المجالات الثقافية، والدينية الجديدة، لكنها اقترحت لها وظائف جديدة ومختلفة الا الثور فقد بقي ثابتا في وظيفته الحياتية والدينية وتكرس كثيرا في ديانات سومر، واكد. واوجد المعنى الرمزي لهذا الحيوان تعبيرا في شعائر الثور التي انتشرت في انحاء الأرض. في إلقاء البذور، كان الثور مخضبا بقوة الحياة، ويحمل ماءها، ولأهمية الفيضان في خصوبة الأرض كان من الممكن ظهوره في صورة ثور.

هذه المركزية الطاغية، ميّزت الثور واكثر الرموز الأخرى، وكانت تبدياته واسعة في الفن السومري، الاكدي، عبر الاختام والاعمال النحتية حتى لحظة الحضارة الاشورية، التي اضفت على الثور عناصر مقدسة ومنحته صفة متعالية. ولذلك ـ لأسباب موضوعية مرتبطة مع طبيعة الحضارة الاشورية التوسعية والاستيطانية ـ اضفت عليه عناصر القوة الخارقة.

كلما تعددت القراءة وتنوعت التأويلات فأن القراءة لن تكون مفارقة عن تلك التي سبقتها، بل حاضنة لبعض عناصرها. ومن هنا يتكون الجديد الحاصل على خصائص الإشارة. والفن العراقي القديم، فن تدويني، كتابي، تفاصيليه علامات ورموز، إشارات، وشفرات.

هذا التنوع هو الذي رسم مساحة واسعة جدا للثور في ثقافات وديانات الشرق القديمة، وتعمقت دلالته الرمزية والحياتية، والمادية. وما يهمنا هنا الرأي وما ينطوي عليه الرمز الخاص بالثور، حيث ساهم رمز الثور في انتاج وصياغة الذاكرة الجمعية، وصنع هوية الجماعات والأعراف. الذاكرة سواء كانت فردية او جماعية، تعمل بشكل رمزي، وهي على الاصح تستعين من عوالم رمزية وتلامس في اقاصيها المنسية انساقا لا شعورية أو رمزية. فلا مماهاة إلا عبر الرمز، لأن الرمز يربط بين الأشخاص، كما يربط العقل بين الأشياء.

من هنا ابتكرت الديانات القديمة رموزها، وظلت مهيمنة على العناصر الدينية كلها، ومن غير الممكن تجريد

العقائد، والطقوس، والمزاولات السحرية من رمزيتها. لأننا اذا تمكنا من ذلك، فإن الممارسات الدينية تتعثر ولن تتمكن من الاستمرار والبقاء. وأحد اهم العوامل المساعدة على البقاء، الارتحال، الاحتفاظ بالعلاقة الرمزية هو طاقتها الرامزة والانفتاح على المعاني الجديدة. لقد حاز النظام الثقافي الجديد، الانساق الرمزية القائمة قبلا، وهو قادر أيضا على الاحتفاظ بها، واجراء تفسير لها، يخلصها من دلالة سابقة، ويضفي عليها معنى جديدا، مغايرا ومختلفا بالكامل. من هنا تحولت الذاكرة الجماعية الى ما يشبه الذاكرة الأسطورية. انها ليست ذاكرة سردية تستعيد الوقائع، على نحو ما تفعل ذاكرة المؤرخ. وانما تستعيد الاحداث بشكل رمزي وتقرأ الماضي حسب منطق الرغبة وشفرة المخيلة والحلم. ولم تكن الرموز مجرد علامات صرفة على الاستياء، اذ لا تطابق بين الرموز والدال والمدلول وبين الأشياء والكلمات. الرموز دلالات لا تنضب واحالات لا تتوقف، وهي لا تشير الى مضامين شعرية، بقدر ما ترد الى مضامين باطنية ومنسية ولذلك، تعيد الذاكرة الجماعية بناء الوقائع من جديد.

وقراءة الرموز الأسطورية والنبش في مراحل تشكلاتها الدينية ستضيء لنا العلاقة المباشرة بين الحياة والرمز، بين الدال والمدلول. أي انها محاولات جادة للمحاكاة والتصوير. واستلمت بعض الرموز خاصيات ما موجود في الحياة. وحاز الرمز وظائفه الحياتية، ارتضت ان تكون دينية. ومن تلك الرموز ما كان مقترنا بالألوهة المؤنثة على سبيل المثال، ومنها الافعى، الحمامة، البقرة، النخلة، الغزالة، الصفصاف،... الخ.

وعودة الى الحاضنة التي صاغت هذه الرموز، سنجد بأنها أمومية ومرتبطة بثقافة المرأة حصرا. وانتجت المراحل الدينية عقائدها وطقوسها وشعائرها متمحورة حول رموزها، لأن الرمز لا يقوى على مقاومة الجذب المحيطي ويتحول الى مركز، وعلامة مختصرة للكثير الذي تحول مدينة للألوهة المؤنثة كما في الاختام الاسطوانية، التي حفظت لنا كثيرا من الرموز، والعلامات، وسجلت كثيرا من الوقائع الدينية الخاصة بالآلهة وصارت مدونات، ساعدت على معرفة مراحل مهمة من تاريخ العراق وديانته. ولم تكن الاختام نموذجا فنيا مبكرا عرفته الحضارة العراقية، وانما هي مدونات صورية. عكست النموذج التمثيلي لما هو كائن في الحياة. وعودة الى الاختام الاسطوانية سنجد بانها أكثر استجابة لضغوط المراحل الحضارية وتكيفا لمتطلباتها الثقافية وهذا جعل الاختام مختلفة في مرحلة عن الأخرى، والاختلاف متأت من نشوء لحظات دينية جديدة، وغياب أخرى، والحضور والغياب، يعني صعود واختفاء الرموز من النسق الديني. ويعبر عن ذلك بواسطة الرموز. من هنا اكتسبت الرموز صفتها النمطية الأولى، لأنها نماذج بكرية الأولى، وذات دور تأسيسي في الثقافة، الدين، وهي أيضا مكونة للأساطير ومتمركزة في الطقوس. واستمرار وجود الرمز في الاختام يعني بقاءه في التبادل الاتصالي، ومؤثرا بطاقته

الدلالية على الوجدان الجمعي، بحيث ارتضى وجوده مستمرا في الحياة، والدين. وهذا وحده يفسر استمراره في المدونات، الاختام الاسطوانية. وبالإمكان الإشارة الى الضرروات التي استوجبت رمز ما وبقاءه في نظام ثقافي، او ديني مستمرا في التبادل والارتحال، وما يمنح الرمز الديني وظيفته هو الوجدان الشعبي الذي ارتضى به وظل متعاملا معه باعتباره جزءا أساسيا من العقائد. وهذا وحده يوفر للرمز مساحة البقاء والاستمرار. وينطوي بقاء الرموز التأسيسية على الاتصال والانقطاع معا، حيث تؤلف الصور نوافذ، كما نطل منها على عالم يتجاوز التاريخ، ليست أدنى من سواها، اذ بفضلها يمكن لمختلف التواريخ ان تقدم ما عندها وان تقيم جسور الاتصال.

ومن الممكن ان تكون الاختام وما تحتويه من رموز وعلامات مجموعة من الصور المفتوحة على فضاءات ثقافية عديدة، تومئ لمجالات حضارية محددة، لان الصور مدونات حافظة للثقافة والدين وفلسفتها معا. والصور كما هو معروف اسبق من الثقافة، وهي الركيزة الأولى الدالة على ما كان سائدا في تاريخ ما وهي باقية حية باستمرار، وبإمكان الانسان، من أي مكان ادراك دلالتها.

وفي اللحظة التي انهارت فيها الأم الكبرى، وتدهورت سلطة الالوهة المؤنثة، انهارت معها رموزها التي صاغت ثقافة، والتي ظلت ممتدة في التاريخ ومكونة للبنية الذهنية. وفي مثل هذه الانهيارات التي عرفتها ديانات الشرق القديم، لم يحصل شطب كلي وكامل على النماذج الرمزية الأولى، بل ظلت مستمرة على الرغم من اختلاف النظام الثقافي، والديني أيضا. وليس سهلا على الشطب والمسح من نماذج مبكرة والانماط الأولى، لأنها عاشت آلاف السنين، وتكرست عبر الاتصالات والتدوين والعقائد والاساطير. لكن ما حصل هو انحراف، وتغيير المعنى.

وصعدت رموز الالوهة المذكرة بديلاً. وقد اجرت الالوهة المذكرة على رموز المرحلة التي سبقتها تطويرا وتغييرا على معناها: الافعى كانت في النسق الاموي رمزا دالا عليها، وتنطوي على مقاومة الافناء وقابلية التجدد والبقاء سنويا، متماهية مع الالوهة المؤنثة، وعندما انهارت الحاضنة المنتجة لهذه الدالة تشكلت حاضنة جديدة، هي النسق الذكوري، الذي جعل من الافعى رمزا قضيبيا، وبه افتخرت الذكورة، لان شكل الافعى/ قضيبي مقتحم. وهكذا حال الرموز الأخرى في صراع عبر المراحل الثقافية، الدينية. فالتبادل الحاصل كاشف عن اختلافات في العناصر الدينية، والمغايرة تضاد عن صراع محسوم، لا بد من الإعلان عنه بواسطة الرمز والطقس والاساطير. ولولا تمركزها في النصوص، والعقائد، والطقوس، لانهارت سريعا في لحظة الانقطاع. لكن هذه الرموز ظلت باقية وبوظائف جديدة، فالمهم هو القبول بتداولها واضفاء متن اسطوري جديد عليها، وهذا ما يجعل من الرمز فعالية متحركة وغير ساكنة، صاغته النماذج البشرية الأولى في التاريخ.

ان دلالة رمزية - الثور مثلا - ليست ثابتة، بل هي مرنة ولم تكن متطابقة مع المعنى الذي أسسته المجتمعات او

اقترحته المؤسسات المختلفة الدينية، السياسية، والاجتماعية، الاقتصادية. لذا نجد عبر الحضارة الواحدة انفتاحا في معنى الرمز واحتوائه على دلالة إضافية، اقترحها المخيال بما له علاقة مع التمثلات والتصورات المجتمعية. وهذا الذي جعل لكل اله رمزا ونظاما ثقافيا ودينيا، وصاغ منظومة كلية للألوهة. واعني بها الألوهة الشابة المذكرة المتميزة بطاقة جسدية، وقدرة خارقة على الاخصاب وتحقيق الانبعاث والبقاء على الحياة. فالرمز الخاص في الأسطورة والديانات القديمة والمطروح في التبادل هو رمز قصدي، انتجته احدى المؤسسات، وهي مؤسسة الكهنة وسلطتها المعبدية. وذلك لأن الرموز وظائف ثقافية ودينية توفر فرصا اكبر لتفعيل الطقوس والشعائر والمزاولات اللحظية والدينية كالأعياد واحتفالات الزواج، وتحقق الخصب البشري او الطبيعي.

الرمز كنتاج مؤسساتي، مرتبط بالواقع ومنفصل عنه في آن، لكنه يظل متجاورا لا بل ملتصق مع المتخيل، لأنه لا يكون رمزا بمعزل عن المخيال. انه المخيال المنتج لما هو واقعي ومنضبط او متشظي، وبالتالي تكون للرمز وظائف قريبة من الواقعي/ الديني، فكلاهما منتجان للمخيال ومؤسساته بما في ذلك اليوتوبيا. وفعالية المخيال مرتبطة بالواقع ومنفصلة عنه، فينبغي للمتخيل ان يستخدم الرمزي، ليس فقط من اجل ان يعبر عن نفسه، وهذا امر مفروغ منه، بل من اجل ان يوجد أي ان ينتقل من الكمون الى شيء آخر أيا يكن.

يكون المجتمع في كل مرة نسقه الرمزي، في اتجاه مختلف عما في مقدور الفرد ان يفعله، ولكن هذا التكوين ليس حرا بل ينبغي عليه أيضا ان يستمد مادته مما هو قائم سابقا. فكل رمزية تبنى على أنقاض بناءات رمزية سابقة لها، وتستخدم موادها.

ورمزية الالوهة المذكرة او المؤنثة في الديانة السومرية ارتحلت الى الاكدية والبابلية والاشورية، لكنها فقدت بعضا من طبقاتها الثقافية والدينية وحازت خصائص جديدة. وهذا واضح بالنسبة لكل الالهة وان ظهر تغيير بسيط عبر حيازة عناصر إضافية، فقدت بعضا مما هو قديم.

الثقافة الجديدة: ترتبط قصائد الخلق في اغلب الثقافات بفعل الشق. ربما في البدء كان الانشقاق. وهذا الفعل غالبا ما يقترن بفعل آخر: التضحية/ القتل. وعنهما تولدت ثنائيات: الضوء/ الظلام: السماء/ الارض، الموت/ الخلود، الذكورة/ الانوثة.

وقد لاحقت في دراساتك الغنية عن الاساطير الثنائية الجنسانية كثيرا، ونقبت كثيرا عن اشارتها وعن الجنس المقدس في حضن الطقس الديني. واشتغلت كثيرا في محاولة فك شبكاتها الرمزية، سواء في اساطير سومر وبابل او في قصص أرض كنعان. وقد اشرت في احدى مقابلاتك المنشورة انك اكتشفت ان هذه الثنائية (الانوثة/ الذكورة) بمعناها الجنساني هي الجوهر الاشكالي في الاساطير والملاحم مقابل الثنائيات الاخرى، خصوصا ثنائية الحياة (الموت/الخلود).

فهل من تعليقات اضافية تساهم في اضاءة هذه القضايا؟

الاستاذ المعموري: ان مصطلح (الشق) الذي تضمنه السؤال والخاص بملاحم الخلق والتكوين، ينطوي على مفهوم اجرائي خاص، وهو يرتبط بمحاورة الخلق والتكوين. وكذلك يرتبط بثنائية وجدلية الانوثة والذكورة. فالمثير في هذا السؤال هو سعيه للدخول مباشرة في البنية الفنية الخاصة في اسطورة الخليقة البابلية (حينما كنا في العلى) لأنها ستقود الحوار الى تلك المصفوفة المعرفية التي كنتُ قد ركزت عليها في بحوثي ودراساتي وكتبي المعنية بالأسطورة وثنائية الجدل الثقافي والديني.

اول من ترجم هذه الأسطورة حينما كنا في العلى، العالم المعروف (جورج سيمث) عام 1976 تحت عنوان رقيم الخليقة السبعة، وهي أطول نص ادبي عرفه العراق القديم وقد أثارت جدلا طويلا لما انطوت عليه من أفكار وقيم ومفاهيم تكشف عن البنية الذهنية الاطوارية العراقية، وكيف تعاملت مع الحياة والكون. هذه الأسطورة، تمثل الذروة التي شهدتها مرحلة العصر البابلي. حيث كشفت هذه الأسطورة عن أسلوب التدوين الشعري الذي ميزته الصفة الشعبية الدرامية.

وقد ساعدت هذه الالواح السبعة على تقديم تعريف مكتوب بالشعر البابلي، لكنها لم تتجاهل كليا عناصر وعتبات سومر التي هي اقدم عتبة في تاريخ العراق القديم. ان الحدث المركزي تدور تفاصيله حول دور الاله (مردوخ) الاله القومي لمدينة بابل، مع تقديم اضاءات خاصة في بابل، عاصمة الملك حمورابي الواسعة منذ 1792 – 1750ق.م. في نسختهم المدونة قام الاشوريون باستبدال هذا الاله بآله اشور. والمثير ان النموذجين ذهبا الى الشعر في تدوين هذه الأسطورة، مع ان بعض المقاطع كتبت بالنثر الادبي، وكانت ملفتة للانتباه لقوة الابداع وطاقة البراعة وجمال التوصيف. إن ملحمة اسطورة الخليقة البابلية تمركزت حول اهم الطقوس/ الاعياد المعنية بنظام الخصوبة. كما انها بعنصر ما يسمى الوجود الجوهري، وايضا بنظام الالهة، والآلية التي وظفت لخلق الكائن/ الانسان، والذهاب نحو عقائد خاصة بأصل الحكم ومكونات العلاقات وبلورة انظمة المجتمع سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، وانفتاح منظومة الحكم وتكوينات الجماعات والاسرة. وقد استجابت الكثير من الثقافات لتأثير هذه الاسطورة. وهذا ما يتكشف عند تفحص التوراة. لكن الدليل الاكثر وضوحا على تأثير هذه الاسطورة، هو الانظمة الخاصة بالآلهة والعقائد والطقوس وبعض الاصول التي عرفتها الديانات البدائية، ومنها بلاد الاغريق.

الخليقة البابلية، لحظة صراع عنيف ثقافي وديني وسياسي بين الالهة الكبار وأولئك الصغار. والدور الذي كانت تقوده الأم الكبرى (تيامن)، آلهة العماء وقد دخلت الصراع الدموي مع السلطة البطرياركية الناشئة كنظام وجودي، استدعته تطورات الانظمة الحياتية. ولم يجد ضرورات التغيير غير الإله مردوخ الشاب، الاله الزراعي الوافد من بلاد الاموريين، للدخول بصراع دموي مع الآلهة تيامن، بعد دعم اكثر من خمسين إلها. فهم مردوخ عناصرهم ومكوناتهم الثقافية وخصائصهم

الدينية، لذا تسلح بأهم ما لدى الآلهة الكبار في العراق القديم، واستطاع الانتصار على تيامن، وقد تحول الاله الشاب المغادر لصفته الزراعية، وصار بطلا كبيرا، اسس لحظة التحول الكبير وحاز صفته الرمزية. ومنحته الآلهة صفة سحرية، وجعل طاقته الكلمة لحظة نطقها، حيث يتغير كل شيء يريده. انه كما قال صموئيل نوح كريمر، القوة الكبرى التي تمتلك الطاقة، ويبتكر الانتصار المركزي المانح له صفة القائد الفذ والبطل الذي لا يشبهه احد من قبل، كمظهر عن انتصار البطل مردوخ عن تكوين مكون من: السماء، الارض ، العالم الاسفل.

لقد ساهمت هذه الاسطورة بخلق نظام فكري متكامل، نجح في استيعاب قلق الانسان الوجودي وتوقه الابدي لكشف العيوب التي تبدو في محيطه. لقد نجحت في رسم لوحة متكاملة للوجود، وهي تثبت بجدارة وبشكل عقلاني، ان فكرة الخلق ما هي إلا عملية متكاملة ودقيقة لاستخلاص النظام من حالة فوضى كبيرة موجودة من العدم، تحيط به وتحاول وضعه في مدار متاهة. وما تمثله اسطورة الخليقة البابلية هو تكريس التفويض وانهيار سلطة الأم وتسامي الحضور الذكوري، وتمثيلية الاله مردوخ، الاله القومي للإمبراطورية ونشوء عتبة التفريد الدينية، وتلاشي تعددات وتنوعات الآلهة. اعتقد بان انهيار (تيامين) افضى الى تفكيك الخطاب الامومي حتى هذه اللحظة. انا اول من اثار الانتباه الى ان الالهة الشباب/ مردوخ قاد الى التحديث وحقق التغيير الجوهري، وهنا دخل المقدس وسط فضاء مختلف، ربما سترد اشارات جديدة اهمها سيادة العنف حتى تخندقت الهيمنة والاخضاع والدم في التفريد الجديد، الذي قاد واسس مرحلة جديدة استحدثت ما هو جديد.

توصلتُ ضمن مشروعي الثقافي والمعرفي الخاص بملحمة جلجامش وتحت عنوان حديث نسبيا انذاك "المسكوت عنه في ملحمة جلجامش" الى ان التفاصيل البنائية الدرامية، كانت تعبيرا عن نشوء بذرة صغيرة عن الجدل الثقافي بين سلطتين هما الذكورية/ البطرياركية/ كلكامش، وبين خطاب الأم الكبرى/ ارورو ومعها الالوهة المؤنثة.

ولم يكن صحيحا الادعاء بان الصراع الناشئ بين جلجامش وانكيدو او بين الملك والآلهة انانا/ عشتار يرتبط فقط بحيازة الخلود. نعم، انه احد عناصر الصراع. في الحقيقة ان كل تفاصيل الصراع في ملحمة كلكامش، تمثل صعودا اجتماعيا وسياسيا ودينيا للسلطة البطرياركية، وتفكك خطاب الام. فلقد عرفت ديانة العراق القديم خطاب وثقافة الذكورة، بعد انهيار سلطة الالوهة المؤنثة وسيادة البطريركية، وذهبت منذ تلك المرحلة نحو العنف والدموية. كان تعبيرا عن نمو تصاعدي حتى تحقق التفجر، وقد كشف التاريخ عبر سردياته التي ظلت كامنة بخزان الذاكرة عن ثقافة ضاغطة وقوية، استجابت لها الآلهة المؤنثة، ولم تستطع مقاومتها. والدال على ذلك صراع الآلهة عشتار مع كلكامش وانكيدو بعد عودتهما من غابة الارز وتمكنهما من الانتصار على رمزها (الثور) الدال عليها. وما حصل في الملحمة كاف على اتضاح النظام الثقافي والديني حتى اختصر

المرحلة الحضارية بالكامل. وقد اختتمت ملحمة الخليقة البابلية الجدل وانتهى بقتل الأم تيامن ووضعت حدا نهائيا لسلطتها.

واستطيع القول، ان العنف والقسوة وثقافة الازاحة والاخضاع هي ثقافة انتجتها الافراد والجماعات وتعاملت معها تراثا موروثا، وصارت هوية لها، لأنها نوع من الثبات، فالثقافة الراسخة هي الباقية. فلا نستطيع تجاهل العنف باعتباره نوعا ثقافيا في التداول اليومي المألوف والمعروف، منذ البيت ـ فضاؤه الاولي ـ وامتدادا للمعبد والامكنة الاخرى. ان تاريخ العنف ليس ثابتا بل متحرك بالتدريج، ويحوز طاقات قوة اضافية، تعطيه قوة طاقة، ولا وجود لما هو خطير اكثر من الثقافة النامية باستمرار من خلال سحريات وعقائد وطقوس ورمزيات. حتى ارتضى الكائن ان يصير رمزا قائما وساكنا من الرموز. الثقافة لا ترتضي تمثيل من هو اقوى حضورا في الحياة، وترتضي بقبوله كليا، وتجاهل عنفها وتعدد سلطتها، الممثل لها بالأنظمة الاقوى، موظفة ارادة ثقافتها المألوفة والراضية بالاتصال المعروف والتداول اليومي. فلا توجد ثقافة بعيدا عن الزمان ومتمردة على التاريخ وطافرة عن الذاكرة، وهذا امر مستحيل.

اقرت العلوم الاجتماعية استحالة وجود حياة معزولة، لأنها لا تستطيع التطور والنمو وتحقق تكاملها. لكل حياة ذاكرة، وتاريخها شابه التشوش لأنها تدرك استحالة السكون. ولأن هذه الفلسفة متداولة يختزنها العقل، لكنها كضرورة، ومن اجل ديمومتها، لا بد من تعريفها بالتفاصيل التي تجعلها قريبة من الجماعات وتشجعها على التشارك بها، والذي باستمرار ينجح الفرز، فلا وجود لجماعة بدون ذاكرة وإرث. فلا وجود لجماعة بشرية تحيا خارج التاريخ والزمان، مهما كان شكل اجتماعها ونمط عيشها وطريقة تفكيرها. ان الزمان يدرك ويستعاد بالذاكرة. ولأن الانسان كائن يتذكر والذاكرة أهم ما يميزنا عن الجمادات. فالذاكرة هي الباقية، ولا شيء يبقى سوى التاريخ. والتاريخ مرويات محفوظة في خزانات الانسان.

ان جدل الثقافات ضرورة لديمومتها وتنقيتها، ولتحقيق خيارات جديدة ومغايرة، وتنجح بتشكيل جماعات لها. والحاقا لما ذكرنا عن ذاكرات الثقافة وخزاناتها، تضطر الضرورات كينونة الجماعة التي تشكلت بقوة موروثاتها وتناميها للدفاع عن ذلك، لأنها تتعامل مع الموروث طاقة كامنة والوعي واللاوعي الممثل للسلف، وهذا احد الاسباب المفضية للقتال والعنف بين المواقع الجغرافية في خارطة واحدة، تمثل وطنا وظلت خزانات الذاكرة فاعلة في توليد حنين للمكان، الذي كان مولد المرويات التي صاغتها سلالات العائلة، وليس سهلا التخلي عنها. وانا واثق بان المواقع المشوهة في الجغرافيا، ستظل قلقة من أجل استعادة نظافتها وارتفاع أصواتها.

ومعروف بان المقدس يحفز طقوسه وعقائده العنيفة ويتحول الى عنف فيه دماء وخسارات وانهيارات نفسية واجتماعية. وتجند السلطة المعبد لتحويل المزاولات الى ايديولوجيا. وصار الدم علامة على اهمية المقدس، واستمرار حضوره في الحياة. وانا اعتقد من خلال الأنثروبولوجيا

أن المقدس هاو للعنف، ومغرم بالدم على الرغم من انه استطاع بعد زمن طويل من التخلص من القرابين البشرية والتحول الى الحيواني. لكن لم تستطع بعض الجماعات الابتعاد كليا عن القربان البشري، فذهبت نحو التضحية الجزئية من جسم الكائن الحي. نستطيع القول بديمومة العنف الذي اتخذ صفة السائل، منذ قديم الزمان، الذي انهارت فيه سلطة الالهة الام الكبرى، واستمرار العنف سيرورة له، تفضي للخلخلة والتشظي.

اكرر مرة ثانية أهمية هذا السؤال القريب من مشروعي الثقافي المعرفي ومحاولاتي العديدة والمتنوعة من خلال البحوث والدراسات الكثيرة حول سلطة الأم الكبرى، وخطابها، والتحولات التي تحصل في عمق السلطة وتكتيكات الثقافة الأمومية، التي فوجئت بنوع من الصراع والعنف، الذي يستدعي اهتماما منا للتقرب منه. ان المقدس من لحظة انهيار سلطة الأمومة الأولى، وتناهت الى استجابة لتدفق القتل في الأم، التي خلقت العديد من الآلهة. ولعل ابرز الملامح المختزنة بالذاكرة البشرية هي صراعات القوة، والاخضاع الى آلهة الذكور والانوثة والتي انتهت بانهيار الأم، وصعود الثقافة الذكورية.

الثقافة الجديدة: تنقلتم من كتابة القصة والرواية، مرورا بالنقد، الى دراسة المجتمعات القديمة والاساطير ورموزها الميثولوجية. لحظات مفصلية، في مسيرة حافلة بالابداع الادبي والفكري الغزير. في أي من هذه المحطات وجدت ذاتك؟

من جهة اخرى، برأيك كيف ينظر قراؤك ومتابعوك لهذه الانتقالات الغنية؟ وبصراحة تخص بها مجلة (الثقافة الجديدة).. هل حاولت يوما تفسير هذا التنوع؟

الاستاذ المعموري: هذا السؤال كان حاضراً باستمرار، خلال الحوارات سواء كانت الصحفية او المعرفية. ودائما ما أكون سعيدا بهذا السؤال الدال على خبرة المحاور والكاشف عما يتمتع به من ذكاء. فهذا السؤال يضيء ويتابع اهتماماتي وانشغالاتي الادبية والثقافية، وحرصي على ملاحقة الجمال، ومواقفي من فلسفة الجمال، واعني بها التشكيل والفوتوغرافيا، ورموز الجسد الانثوي المتمركزة في الثقافة الشعبية.

اول اهتمام لي كان كتابة القصة. وكان مدرسي الفذ المرحوم (سعدي علوش) في دراستي المتوسطة، هو من بذر فيّ العشق والوله بالأدب والسياسة وعمّقها في ذاتي. وقد بذلت جهدا جبارا من اجل المحافظة على المعنى الثقافي والسياسي. وتجوهر باستمرار حتى الآن وانا متباه، ومن حقي ان اعترف بالنتائج التي حصدتها، واني بقيت نظيف اليد، ولم اتقرب من السلطة أبدا، حتى يبقى قميصي الابيض نظيفا. وبالتالي، كان لضغط السلطة زمن النظام الدكتاتوري دور في توجهي نحو القصة والرواية. وقد ساعدتني التعدادات الثقافية والادبية المتنوعة على الخلاص. لُذت بهدوء بملحمة كلكامش بوصفها مشروعا ثقافيا ومعرفيا حتى قادتني نحو ما هو اعمق من حفريات مثل الدين البدائي والمقدس

ومعانيه وحضوراته. والصراع العنيف الحاصل بين تنوعات المقدس، وكيف تأسست مجالات الدين وثقافته العنيفة التي دائما ما تفضي الى الدموية.

وقادني ولعي الى الاقتراب من الفلسفة، التي منحتني اهم الفرص لاكتشاف الأسطورة والطقوس كأبرز التمثيلات المتخيلة التي انتجتها الجماعات. وتعاملت معها باعتبارها حاضرا وموروثا ومقيما بالمستقبل. وهذا التداخل الشبكي والرمزي وفّر لي فرصا ثمينة، اقتربت منها وتجاورت معها، واغتنت بها تجربتي الثقافية التي عدتها الفلسفة. ومن تلك المفاهيم إرادة الذاكرة، المخيال، المثقف والسلطة، اختراقات المقدس، السرديات، التاريخانية، النقد الثقافي، الدراسات الثقافية، فلسفة التأويل. وايضا جماليات الجسد الانثوي عبر تفاصيل الوشم والازياء والعطور والغناء اللّذي. يضاف لها كل مكونات الثقافة الشعبية، مثل النكتة بوصفها سردا، والسرد المسموع، الرقص وتحفيز الجسد، الطعام والمطبخ، وتشكلات الثقافة، وصراع الجماعات والعنف.. الخ. ولعل توصلي الى افكار (هيردر) الفلسفية والاجتماعية كانت مثل الديناميت الذي فجر ما هو عميق في ذاكرتي، وحصرا دور الاغنية الشعبية المختزنة بذاكرة الجماعات منذ مئات السنين.

تضمن هذا السؤال المثير، اشارة أين انا من جميع الاهتمامات التي تحدثتُ عنها وحولها؟ المتابع لنشاطي الأسبوعي، وما انشره في (المدى) و(الصباح) يضيء بأني معني بكل ما ذكرت. أستطيع بعد هذه الاستفاضة ان أقول انا محكوم بالمعنى، وبه كما قال ميرلوبونتي، وهذا التنوع يمنحني تمكنا بالوصول الى المعنى والدلالات.

لقد بذلتُ جهدا وما زلتُ في تطور مداركي، واستمرار سيرورتي، من خلال محاضراتي وتعقيباتي المستمرة. انا من رواد معارض الكتب والمكتبات سواء في العراق او في اسفاري، فانا انفق مبالغ كبيرة من اجل المصادر؛ فاهتماماتي تصل حدا مبالغا به. فمثلا: دائما ما حاولت ان اغذي معارفي الجغرافية، حتى اهتديت في سفرة متأخرة واشتريت كل مؤلفات العالم جمال حمدان، وجعلتها جوهرة في مكتبتي. وانا سعيد جدا بإمبراطورية الاصدقاء الذين اعتز بهم سواء في العراق أم في الخارج والبلدان العربية. فغالبا ما كان هؤلاء هم أهم من يزودني بالمصادر المهمة التي اطلب اقتناءها. وقد تميزت تجربتي المتنوعة هذه باستمرار علاقتي مع دور نشر مهمة وابرزها: دار المدى، والأهلية في عمان، الحوار في اللاذقية.. الخ.

انا واثق أن سؤالكم هذا وان كان بسيطاً، لكنه مهم للغاية بسبب انحيازه للتنوع في الممارسة. ان تعدد المصادر الثقافية هذا نادر أو ضعيف الحضور. كما أني على ثقة من ان الادب والفنون ليست صامتة بل هي صافية بهدوء، واعتمادا على ذاكرة لكل منها، يجب الاعتماد على ذاكرة لكل منها طاقة، وهي متخيلات الجماعة فمنذ زمن بعيد مثلت هذه الذاكرة الرمزية اكثر ما ابتدعته الافراد والجماعات، وهي نوع من الهوس والجنون. الجماعات لا تستطيع ان تكف عن التخيل، والتوقف عن

التصورات الرمزية لأن هذا يعني التوقف/ الانطفاء/ التعطل. واضطر للمرور قليلا حول ما شغلني طويلا وكثيرا، وهو الذاكرة وارادتها وجمال رموزها.

الثقافة الجديدة: بوصفكم رئيسا لاتحاد الادباء والكتاب في العراق؛ نلاحظ ان الاتحاد قليل الاهتمام بالجوانب الفكرية والفلسفية والمعرفية، باستثناء (منبر العقل) الذي يعقد ندوة لا تنشر وقائعها، ولا يستدل على مؤثراتها في الاتحاد.. لماذا؟

الاستاذ المعموري: هذا السؤال ينطوي على الإجابة، والتي تعني بوجود نشاط فكري ومعرفي لذا حصل هذا التوليد للسؤال. فاثارة السؤال تنطوي على حرص واضح، ولكن الأنواع الاخرى لها حصص بالفعاليات، فلا يمكن تجاهل احتياجات الشعراء وكتاب القصة والرواية والعلوم الإنسانية.

واعتقد بأن الاتحاد أول منظمة لديها فعالية مثل منبر العقل. وقد اثارت هذه الفعالية اهتمام ودهشة الاتحادات والوفود العربية، عندما انعقد اجتماع الامانة العامة، وقد اعلن رئيس جمعية الارتيرية تسمية جمعيتهم بجمعة منبر العقل. كانت فعاليات المنبر سابقا كل ثلاثة اشهر، إلا انها ذات نفقات عالية، تتضمن مكافأة للمحاضر ووجبة غداء ليس للمحاضر بل لكل الجمهور الحاضر. وتنوع النشاط الثقافي في يوم الأربعاء باستضافة استاذ معروف في علم الاجتماع والفلسفة والدراسات الثقافية، وهي فعاليات غير مسبوقة، وما زلنا نلح على الصديق د. علي مرهج، رئيس منبر العقل، لأجل جمع محاضرات من الأساتذة، لطبعها كمشروع ثقافي للمنبر.

ومن التجارب الجديدة اكتمال تصوراتنا مع عدد من الأصدقاء، حول انبثاق مركز بغداد للدراسات النسوية. وقررنا عقد المؤتمر الأول في تموز القادم، لكن وباء كورونا عطل التفاصيل. ومن بينها اختيار عدد من الأسماء المعروفة في الوطن العربي. وسيكون المؤتمر الأول للمركز علامة ملفتة للانتباه. وتم اشراك عدد مهم من العناصر النسوية، في هذا المشروع.

الثقافة الجديدة: هل من اضاءات اضافية، توضح وجهة نظركم حول اشتراطات الحداثة والتنوير والادوار التي لعبتها النهضة وتفحص التراث؟

الاستاذ المعموري: لعبت أفكار التنوير في الغرب، إبان القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر دورا بارزا وجوهريا في ازاحة الكنيسة الى الطرفية. وكثيرا ما تمثلت بالذهاب نحو العلمنة، وفي الانشغال العقلي والنقدي بإعادة تفحص التراث. ولم تكن العملية سهلة، بل انطوت على مقاومة كبيرة لهذا التحول. ومقاومة الحداثة المتمثلة بفصل الدين عن الدولة، ادت الى صعود العنف الديني، متمثلا بالكنيسة واشتعال اشكال تدميرية. وهذا يؤكد دور الكنيسة في اشعال الدمار. ان الدعوة التي اجتاحت بلدان الغرب الأوربي ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. ولم تكن فيها الطريق سالكة، بل تصاعد دور العنف الديني الساعي لتعطيل الحداثة التي تعني أولا التجديد السياسي.

لكن الحداثة اكدت حضورها على الرغم من استمرار العنف. وأسست في النهاية للفصل بين مؤسسات السلطة الدينية المتمثلة بالكنيسة، والمتراكم من فكرها، وبين السلطة الزمنية التي تعني حصريا الدولة. وفي النهاية، برزت في الغرب أنظمة نجحت بالفصل بين السلطتين، وتصاعدت آراء كاشفة عن النجاحات المستمرة في نقد الراسب الروحي/ الديني، ومعها كل المنظومات الفكرية التي تنتقد الحق الإلهي، واعتبار الفصل بين الدين والدولة بمثابة حل للمعضلات والصراعات التاريخية، وهو ما ميز فكر الحداثة في الغرب.

ان العناصر التي تنتهض بالتنوير هي التقدم والتحرر والعلم. والعقل هو اداة التقدم والتحرر والعلم في وجهته الى المستقبل، الى المستقبل حيث التنوير. يقول (كوندريسيه): "سوف يأتي اليوم الذي تشرق فيه الشمس على الرجال الاحرار فقط، اولئك الذين لا سيد لهم سوى عقلهم". وفي رحاب هذه المفاهيم يقبع الكائن الانساني، محور فكر التنوير: الكائن الذي يجب تحريره من الخوف، وجعله سيدا في العالم. وكان (كانط) قد اشار الى ان التنوير هو خروج الانسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه من خلال عدم استخدامه لعقله، وألا يتخوف من انسان آخر. ولذا فإننا حين نقول التنوير فأننا نقصد وجهة الآخر أيضا، أي الانسنة. ففي سياق تعريفه للتنوير ركز (كانط) على السلطة والعقل المحررة والمستقلة لقيادة الشؤون الإنسانية، بدلا من انصياعها للعقيدة والخرافة والنبوءة. ان قدرة العقل على تغيير المجتمع وتحرير الفرد من قيود العبادات والسلطات الاعتباطية، جعلت (كانط) يستدرك: "ان يكون عند الانسان شجاعة ان يعرف مخاوفه وهذا جوهر التنوير". فقد كان على دراية بمشكلات التنوير وواعيا بأن عصره لم يكن عصر التنوير انما عصر ما من التنوير. وكان من شروط التنوير، تحقيق الاستقرار في المجتمع والدولة.

ولأن البلدان العربية كانت وستبقى ضمن جغرافية العالم، فالتأثير حاصل، لكن المهمة صعبة ومعقدة. ان الانبعاث الذي قاد بداياته محمد علي باشا، كان لحظة قبول الحداثة العربية بالإصلاح السياسي عبر العديد من الأفكار، ذات الحضور الجديد مثل الحرية والعدالة وحقوق الانسان واحترام المواطنة التي يجب التعامل معها باعتبارها معيارا لمعرفة مدنية الدولة. لقد برزت دعوات للانفتاح على الغرب والاستفادة منه، كما يتناسب مع الشخصية العربية. وتم التعبير بوجود ملامح سياسية وتحولات في العلاقات المجتمعية، وايضا بأهمية الدور الصناعي.

وواضح انه في هذه اللحظة التاريخية الخاصة، أن الدين كان هو الذي يقود رقبة السياسة وتحديدا المؤسسات الخاصة بالدولة بوصفه مهيمنا وضاغطا حتى تحول الى أيديولوجيا. واذا كانت رياح الحداثة الثقافية والمعرفية قوية جدا، فإن ردود الفعل ضدها اقوى، لأن التيارات السلفية والرجعية والمتخلفة والانقياد للأوهام كليا، شكلت عائقا كبيرا أمام سيرورة الحداثة، التي ظلت عرجاء لأنها لم تستطع ان تنجح في قراءة الماضي نقديا، بل كرسته بوصفه مقدسا.

لقد ارتبط فكر الحداثة في العراق والبلدان العربية بالدولة وببناء مؤسساتها. وقد واجه عقبات عديدة وصراعات عنيفة، خصوصا بين الأحزاب والحركات الوطنية والديمقراطية، وبين قوى سلطة الدولة، وما برز من مؤسسات لها، ذهبت نحو الحداثة بالمجال السياسي، وعرفت البلدان العربية الديمقراطية الشكلية. ويؤكد هذا ما ذهبت اليه الباحثة (فاطمة المحسن) من أن الحداثة اعتنت ببناء مؤسسات الدولة. ولأن الحداثة الوافدة ذات تاريخ قوي، فقد حملت معها الكثير من الأفكار والقيم، ومع ما حملته للإصلاح السياسي والمجتمعي، الاقتصادي، التربية، والعلاقات بين الافراد والجماعات. واهتمت أيضا بما هو جمالي وتطوير وسائل التعبير لان الجماليات بحاجة الى خطاب جديد، قادر على زرع نزوع نحو التحولات بوسائل التعبير بواسطة الصحافة الحديثة: الشعر والسرد والتشكيل. لان هذه دعائم ضرورية برزت قوية متمثلة بحداثة الشعر والفنون والسرد ولعل ابرز ما كرسته افكار الحداثة الاستمرار ببناء اركان الدولة. هذا يعني ان المثقفين لعبوا دورا جوهريا في فتح منافذ الحداثة وتوسيع آفاق افكارها وقيمها.

برزت العديد من الاشارات الى الإشكالات القوية بين أفكار الحداثة وبين الدين. وما زالت حتى هذه اللحظة؛ فالنظام الديمقراطي في العراق ومصر مثلا، لكنه حاضن قوي للقوى الإسلامية المتطرفة المتسللة الى التجربة السياسية والمتعكزة على الديمقراطية، لكنها اكدت عبر تعطيلها للتحول الحقيقي، على كونها خلايا الفكر السلفي والايمان بالماضي والطقوس المتخلفة.

انا واثق بأن الحداثة هي الطريق الوحيد الذي يحقق لنا فرضية نشوء دولة متكاملة بمؤسساتها الثلاث. العلمانية تذهب الى الفصل بين مؤسسات الدولة وبين الدين، شرط احترام الديانات كلها والتعامل معها وفق القانون والدستور واحترام حقوق القوميات.

وفي الختام، انا مع الحرية لأنها تعني العلمانية، ومزاولة الديمقراطية بنماذجها الممتازة.

نصوص مترجمة

بمناسبة الذكرى الـ150 لميلاده*
لينين منظر الثورة ومنفذها

بقلم: انغار سوتلي
ترجمة: رشيد غويلب

ولد الدكتور انغار سولتي، في 14 نيسان 1979، وهو كاتب وعالم اجتماع الماني. عمل كمساعد باحث في جامعة يورك الكندية. وتشمل اهتماماته البحثية الاقتصاد السياسي العالمي، وعلم الاجتماع السياسي، والنظرية السياسية، وعلم الجمال. ومنذ حزيران 2016 يعمل استشاريا لسياسة السلام والأمن في معهد التحليل الاجتماعي في مؤسسة روزا لوكسمبورغ، التابعة لحزب اليسار الألماني. له العديد من المؤلفات والبحوث في مجالات اهتماماته المختلفة.

انتم يامن تجعلون صورة إيليتش ثابتة
عشرون مترا في قصر النقابات،
لا تنسوا ثقب حذائه أيضا
ذلك الذي شهده الكثيرون، شارة الفقر
يتهادى الى سمعي، انه يشير الى الغرب
حيث يعيش الكثيرون، الذين يعرفون من حذائه ان إيليتش
واحد منهم
(برتولت بريشت)

1 – لينين من تمثال مقدس الى قبعة قديمة

لم يؤثر أحد على تاريخ العالم كما فعل فلاديمير إيليتش أوليانوف، المعروف بلينين. يمكن ان ينافس لينين على هذا اللقب فقط ماركس، لوثر، محمد. لقد كرّس لينين حياته كلها للثورة، للثورة العالمية. وفي النهاية، لم تصبح ثورة عالمية، لكن ثورة أكتوبر، التي أعتقد أنها ثورة عالمية، باعتبارها اتحادا صريحا وغير قومي للجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، سرعان ما غطت سدس العالم وألهمت - مرة بنجاح، واخرى بفشل - الاحداث الثورية في جميع أنحاء العالم.

لم يتنبأ لينين بمصيرها. كتب في عام "ثورة أكتوبر"، التي خططت كمشروع عالمي: "كان الثوار العظماء يضطهدون باستمرار من قبل الطبقات القمعية خلال حياتهم، والتي تحارب تعاليمهم بغضب شديد وكراهية غاضبة، وتشن ضدهم حملات بأكاذيب وافتراءات منفلتة. وبعد وفاتهم، تحاول تحويلهم إلى أصنام غير مؤذية، وتقديسهم، إذا جاز التعبير، وتعطي اسماءهم شهرة معينة لـ "الراحة" وخداع الطبقات المظلومة، وحرمانها من محتوى مذهبها الثوري، وكسر قمتها الثورية، وابتذالها (...) "(لينين الاعمال الكاملة، مجلد 25: ص 397). ما كتبه لينين ينطبق بلا شك على مارتن لوثر كينغ، ونيلسون مانديلا وربما ماركس وتشي جيفارا، وربما أيضا على الطريقة التي جرى التعامل بها معه ومع اعماله في ظل اشتراكية الدولة، لكنه بالتأكيد لا ينطبق عندما يتعلق الأمر بالفهم والتوصيف السائدين لمنظر الثورة وممارسها. يوصم اسم لينين اليوم في كتابة تاريخ البرجوازية وجزئياً اليسارية ايضا بالإرهاب أو الفشل.

بلا شك عدّ لينين لفترة طويلة مقدسا. لقد كان اسمه بالنسبة لأتباعه في جميع انحاء العالم، وخاصة في جنوب العالم، رمزا للاستقلال عن الاستعمار والاستغلال الإمبريالي والتطور اللاحق. وحتى قبل خمسة عقود، كانت كلمات لينين، أو بالأحرى تفسيرات كلماته خارج سياقها، قانونا بالنسبة للأحزاب الشيوعية الجماهيرية في الغرب والشرق. ومع انهيار اشتراكية الدولة، اهتزت الماركسية - اللينينية كعقيدة. وفي اليسار الماركسي في الغرب اختفت ليس الماركسية - اللينينية، بل لينين كمفكر. قرأت اعمال لينين في السابق بوصفها وحيا، ولكنها لم تعد تقرأ، بعد الآن اطلاقا. وحتى في روسيا يعتد اليوم بستالين اكثر من لينين، بسبب التجربة مع بوريس يلسين، وضعفه في السياسة العالمية، وبيعه الممتلكات العامة، وارتباطا بانتشار الشعور بحصار غربي، يكرم القائد والمنتصر في "الحرب الوطنية العظمى"، ولكن يخشى من نبي الثورة والإطاحة بالنظام. ان هناك أسبابا وجيهة ليست في صالح الماركسية اللينينية، وطريقتها في حماية الاتحاد السوفييتي، وفقدان استقلالية الحركات الاشتراكية الثورية في الغرب، وما يرتبط بذلك من ابتذال للماركسية: كل مفكر عرضة للخطأ. كل مفكر تاريخي أيضا. لقد بقي عمل ماركس نفسه غير مكتمل. ومنذ ما يقرب من 150 عاما، ظل المنظرون الماركسيون، بدءا من إنجلز ولينين، يحاولون استكمال نواقصه - مثل النظرية الماركسية للدولة والأسواق

العالمية. كانت نظرية لينين حول الإمبريالية واحدة من هذه المحاولات في نقاش حي، ساهم فيه كاوتسكي، هيلفردنغ، لوكسمبورغ، بوخارين، وغيرهم الكثير. وفي الوقت نفسه يجب على الذين ما زالوا يرون أن منهج ماركس وتحليله لأسلوب الإنتاج الرأسمالي "في متوسطه المثالي" صحيح، يجب أن يطبقوها دائما، بشكل جديد، على الرأسمالية في ظروفها التاريخية الملموسة.

لينين، الذي رأى في نفسه مدافعا عن اعمال ماركس ضد التحريفية، هو ايضا منظّر في سياق موقعه التاريخي، ولم يكن ستالين فقط، بل ساهم هو ايضا في تكلس (تحجر) الفكر الثوري لكارل ماركس، على الرغم من تسمية "المصادر الثلاث للماركسية" بشكل صحيح - الفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الإنجليزي - يمكن ان تكون جملته ان "تعاليم ماركس كلية القدرة لأنها صحيحة"، (الأعمال الكاملة، المجد 19 ، ص3) ** قد تسببت بضرر كبير للتفكير الثوري لكارل ماركس، لانها حولت المنهج الماركسي الحي إلى ما يشبه عقيدة عصور ما قبل التاريخ - "مغلق ومتناغم" (المرجع نفسه).*

بعد انشقاق الحركة العمالية التاريخية بعد الحرب العالمية الأولى، وثورة أكتوبر المنتصرة عام 1917 وفشل الثورة في الغرب (1918 - 1923)، حارب التيار الاصلاحي التقليدي في الديمقراطية الاجتماعية لينين بحزم. وحتى داخل الأحزاب الشيوعية، حفظت الشيوعية الأوربية، بشكل وبآخر، لينين كملف سابق: فلسفة لينين في "المادية ومذهب النقد التجريبي" صعبة الهضم وعفا عليها الزمن. نظرية الحزب عند لينين؟ استبدادية وجامدة. نظرية لينين بشأن الدولة؟ مثالية. نظرية لينين حول الإمبريالية؟ خطأ، لأن الرأسمالية ليست فاسدة وتتداعى بالضرورة، لكن - من خلال "الاستيلاء الداخلي على الأرض" كما هو الحال في "الصفقة الجديدة" و"التراكم من خلال المصادرة" (ديفيد هارفي) - قابلة للتكيف وقابلة للإصلاح. ومع تركز الاحتكار وتصدير رأس المال وكذلك تصاعد المنافسة بين الإمبرياليين عشية الحرب العالمية، ربما كان وصف عصر هذه المنافسة بـ"عصر الإمبراطورية" (ارك هوبسباوم)، ولكن لم يعد التوصيف كافيا بالنسبة للرأسمالية العالمية اليوم؛ حيث حلت البرجوازية فوق القومية محل البرجوازية المحلية. وبدلا من ذلك تصح اليوم موضوعة كاوتسكي عن الإمبريالية المتطرفة، أي قمع واستغلال شمال العالم بشكل مشترك لجنوبه.

ونستمر: نظرية لينين للثورة؟ غير قابلة للتطبيق في الغرب، لأن هيمنة الطبقة الرأسمالية ترتكز في المجتمع المدني، لذلك لا يمكن للمرء ببساطة اقتحام "قصر الشتاء" اليوم للفوز بالسلطة. لذلك حل غرامشي كمنظّر لفشل الثورة في الغرب، محل لينين، كأهم منظر سياسي للماركسية. وفي الختام: إرث لينين السياسي؟ الاتحاد السوفييتي باعتباره تجربة ضائعة وديكتاتورية معصرنة فاشلة. لقد مهد الى الستالينية، لانه حل الجمعية التأسيسية، وفتح الطريق لتمييز الستالينية القاتل والمؤثر بين اليسار واليمين...الخ.

وبناء على ذلك، تم ابراز لوكسمبورغ - غرامشي" (بيتر فايس) في مواجهة لينين،

لانهما يمثلان تقاليد اشتراكية ديمقراطية و"ماركسية غربية" لم تتأثر برعب الستالينية. وغالبا ما يتم الاستشهاد بكتاب لوكسمبورغ "الثورة الروسية"، التي توقعت فيه اتجاهات الركود في اشتراكية الدولة وعرضت فيه إنسانيتها العامة، لوضعها في تضاد مع ثورة أكتوبر. ومن ناحية أخرى، يجري وضع غرامشي باعتباره منظر التحول، في مواجهة لينين منظر الثورة.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة، فإن الأمر يصبح معقدا: لوكسمبورغ تريد الثورة العنيفة التي حاول كارل ليبكنخت تنفيذها، اذا كان انتصارها ممكنا . لقد اختلفا في كانون الثاني 1919 على التكتيكات، وكلاهما دفع حياته ثمنا لروحه الثورية. وعلى نفس الشاكلة عدّ غرامشي مضادا الى لينين، لكنه كان - كما أشار بيري أندرسون ودومينيكو لوسوردو مؤرخان ماركيسيان (المترجم) – شديد الاعجاب بالثوري الشرقي. لذا يجدر إلقاء نظرة عن كثب وتجنب الأضداد الخاطئة. إن لوكسمبورغ وغرامشي ليسا صهرين مناسبين للماركسيين!

2 - صحيح لينين

بلا شك ان بعض التقييمات المذكورة اعلاه للينين، بما في ذلك نظريته حول الإمبريالية، صحيحة. ومع ذلك فان لينين جدير بالقراءة. ليس لان الاسئلة التي اثارها تتمتع براهنية شديدة فقط، بل لان الاجوبة التي طورها لينين تشكل اليوم معينا لنا. ان قراءة اعمال لينين على طريقة تفسير الانجيل خطأ. ولكن عدم قراءتها اكثر من خطأ، انه الغباء بعينه.

لقد كان لينين في الكثير من تقديراته على حق: الرؤية بأن سياسة النوافذ الصغيرة غير الرأسمالية مثل التعاونيات والكومونات الريفية وحدها ليست وسيلة للتغلب على الرأسمالية، كما أنها لا تحميك من الكوارث الكبرى مثل الحرب أو كارثة المناخ الحالية، بل - وعلى عكس ما يقترحه اليوم الأفقيون والفوضويون الجدد مثل جون هولواي (استاذ علوم سياسية ايرلندي – المترجم) - لا يمكن تغيير العالم بدون الاستيلاء على السلطة صحيح***.

وصحيح القول ايضا: ان الفوضوية واليسار المتطرف ظاهرة مرتبطة قبل كل شيء بـ"الطبقة الوسطى" والبرجوازية الصغيرة القديمة والجديدة، والتي كانت وما زالت "فردية برجوازية مقلوبة" تعبيرا جزئيا عن موقعها الطبقي (الأعمال الكاملة، المجلد 5 صفحة 334).

يجب ان يتبنى العمال السياسة المناهضة للرأسمالية، بصفتهم الطبقة المستغَلة، والتي ارتباطا بوضعها الطبقي تمتلك مصلحة موضوعية، وتمتلك بمساعدة الاضراب ايضا الأهلية لمناهضة الرأسمالية ومن اجل الاشتراكية.

إن الرؤية القائلة بأن السياسة المعادية للرأسمالية لا يمكن أن تكون أفقية، وتعمل "كحركة الحركات" (توم ميرتس) بل تحتاج إلى حزب صحيح، والذي يريد رفض ذلك، سيرى أنه، حتى التظاهرات التي شارك فيها مئات الآلاف بعد عام 2011، لم تضر بسياسات التقشف في بلدان جنوب أوروبا. لقد تعلم المرء الدرس وأسس أو أجبر على تأسيس مشاريع حكومة يسارية جديدة (احزاب مثل حزب بودوموس في اسبانيا، وحزب سيريزا في اليونان)، في حين حلت

مشاريع كوربن وساندرز محل الانغلاق اليساري في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة على التوالي.

إنه لصحيح القول ايضا بأن سياسة معادية للرأسمالية، وفي مصلحة الجماهير العاملة لا يمكن أن تكون نقابية بحتة، بل تحتاج أيضا إلى جانب هذا "الدرع"، لسيف حزب (ثوري)، حيث "يظهر تاريخ جميع البلدان أنه يمكن للطبقة العاملة بمفردها أن تخلق الوعي النقابي فقط؛ وهذا يعني القناعة بالحاجة إلى توحيد القوى للنضال ضد الشركات، وانتزاع القوانين الضرورية للعمال من هذه الحكومة او تلك" (المجلد 5 ، ص 385 وما يتبعها). بدون حزب يعتمد نظرية "موّلد للحس"، لا تؤدي النضالات في سياق التناقض الرأسمالي - العمالي تلقائيا، إلى موقف اشتراكي، إلخ. وبدلاً من ذلك، يمكن أن تزدهر الشراكة الاجتماعية و"تحالفات المصانع من اجل العمل" وسياسة الامتيازات في اطار المنافسة بين الشركات. ويمكن أن تزدهر شراكة الأزمات. ويمكن أيضًا أن تنشأ طبقة عاملة مجزأة "التضامن الحصري" (كلاوس دووره – عالم اجتماع الماني - المترجم) بين عمال الشركة الأساسيين وعمال العقود، والعاملين بالإعارة، والتناقضات الزائفة بين قطاع الصناعة وقطاع الخدمات والأجور المرتفعة للذكور والاجور المتدنية للإناث، والقطاعين العام والخاص، والعمل الذهني والعمل اليدوي، إلخ. تتمثل مهمة الحزب في العمل كحزب، وفي النقابات عبر التأثير في وضع سياسة للطبقة بأكملها: سياسة طبقية موحدة؛ بحيث لا يفرض ضيق الأفق ومصالح المجموعة المهنية. من دون ذلك، "يمكن لرأس المال تفكيك الطبقة العاملة قطاعا قطاعا"، كما يقول ليو بانج (اكاديمي ماركسي كندي).

وانه لصحيح كذلك الاستنتاج الذي توصل إليه لينين عام 1917 بأن الديمقراطية البرجوازية هي "أفضل سلاح سياسي يمكن تصوره للرأسمالية"، لأن "السلطة المطلقة" للثروة "أكثر أمنا" لأنها "لا تعتمد على أوجه القصور الفردية في الآلية السياسية (...)"، ولهذا السبب "لا تغيير، لا في الاشخاص، ولا في مؤسسات ولا في أحزاب الجمهورية البرجوازية الديمقراطية، يمكن أن تهز هذه السلطة (...) (المجلد 25 ، صـ 405). وصحيح أيضا أن الرأسمالية ظلت دائما متوافقة مع أشكال الحكم الاستبدادية والفاشية.

وبالتالي، فان الاستنتاج بأن الدولة الرأسمالية البرجوازية ليست أداة محايدة يمكن للحركة الاشتراكية استخدامها ببساطة، لمصلحة الطبقات العاملة من خلال الفوز بالأغلبية، صحيح. فالدولة في الرأسمالية هي تحديدا دولة رأسمالية. ان الرأي القائل ان التطرف اليساري والفوضوية من جانب، والانتخابات البرلمانية والاصلاحية الضيقة يخدمان بعضهما البعض؛ حيث "ان الفوضوية غالبا ما تكون عقابا على الخطايا الانتهازية للحركة العمالية" (المجلد 31 ، صـ 17) وفشلها السياسي، كان ولا يزال صحيحا.

كما انها صحيحة: الفكرة القائلة بأن "المشاركة القوية لفئة" الأكاديميين "في الحركة الاشتراكية" تعزز التحريفية، والـ Electoralism (الانتخابات معروفة النتائج مسبقا)، ومشارب التفكير البرجوازية

الأخرى في الحركة العمالية، (المجلد 5، ص 366). ولكن ذلك خارج نطاق الفوضوية النقابية "انصار الحركة العمالية الصافية" (المجلد 5، صـ393) – ان مثقفي البرجوازية الذين يخونون طبقتهم، ويتحولون الى صف الاشتراكية مثل ماركس وانجلس، يتمتعون بالتأكيد باهمية كبيرة، (لانهم فقط) يضمنون علمية الاشتراكية.

ان المطالبة بوحدة النضال الاقتصادي (من أجل أجور أعلى، وظروف عمل أفضل، وتشريعات لصالح العمال، وتحسينات يومية أخرى...الخ)، والنضال السياسي (من أجل هدف بعيد، لتحقيق اشتراكية مبررة علمياً) والنضال النظري (صياغة نظرية ثورية لحزب ثوري)، كلها صحيحة. لقد برر لينين اهمية الحزب بان "الدور النضالي الرائد لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة حزب يمتلك نظرية متطورة" (المجلد 5، صـ 380).

ان الموضوعة القائلة إن السياسة الثورية ملموسة وتتعامل مع الظرف الملموس صحيحة، وبالتالي يجب على الثوري أن ينتمي الى الجناح اليساري في الحركة العمالية المنظمة و"من الضروري تعلم العمل العلني في أكثر البرلمانات رجعية، وفيما هو الأكثر رجعية بين النقابات والمنظمات التعاونية ومنظمات التأمين وما شاكلها" (المجد 31، ص 13). والحزب الثوري لا يستطيع ولا يجب أن يقاطع الانتخابات والبرلمانات. "وخلافا للفوضويين" كما يقول لينين "يعترف الماركسيون بالنضال من اجل الإصلاحات، اي تحسينات في اوضاع الشغيلة، عندما لا تزال السلطة بيد الطبقة السائدة (...)" (المجلد 19، ص 363).

وان الثورة هاجرت من الغرب إلى الشرق، وستحدث نتيجة لتحالف الطبقة العاملة والفلاحين في البلدان الرأسمالية الأقل تطورا، وأن الثورات ستندلع هناك، حيث تكون مساحة التوزيع بالنسبة للحكام، اضيق مما هو عليه في الرأسمالية المطورة. كان القرن العشرون زمن ثورات بلدان الاطراف، ومن نواح كثيرة كانت الثورات الاشتراكية الناجحة - الصينية في عام 1949، والكوبية في عام 1959، وتشيلي في 1970 وما بعدها، والنيكاراغوية -1979 ثورات البروليتارية الزراعية.

انها لصحيحة ايضا موضوعة لينين حول هيمنة تحالف الطبقة العاملة مع الطبقات غير المتناقضة مثل شغيلة الفلاحين "ضد الأقلية الصغيرة المتلاشية من مالكي العبيد المعاصرين" (المجد 415،25). وهذا يعني أيضاً استغلال أي تصدعات في وحدة البرجوازية المحلية والعالمية، ولكن ليس كنقد بيري اندرسون (استاذ التاريخ وعلم الاجتماع) المشوه لغرامشي في كتابه "غرامشي: اشادة نقدية"، بشان التحالف مع كتل البرجوزية "التقدمية".

إن الحرب العالمية الأولى، التي كلفت 17 مليون ضحية، كانت أول "حرب إمبريالية مفترسة" والتي لم يكن فيها للطبقات العاملة في العالم ما تربحه. ولهذا السبب حتى "أصغر التنازلات" للدفاع الثوري عن الوطن ستكون "غير مقبولة" (مجلد 24 ، 3).

ان انتقاد سياسة قلعة السلام (تجميد الصراعات السياسية والاجتماعية مع القيصر- المترجم) للأحزاب الديمقراطية الاجتماعية، والتي - مثلها إدوارد ديفيد في

كتابه "الديمقراطية الاجتماعية في الحرب العالمية" (1915) - كانت تأمل بصراحة تامة، التخلص من "اللاوطنيين" (في اسقاط مسيء لما ورد في البيان الشيوعي "ليس للعمال وطن" – المترجم)، وذلك من خلال دعمهم الحرب في المصانع والبرلمان وإقرار الحق العام في التصويت والفوز بتنازلات اجتماعية؟ صحيح. ان سياسة سلام القلعة لم تؤد الى تحقيق الاشتراكية البرلمانية، بل كانت خيانة للثورة. ولم تأت الحرب ولم تفض الى الإصلاح الاجتماعي، بل ان القتل الجماعي وضع الحجر الأساس لعمليات القتل الجماعي المستقبلية و"الإرهاب الأبيض" في "عصر الكارثة" (إريك هوبسباوم) الذي أعقب ذلك.

والرأي القائل بان "ثورة شباط" البرجوازية في روسيا، ليس لها قاعدة اجتماعية وسياسية، ولهذا فهي توفر فرصة لثورة اشتراكية، هو رأي صحيح.

وكذلك القول بان المجالس - التي اسست خلال ثورة 1905 - وسيطرت على المصانع والأراضي هي المبدأ الأكثر ديمقراطية من حكم النخبة الليبرالية في البرلمانية التمثيلية.

ونفس الشيء بالنسبة الرؤية القائلة بأن "سؤالين (...) كان لهما الأولوية على جميع الأسئلة السياسية الأخرى" في عام 1917: "مسألة الخبز - ومسألة السلام!" (المجلد 26، صـ 387) وأن تحميل الشراع الثوري هذين المطلبين وجعل الادارة الذاتية للعمال هدفا، سيؤدي إلى النجاح.

كما انها صحيحة، تلك الحجة في مواجهة اليسار المتطرف، التي ادعت، ان تنفيذ الارادة الساحقة للسلام، تجعل اتفاقية سلام أحادية الجانب مع التنازل عن مساحة من الأرض مقبولة (صلح بريست ليتوفسك).

ما تضمنته موضوعات نيسان ("بشان مهام البروليتاريا في الثورة الراهنة" نيسان 1917)، أن كل ثورة ناجحة تبدأ بالسيطرة على القطاع المالي والقيادة والسيطرة الصناعية والقيام بإصلاح الأراضي، صحيح.

انها صحيحة ايضا الموضوعة القائلة إن "الإطاحة بحكم الطبقة المستغِلة" لن تتم "عبر خضوع الأقلية السلمية للأكثرية التي أصبحت واعية لمهامها" (مجلد 25، ص 415)، بل ان البرجوازية المحلية ستستخدم كل موارد السلطة المتوفرة تحت تصرفها، لكي لا تفقد ملكيتها الخاصة لوسائل الإنتاج كأساس لسلطتها الاجتماعية، وأنها وكما حدث خلال كومونة باريس، والآن بعد عام 1917، ستحصل على دعم البرجوازية الأجنبية ودولها وأجهزتها العسكرية، وهذا هو السبب في أن الثوريين الاشتراكيين "في مسألة إلغاء الدولة كهدف (...) لا يختلفون بأي حال عن الفوضويين"، ولكن يجب أن نفترض أنه "من أجل تحقيق هذا الهدف، قد يكون من الضروري استغلال اجهزة ووسائل وأساليب سلطة الدولة ضد المستغلين" (المجلد 25، ص449).

لقد اعترفت "السياسة الاقتصادية الجديدة" التي وضعها لينين (وتروتسكي) بأن روسيا في شيوعية الحرب، لم تنضّج بعد للزراعة الجماعية. ولهذا وبعد دمار الحرب الأهلية، ولتأمين الإمدادات مؤقتا، وبالضد من مقاومة قوية داخل الحزب، تم في مثل هذا الوضع، وبشكل مؤقت، العودة الى استخدام عناصر اقتصاد السوق

مثل الملكية الخاصة والربحية. وكان ذلك الاجراء صحيحا.

وكذلك صحيح الاستنتاج القائل بان نجاح الثورة في روسيا المتخلفة، يبقى معتمدا على انتصار الثورة في البلدان الرأسمالية المتطورة في الغرب.

إدراك أن الثورة في الغرب عام 1923 قد فشلت نهائيا - وبعد عام - تحذير لينين من على فراش موته من السيئ ستالين، الذي سيعلن ويحاول بناء "الاشتراكية في بلد واحد"، كان ذلك صحيحا.

3 - لينين بدلا من اللينينية

في الواقع، ان اليساريين الجذريين الذين يشاركون لينين اليوم وجهات نظره ليسوا قليلين. لذا فان المفارقة تبقى: لا احد يقرأ لينين، ولكن وفي ضوء الرؤى التي ذكرناها في أعلاه: هل الجميع لينينيون؟ من المهم التمييز بين لينين واللينينية، وتحرير تفكير لينين من الجمود. لقد عبّر لينين نفسه عن هذا الاستنتاج. وكان من الواضح بالنسبة له: "يجب تحديد مهام سياسية ملموسة في وضع ملموس (...). لا توجد حقيقة مجردة. الحقيقة دائما ملموسة"(المجلد 9، ص 76). ما يبدو صحيحا في لحظة تاريخية قد يكون خاطئا في اخرى. كانت هذه أطروحة كاوتسكي الخاطئة عن الإمبريالية المتطرفة، التي نُشرت قبل فترة وجيزة من الحرب العالمية الأولى. ولكن حتى لو كان الصراع الأمريكي - الصيني المتصاعد، فإن الخلافات في اطار التحالف الإمبراطوري عبر الأطلسي والركود الكبير الجديد، جعلت التنافسات الإمبراطورية المؤقتة ملحوظة مرة أخرى اليوم، فإن أطروحة كاوتسكي الأساسية تتوافق بشكل وثيق مع الإمبريالية الجديدة اليوم، أكثر من تلك التي طرحها لينين. "هناك تنازلات وتنازلات" (المجلد 31، ص 22)، وحذر منظّر الثورة، وشدد على أن النظرية الثورية تجمع دائما بين التحليل المادي التاريخي للظروف الملموسة والتفكير الجدلي المرتبط بالظرف. إن النظرية الثورية تعني وحدة الظرف الموضوعي والتعامل الذاتي بذات المعنى. "القدرة والفن على خوض النضال السياسي" (المجلد 31، ص 12) يعني تقييم اللحظة التاريخية بشكل صحيح، ومعرفة ما يمكن فعله ذاتيا في وضع موضوعي، لاستكشاف القدرة على التعامل في الهياكل المنظمة. "يجب على المرء تحديد المهام السياسية الملموسة في الظرف الملموس" (المجلد 9 ، ص 75). فكّر لينين في "الهيكل" و"الواسطة" قبل وقت طويل من أن يصبح ذلك نقاشا أكاديميا قديما – واضعا امام عينه باستمرار هدفا واحدا: هو الثورة.

أشاد غرامشي بلينين، لكون ثورته كانت "ثورة ضد رأس المال" – ضد كتاب "رأس المال" بقلم كارل ماركس (أنطونيو غرامشي: فلسفة الممارسة، فرانكفورت على الماين (1967: 24) اكتسب لينين النظرة الثاقبة في الجدلية العامة بين الحرب والثورة في ثورة 1905 الروسية التي أعقبت هزيمة القيصر في الحرب ضد اليابان. كلاهما مترابطان؛ بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت هناك موجة من ثورات اجتماعية ومعادية للاستعمار. ما كان بالإمكان منع الحرب الإمبريالية العالمية، لكن أزمة الحرب - القحط الشتوي، متاعب الحرب - يمكن استخدامها كفرصة لثورة اشتراكية،

”تحول الحرب الإمبريالية بين الشعوب إلى حرب أهلية [ثورية] (...)، حرب الطبقات المضطهَدة ضد مضطهديها“(المجلد 21، ص350 وما يتبعها). افترض لينين خطأً أن الرأسمالية كانت متعفنة، لكنه انتقد بشدة نظريات الانهيار الاقتصادي وسياسة التردد والترقب الانتهازية التي تبنتها الأممية الثانية. الرأسمالية لا تنهار من تلقاء نفسها: ”كل صراع طبقي“، يقول لينين في نصه بمناسبة وفاة فريدريش إنجلز، ”صراع سياسي“. (المجلد 2، ص 6). غالبا ما يقتبس تعريف لينين لـ“الوضع الثوري“ التوصيف ”إذا لم يعد بإمكان الاعلى فعل شيء، ولا يريد الأسفل استمرار ما هو قائم“. هذا الاقتباس وكذلك الاقتباس عن ”السلسلة الإمبريالية“ التي ”تنكسر في أضعف حلقاتها“، كلاهما منسوب إلى لينين، لكن لم يتم نشرهما مطلقا بهذه الصيغة. والاخير نُسب الى لينين من قبل ستالين فقط (الاعمال الكاملة لستالين، المجلد 12 ، ص 122). ما نجده عند لينين، ما كتبه في ايار 1913 :“ان القمع وحده، وبأي حجم يمكن ان يكون، لا يخلق دوما وضعا ثوريا في البلاد. وغالبا ما يكون غير كاف للثورة، ان الفئات الدينا لا تريد العيش كالسابق. وان المطلوب بالاضافة الى ذلك، هو ان الفئات العليا لا تستطيع ادارة الاقتصاد والحكم كالسابق (...) ان الازمة السياسية تنضج وتكون مرئية للجميع“ (المجلد 19 ، ص 212). خلال الازمة المالية العالمية، جرى الاستشهاد مرارا وتكرارا بتعريف غرامشي لـ,,Interregnum، الذي يشير الى وضع تاريخي مفتوح، ومرحلة انتقالية تنطوي على مخاطر، ولكن ايضا فرص. ولكن نادرا ما يشار الى مدى قرب تعريف غرامشي وتعريف لينين للأزمة السياسية.

بعد سبع سنوات، وعلى خلفية الثورة المنتصرة، يوضح لينين افكاره: ”لا يكفي للثورة أن تدرك الجماهير المستغَلة والمضطهَدة استحالة العيش بالطريقة القديمة والمطالبة بالتغيير؛ من الضروري بالنسبة للثورة، ألا يتمكن المستغِلون من العيش والحكم بالطريقة القديمة. فقط عندما لم تعد ”الطبقات الدنيا“ تريد القديم و“الطبقات العليا“ لم يعد بإمكانها الاستمرار بالقديم، عندها فقط يمكن للثورة أن تنتصر(...). إن الثورة مستحيلة بدون أزمة وطنية شاملة (مستغِلون ومستغَلُون) (المجلد 31، ص 71). إن الشرعية والتمثيل والأزمات السياسية، ليست كافية للثورة. يشمل ذلك ايضا التقييم الصحيح للوضع والتنظيم الصحيح. يقول لينين: ”من ضرورات الثورة: أولاً، أن غالبية العمال (أو على الأقل غالبية العمال الذين يملكون وعيا طبقيا، والناشطين سياسياً) والذين يفهمون تماما ضرورة الانقلاب، ويكونون مستعدين للموت من اجله؛ ثانيا، أن الطبقات الحاكمة تمر بأزمة حكومية تجذب حتى أكثر الجماهير تخلفا إلى السياسة (سمة أي ثورة حقيقية هي الزيادة السريعة بعشرات الأضعاف، بل بمئات الاضعاف من ممثلي الشغيلة والجماهير المستغَلة القادرة على النضال السياسي، والتي كانت حتى ذلك الحين غير مبالية)، ما يجعل الحكومة ضعيفة، ويمكّن الثوريين من الإطاحة السريعة بهذه الحكومة“ (المجلد 31، ص 71 وما بعدها). لا يثق لينين - جزئيا، وعلى العكس من لوكسمبورغ – بالانتفاضات العفوية للجماهير، أو بحث الربط بينها وبين

سلطة المنظمة القوية. في عام 1902 اعلن لينين في "ما العمل": "أعطونا منظمة من الثوريين وسنقلب روسيا رأسا على عقب!" (المجلد 5، ص 483). يقول لينين "ويكمن فن السياسة بأكمله في إيجاد الحلقة الأكثر أهمية في لحظة معينة، والإمساك بها بقبضة صلبة وراسخة، تلك الحلقة التي تضمن لنا أكثر من أي حلقة أخرى التحكم في السلسلة ككل" (المجلد 5، ص521 وما بعدها).

وفي هذه الاثناء فشلت الثورة في الغرب، ومما لا شك فيه مع وجود التنظيم أيضا: فشلت ثورة 1919/1918 في ألمانيا بسبب عدم وجود حزب ثوري. لقد بالغ المؤرخون البرجوازيون والديمقراطيون الاجتماعيون والشيوعيون في أهمية عصبة سبارتاكوس. في الإضرابات العامة في كانون الثاني وآذار 1919، أرادت الجماهير الدفاع عن ثورتهم ضد الثورة المضادة التي ارتبطت بالحكومة الديمقراطية الاجتماعية منذ تحالف فردرش إيبرت (رئيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي) مع الجنرال فلهيم غرونر (قائد قوات النخبة في الجيش)، ولكنهم افتقروا إلى التنظيم. لقد كان عمر الحزب الشيوعي في المانيا أربعة أيام فقط، عندما بدأ الإضراب العام في كانون الثاني، وتم سحقه بشكل دموي وتصفية روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنشت. وحتى بعد ذلك، فشلت جمهوريات المجالس والانتفاضات السوفيتية وحكومة التحالف الأحمر – الأحمر.

جادل غرامشي، منظّر فشل الثورة في الغرب: لقد كانت الثورة في روسيا المتخلفة، ممكنة كحرب حركة، لكن في الرأسمالية المتقدمة هناك حاجة اساسية إلى حرب مواقع. اليوم يجري الحديث عن التحول بدلا من الثورة، ما يعني تأسيس جهاز دولة غير رأسمالي، حول دولة رأسمالية. يعتبر البعض التحول مهجا إصلاحيا وسياسة تطورية. فهل لينين منظّر الثورة، وغرامشي منظّر التحول؟ ليس بالضرورة، ويمكن القول أيضا: لينين هو منظر للثورة في بلدان الاطراف، وغرامشي هو منظر للثورة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، وطالما أن غرامشي لا يُحصر في السياسة الانتخابية، لكن هدفه هو بناء سلطة طبقية مضادة.

ولأن المسألة التي ميزت النظرة النقدية لنظرية الدولة من روبرت ميشيلز (عالم اجتماع وسياسة الماني ايطالي، انتقل من اليسار الاشتراكي الى الديمقراطية الاجتماعية، ثم إلى النظرة النقابية وصولا الى الفاشية الايطالية - المترجم) إلى رالف ميليباند (مختص ماركسي بريطاني في قضايا الدولة – المترجم) - "لماذا لا تفعل الاحزاب اليسارية في الواقع (دائما تقريبا) ما قامت من اجله - يبقى السؤال الاستراتيجي الحاسم؟ و: كيف يمكن للقوى اليسارية - مثل حكومة ولاية برلين اليسارية وتجميد سقف الايجارات - ألا تفقد جذريتها داخل الحكومة، بل على العكس، تتعمق جذريتها وما هو الدور الذي تلعبه الحركات السياسية اليسارية الجذرية مثل حركة (مصادرة المساكن الألمانية وما شابه ذلك)؟".

4 – حدود لينين

لكن إذا كان لينين قد ادرك الكثير بشكل صحيح، فما هو الخطأ في اللينينية؟ حسنا، لقد اخطأ لينين أيضا، أو طرح السؤال الصحيح، لكنه إما أعطى إجابة خاطئة أو أن الإجابة الصحيحة في الماضي، هي اليوم

إجابة خاطئة. وهناك أيضا أسئلة مختلفة تماما وجديدة. وإذا كنت ترغب في فهم الرأسمالية وكيف تعمل وتريد التغلب عليها، يمكنك تعلم الكثير من لينين - وكذلك من لوكسمبورغ وكاوتسكي وأيضا من إدوارد برنشتاين. ومن ناحية أخرى، فإن الجمود الفكري يصيبك بالعمى ازاء النظرية والممارسة الصحيحة.

لذلك ينبغي ذكر بعض الجوانب الملموسة في الخطأ وعدم الدقة والتناقضات والأسئلة التي بقيت بدون اجابات.

اولا: أراد لينين الثورة، ولكن في ظل ظروف التطور الرأسمالي - البرجوازي الذي كانت الطبقة العاملة فيه لا تزال أقلية. حتى خمسينيات القرن العشرين، لم يكن المجتمع البرجوازي حضريا بل ريفي، كانت غالبية سكان الريف، البروليتاريا الريفية أكثر عددا من البروليتاريا الصناعية، ولم يكن لدى الأولى، الا القليل جدا لتقديمه للحركة العمالية خلال فترة طويلة، من ناحية اخرى مُنح الفلاحون الصغار توصيف بروليتاريا المستقبل. وجرى انكار، بما في ذلك لينين، القدرة التنافسية الطويلة نسبيا لملكية الاراضي الصغيرة، لان المرء لم يكن مخطئا، عندما رأى في المسألة الزراعية، كما طرحها جورج فون فولمار وإدوارد ديفيد ورودولف ماير وأوتو براون لاحقا، طليعة التحريفية كما رآها برنشتابن. (ساسة في الحزب الديمقراطي الاجتماعي - جمهورية فايمر - المترجم). لقد كان الثمن السياسي باهضا: لم يكن عدد كاسري الاضراب في المدن الصناعية، من فقراء الريف قليلا، والأسوأ من ذلك اصحاب القمصان الرمادية الفاشيين، الذين هاجموا اخوتهم الطبقيين. غرامشي سمى ذلك "قضية جنوب ايطاليا".

على أية حال، لم تشكل البروليتاريا الصناعية الأغلبية، حتى في الغرب الرأسمالي المتقدم، ودفع التعريف الضيّق لـ"الطبقة العاملة" على أنها بروليتاريا صناعية، بـ"نيكوس بولانتزاس" (استاذ علوم سياسية يوناني - فرنسي - المترجم) بولوج طريق الاصلاحية، وفقا لنقد إلين ميكسينز وود (مؤرخة ماركسية امريكية - المترجم) في "التراجع عن الطبقي". وفي هذا السياق كان لينين يعرف جيدا ما هي أفضل الظروف، ربما ليست للثورة، وانما لبناء الاشتراكية. ووفق لينين، فإن إحدى الاستنتاجات الأكثر ثورية لماركس وإنجلز هي: "كلما زاد عدد البروليتاريين، زادت قوتهم كطبقة ثورية، كلما كانت الاشتراكية أقرب وأكثر واقعية" (المجلد2 ، صـ 6). وفقا لهذا التعريف، من المحتمل أن تكون شروط الاشتراكية اليوم أفضل مما كانت عليه في زمن لينين. حتى وإن كانت الطبقة العاملة الحضرية والريفية مجزأة، فهي طبقة الأغلبية.

"للاكثر، وليس للاقل"، صرخة معركة يسار حزب العمال البريطاني، تملك إمكانات حقيقية في المجتمع الطبقي الذي طورته الرأسمالية، حيث أدى تطورها إلى مصادرة جماعية للمالكين الصغار، ولا تزال تفعل ذلك.

ثانيا، كان في ذهن لينين ثورة عالمية، لكنه في النهاية قاد الثورة ونفذها في مجتمع كانت الظروف فيه سيئة للتحول الاشتراكي. تنكسر السلسلة الإمبريالية عند أضعف حلقاتها، والتركيز هنا على مفردة ضعيفة

بالمعنى الحرفي للكلمة: إن الظروف لبناء الاشتراكية هنا سيئة للغاية، وقابلية إعادة الاندماج في السوق الرأسمالية العالمية، لتخطي مراحل تنمية كبيرة - انظر الصين 1978 وفيتنام 1985 وكوبا 2016. في اليونان في العام 2015، على سبيل المثال، كان يمكن تكرار التجربة المأساوية للاتحاد السوفياتي - "الاشتراكية في بلد واحد" – كمهزلة فقط. الاشتراكية في البلدان الرأسمالية المتقدمة مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا صعبة بقدر ضرورتها. الأمل في أن الثورات في البلدان الطرفية - مثل بوليفيا أو فنزويلا أو اليونان – ليست باعتبارها مصدر إلهام للاشتراكيين في الشمال العالمي فحسب، بل تؤدي أيضا إلى تحولات اشتراكية ، لم تتحقق بعد.

ثالثا، كان الطابع الخاص للبلاشفة في روسيا، كجزء من حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي، والذي تقاسموه مع المناشفة، وتوجههم نحو كادر مركزي وحزب طليعي يعود في الحقيقة الى القمع الاستثنائي للسلطة القيصرية، الدولة الأكثر استبدادا سياسيا في جميع أوروبا، والتي فرضت ان صح التعبير هذا النوع من الحزب. لم يكن لينين يريد حزبا شديد المركزية لذاته. وكمدافع عن فكرة مجالس الديمقراطية الشعبية، لم يكن يريد الاستبداد، بل ولد كضرورة للاضطهاد من قبل طبقة المستغلين. واستمر كرد فعل. قال لينين بحق عن الحزب في الأنظمة الاستبدادية: "تواجه البروليتاريا الروسية اختبارات صعبة بما لا يقاس. انها تواجه النضال ضد وحش. يبدو القانون الاشتراكي في بلد دستوري، عند مقارنته به، قزما حقيقيا (...)" (المجلد 5، ص 383). ان أطروحة لينين بأن الديمقراطية كانت أفضل قذيفة سياسية للرأسمالية لا تلغي الفرق بين الجمهورية والديكتاتورية: "شكل أوسع وأكثر حرية وانفتاحا للصراع الطبقي والقمع الطبقي، يعني راحة كبيرة للبروليتاريا في النضال من أجل إلغاء الطبقات كليا" (المجلد 25، 467).

لقد ساد مبدأ الحزب اللينيني أيضا في الأحزاب الشيوعية الغربية. وبقدر تعلق الأمر بالقدرة على العمل فان الحزب المنضبط ومبدأ المركزية الديمقراطية ("حرية النقد، ووحدة العمل" قارن المجلد 10، ص 446 – 448) مفيدة بلا شك. وعادة ما ترى أحزاب اليسار اليوم، مثل حزب اليسار الألماني، نفسها أحزابا تعددية يسارية جماهيرية. وخلال أزمة كورونا يمكن تلمس مدى الصعوبة التي يواجهها الحزب في العمل بشكل استراتيجي وسريع. ويكون من السهل فيها، حتى في ظروف انعدام الأزمات، استقلال الكتل البرلمانية، وحتى استقلال النواب داخلها، كإمارات مستقلة. وكذلك، فإن احزاب اليسار التي تركز اليوم على الحركة، وتنتقد البرلمانية، لا تريد المركزية الديمقراطية أيضا، لكنها ترى نفسها أحزابا تربط بين النقابات والحركات البيئية وغيرها من الحركات الاجتماعية في مشاريع التحول المتماسك. وبهذه الطريقة تضمن، على الأقل، مشاركة واسعة النطاق. ومن يقول، لأسباب وجيهة "نعم" لحزب يساري تعددي، و"للسياسة كمهنة" (اقرأ: الكوادر التي تعيش للسياسة ومنها)، ولا يريدون بعد الآن ان يكونوا مشاريع لثوريين محترفين، يقول أيضا "نعم" للوصوليين. نعم للتركيز الاستثنائي

على الوظائف للأكاديميين (مقارنة بالعمال غير الدارسين) وأيضًا "نعم" لتوم رادكس هذا العالم (عضو في حزب اليسار الألماني، عمره 18 عاما، احدث ضجة من خلال مقارنته المحارق النازية بتدمير البيئة)، من يقول "نعم" لحزب الحركة، و"لا" للمنظمات الطبقية الجماهيرية (السياج الجماهيري)، سيقول "نعم" ايضا، أن جميع الحركات تقريبا التي ينبغي ان تحل محل منظمات المنظمات الطبقية الجماهيرية، تكون مدعومة من الاكاديميين الحضريين والعاملين بأجر، الذين يعملون على توظيفها. ومن يقول "نعم" لـ الاحزاب اليسارية التعددية، يقول نعم لتطور الاحزاب التلقائي وغير المخطط، حيث لا يقوم الحزب اليوم بنقل كادره بشكل منظم الى المناطق التي يراوح فيها بناء الحزب.

وفي الوقت نفسه، تقدم الديمقراطيات الليبرالية المزيد من المشاركة؛ السؤال الضروري للطبيعة الديمقراطية للاشتراكية. كيف لا تصبح الأحزاب الطليعية منعزلة، وكيف ترتبط هياكل الكوادر المركزية بالديمقراطية الشعبية الواسعة والمشاركة الجماهيرية؟ وكيف يستطيع المرء الحد من الهياكل الاستبدادية القائمة التي تنشأ في الثورة؟ وكيف لا تؤدي المركزية إلى إضعاف الحياة العامة، والتي حذرت بحق منها روزا لوكسمبورغ؟ كل هذه أسئلة لم يتم حلها وتبقى عبارة "اضمحلال الدولة" شفرة، تماما كما كانت دائما عبارة "دكتاتورية البروليتاريا".

ربما ستحل هذه الأسئلة في التاريخ الحقيقي فقط، وليس على الورق؛ وستحدث أي ثورة أو تحول جديد في ظل ظروف غير مختارة. مأساة حياة لينين وثورة أكتوبر كانت، أنها ولدت في جميع انحاء العالم آمالا وحماسا لا يصدق، ولكن الستالينية وجرائمها جعلت الاشتراكية متهمة أيضا. إن قوة البرجوازية وعنفها في الداخل والخارج ساعدت على تشويه وجه الاشتراكية من وجه حي محب للبشر إلى وجه غير إنساني، وهذا غدر استثنائي للتاريخ الحقيقي للرأسمالية والإمبريالية. وسيتم التغلب عليهما دائما بواسطة التعامل مع ما انجزه لينين ايضا.

*** نشرت هذه المقالة في موقع مؤسسة روزا لوكسبورغ/ نيسان 2020**

**** الجملة التي يوردها الكاتب وردت في الترجمة العربية لـ"مصائر مذهب كارل ماركس التاريخية: ان مذهب ماركس كلي الجبروت، لأنه صحيح، وهو متناسق وكامل، ويعطي الناس مفهوما منسجما عن العالم، لا يتفق مع اي ضرب من الاوهام، ومع اية رجعية، ومع اي دفاع عن الطغيان البرجوازي. (لينين مختارات الجزء الاول دار التقدم 1968 – والنص يعطي صورة واضحة الى ما ذهب اليه لينين – المترجم).**

***** الأفقيون: مصطلح شاع في أواخر التسعينات وبداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ضمن امور اخرى، من خلال كتاب جرى تداوله على نطاق واسع لجون هولواي، منظر ماركسي سابق: "تغيير العالم بدون الاستيلاء على السلطة". نشأت الأفقية على الشك في "الهرمية الجامدة" في نموذج الحزب اليساري الكلاسيكي. إنه نقد يساري جذري لمأسسة السياسة اليسارية. وبالمقابل تبنى هولواي وأتباعه مبادئ فوضوية: "الهرمية الأفقية"، دون ممارسة انتخابية، والريبة في مواقف المتحدثين السياسيين، وكذلك في المشاركة في الانتخابات بشكل عام، وما إلى ذلك. باختصار: تعد الأفقية شكلا من الفوضوية الجديدة.**

أدب
و
فن

تموز .. مفاتيح ثقافية

حسب الله يحيى

الثورة، فعل شعب وارادة حقوق وانطلاق آفاق حرة.

الثورة، الانسان في صورته الأسمى ووجوده الابهى.

على وفق هذه الرؤى، استيقظت شمس 14 تموز الخالدة 1958، حيث صارت الحياة الانسانية، بكامل عطائها وثرائها وتألقها.

وأصبح للكلمة صوتها العالي وحضورها المسموع من قبل حكومة وطنية، جذرها يمتد الى التاريخ النضالي الباسل لشعبنا واحزابه التقدمية التي تكلل كفاحها الدامي بالنصر المؤزر.

في ثورة هي امتداد لتلك الصفحات المشرقة التي قدمت فيها القوى الوطنية الكثير من الشهداء، والكثير من العذابات والسجون والمنافي.

لم تكن ثورة 14 تموز، ثورة وليدة لحظتها الثورية، ولا يقظة بكر لزعمائها الأبطال، وانما تمخضت عن تاريخ حافل بالتضحيات.

وكان من حصاد هذه الثورة العملاقة انها حررت العراق من قيوده الاستعمارية وكشفت الهوية الصدئة للقوى الرجعية والاقطاعية، ورسمت المستقبل الحي لاقتصاد وطني متحرر من القيود التي كبلت العراق في تحالفات استعمارية ورأسمالية واقطاعية، كانت ثقيلة الوطأة على البلاد، حابسة للفكر، رابطة اياه بقيود ثيوقراطية مختلفة وجامدة لاتخرج عن الاطر المرسومة التي تكبله من الجوانب الاقتصادية والفكرية والابداعية.

لقد تحررت الذهنية الفكرية والثقافية والعلمية والمعرفية والابداعية من ضيق الافق التي كانت تحاصره، فكان ان حلت ثورة 14 تموز كل العقد والقيود التي كبلته طويلاً وحاصرته ضمن نطاق محدود من الافكار الجامدة والمتخلفة، لتتجه الحياة بكامل استدارة شمسها نحو الفكر الحر والثقافة المتسعة الآفاق..

فكان من أكثر الامور اثارة للانتباه انطلاق منابر صحفية جديدة في مقدمتها (اتحاد الشعب) و(الثقافة الجديدة) التي كانت تصدر بشكل سري وتوزع على المواطنين بعيداً عن انظار السلطة الحاكمة آنذاك.

كما صدرت صحف وطنية بارزة منها: مجلة 14 تموز، الثبات، صوت الاحرار، الانسانية، الحضارة، المثقف، الاديب المعاصر، البلاد، الزمان، الاستقلال...

وازدهر عطاء فرقة (المسرح الفني الحديث) و(فرقة 14 تموز) و(فرقة

المسرح الشعبي) و(فرقة مسرح اليوم) واقيمت الندوات الثقافية ما بعد ثورة 14 تموز والمعارض التشكيلية، واخذت دور السينما تعرض أحدث الافلام العالمية.

كانت ثقافة ما بعد 14 تموز، ثقافة تحمل هوية وطنية تقدمية، تؤمن بالانسان وحريته وارادته وتسعى لبناء مستقبله الزاهر وعطائه المبتكر..

وتشكلت الاتحادات ومنظمات المجتمع المدني، وراحت تمارس دورها في نشر الثقافة الانسانية واشاعة الوعي بين الناس، على العكس مما كان يكبلها ويحدد توجهاتها.

ان التجربة الثقافية لثورة 14 تموز، تعد من اغنى واعظم تجارب الحياة التي عاشها شعبنا في ظل حكم وطني يمتلك ارادته وقيمه ورؤاه. وبصمات تلك الثورة المجيدة ستظل راسخة في الاذهان، عميقة في امتدادها ومؤثراتها ومعطياتها التقدمية الحية.

مشاعر الاغتراب والتباعد الاجتماعي
الحصاد المرّ للرأسمالية كطريقة انتاج

مؤيد جواد الطلال*

على الرغم من أن مفهوم الاغتراب يعود في الأصل إلى أفكار هيغل (1770 – 1831) في جذور علاقة الإنسان بالله والدين، لكن ماركس الذي حافظ على ديناميكية فكر هيغل – الفكر الذي احتوى نواة الديالكتيك – وجد لموضوعة " الاغتراب " تفسيراً واقعياً ومادياً ضمن الحياة المعيشية؛ وذلك من خلال ملاحظة حالة التناقض بين زيادة المال عند البرجوازيين مقابل مشاعر الطبقات الفقيرة المُنتِجة حيث تتحول قوة انتاجها إلى سلع وصناديق مالية {فائض قيمة} يصبُّ في نهاية المطاف بجيوب الرأسماليين.

وما يحدث للعمال وكل المنتجين في ظل النُظم الرأسمالية يحدث أيضاً للفنانين والادباء والمثقفين الذين يبيعون عملهم وانتاجهم بثمن بخس، بحيث يساعدون على بناء ((رأس مال)) للآخرين فتصير نتاجاتهم وقوة عملهم على شكل ((قوة عمل مُغتربة تضطهدهم)) كما لاحظ المفكر البريطاني "ليونارد جاكسون"[1] الذي أشاد بالحل الماركسي المادي الاقتصادي لإلغاء الشعور بالاغتراب؛ وذلك من خلال السيطرة على وسائل قوى الانتاج والوصول إلى حلم التخلص من كل شرور الرأسمالية التي تجلب الفقر للنسبة العظمى من المجتمعات، وتحتكر المال ووسائل تنميته، وتخلق الحروب لبيع السلاح .. أي إنه أعاد صياغة الحلم التاريخي القديم في روح البشر – وفي طليعتهم المثقفون والفنانون والأدباء – بالمدينة الفاضلة، ولكن بوسائل أكثر واقعية وعملانية.

غير أن المتغيرات الاقتصادية والعالمية، ومنها قدرة الرأسمالية على حل مشكلاتها بقوة المال والسلاح والميديا المضللة وكل ما تنتجه البشرية بما في ذلك (المثقفون + الفنانون + الأدباء + المنظرون + المرتزقة .. الخ)؛ ونجاح هذه الرأسمالية في قتل معظم البذور الجيدة والثورات والانتفاضات الطبقية ذات الطابع الاشتراكي التي نشأت في القرن العشرين، جعلت بعضهم يشك في الحلول والنبوءات الماركسية؛ حتى أن بعضهم يشك بثورة العمال والمضطهدين في الأرض وامكانية تحقق نجاح هذه الثورة ..

****

اليوم يقف العالم على قدميه مرتعباً: الدول تغلق حدودها مع جيرانها – بما في ذلك ما يسمى بالاتحاد الأوروبي – وتقفل المطارات. الطائرة لم تعد تحتاج إلى وقود، وكذلك المصانع تتوقف عن العمل ويُستغنى عن خدمات الملايين من العاملين والموظفين والمستخدمين من غير تعويضات؛ وبذلك ينخفض سعر النفط إلى أدنى مستوياته،

ويواجه العالَمْ كارثة اقتصادية وبيئية وصحية واجتماعية في نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين لم يشهد لها مثيلاً من قبل.

كل هذا بسبب جائحة وباء الكورونا أو ما يسمى علميّاً (كوفيد ناين تين - المستجد) كمختصر لتسمية علمية لهذا الفيروس الذي يصيب الملايين وينتقل في الهواء وعن طريق العطاس والملامسة، ويعيش لفترة على المُسطّحات؛ ولا أحد يستطيع أن يحمي نفسه منه .... المرض الذي أربك وحيّر العلماء والمختبرات الطبية والبحثية وغيّر من تقاليد الشعوب وطرق دفن موتاهم. وأخيراً ربما ستحتاج البشرية لسنة من الزمن – تزيد أو تقل حسب الظروف والمناخ والأموال – لحين ما تصل مراكز الأبحاث والمختبرات الطبية وعلماء سلامة الجسد البشري لاكتشاف مصل أو دواء له !

بالطبع إنّ السبب الحقيقي وراء هذه الجائحة الوبائية هو أساليب الانتاج العمياء الشرسة التي تعاملت بها الرأسمالية المتوحشة مع بيئة الكرة الأرضية من أجل زيادة أرباحها واحداث ثغرات لا عدّ لها في التوازن البيئي والتغيّر الحراري وطرق استخراج أنواع الوقود وأساليب استخدامها، ناهيك عن نوعيات الأطعمة التي تدفع الشعوب الفقيرة لتناولها من حيوانات يعيش بعضها على النفايات وبقايا الحيوانات المتحللة ... الخ.

والحديث في هذا الأمر يطول وليس من اختصاص بحثنا / دراستنا. غير أننا نريد الوقوف عند هذه الظاهرة الكونية الجديدة ونرى كيف إنّ أعظم الخسائر البشرية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية – التي هي أكثر الدول الرأسمالية تطوراً وانتاجاً، لاسيّما في ما يتعلق بإنتاج مختلف الاسلحة، ومنها الاسلحة الجرثومية وأسلحة الدمار الشامل – حدثت في المناطق الفقيرة التي يعيش فيها السود وبقية الاجناس الملونة المنحدرة من اصول وأعراق مستضعفة !

حتى إنّ العلماء والخبراء والاطباء غير السياسيين (ولنقل انهم يتحدثون بلغة الأرقام العلمية) بل الاقتصادية... وما ينطبق على لندن انطبق على (نيو يورك) وحيّ الزنوج والملونين والبؤساء في أعظم مدينة من مدن العالم.

وكما سمعت اليوم (الرابع عشر من نيسان 2020م) من اذاعة ((مونتي كارلو))، فإنّ الرئيس الفرنسي (ماكرون) نفسه صرّح بأن العمال الفقراء والمهمشين، والشرائح المستضعفة – وحدد منهم طلاب المدارس في الأرياف – هم أكثر الشرائح تضرراً من هذا الوباء الذي أصاب بلاده والبلدان الأوروبية المجاورة، وما يزال يقتل الكثير من الايطاليين والاسبانيين/ الاسبان .... في حين راح الرئيس الأمريكي (ترامب الأهوج) – في اليوم الذي تلى التاريخ أعلاه – يُعلّق ويوقف المساعدات المالية الممنوحة لمنظمة الصحة العالمية من أجل تسييس القضية وألقاء اللوم على هذه المنظمة المهنية الدولية التابعة للأمم المتحدة لسببين متداخلين: لأنها لم تخضع لإرادته في تزييف الحقائق والأرقام من جهة؛ ولأنه لا يريد الاعتراف بضعف استعدادات أقوى دولة في العالم لمواجهة هذه المصيبة الكارثية التي جعلت أرقام الوفيات عندهم هي الأعلى في العالم.

وبإلقاء اللوم على منظمة الصحة الدولية

يريد ((الأهوج)) التنصل من مسؤولية ادارته، المتخبطة الفاشلة، أمام الناخبين الذين يظن انهم سيعاودون انتخابه لرئاسة البلاد في الدورة الثانية القادمة.

واستمر كذب وتبجح ترامب متصاعداً، حتى في اليوم السادس عشر من نيسان حين وصلت الوفيات في بلاده إلى رقم (2600 شخص) خلال الأربع والعشرين ساعة – وهو أعلى رقم مُسجل منذ بدء الاصابات الأولى وحتى ساعة كتابة هذه السطور – يتبجح ويقول إن بلده تجاوز ذروة الجائحة وكأنه متنبئ وعالِم غيب و((فتّاح فال)) ... معلنا بأن ثمة قرارات ستصدر لتدوير عجلة الانتاج وتنشيط عمل الشركات؛ وكأنّ الأخيرة هي همه الأساس بوصفه صاحب شركات بدل أن يعلن حداد البلاد على تلك الأرواح المزهقة بسبب ضعف الرعاية الصحية وتحكم أمثاله من الرأسماليين الجشعين بمفاصل هذا الجانب الحيوي من الحياة !!

ولم تمضِ أربع وعشرون ساعة أخرى حتى فشلتَ نبوءات ((ترامب الكذّاب))، وأعلنت اذاعة مونتي كارلو في نشرة صباح الجمعة (17 / 4 / 2020م) عن رقم وفيات جديدة/ صادر عن وزارة الصحة الامريكية عدده (4505)، والحبل على الجرار كما يقال في الأمثال الدارجة.

نحن لا نشمت بالشعب الأمريكي المغلوب على أمره بنظام مسرحي (يعطونه أسماء ما أنزل الله بها من سلطان: الديموقراطية – اللبرالية - العولمة .. الخ) لا يصل إلى سدة الحكم فيه إلا السياسيون الذين تدعمهم شركات التجارة والمال التي ذكرناها سابقاً، لكننا نريد التوضيح كيف إنّ الرأسمالية لا تخرب البيئة وتسبب تغيّر المناخ فحسب، بل وتجعل النظام الصحي وحماية الإنسان سلعة وتجارة يتحكم بها الأغنياء وتقف عاجزة أمام كارثة كهذه التي احتوتها الكثير من البلدان الأقل شأناً من الولايات المتحدة الامريكية، إن لم نقل إن جارتها الاشتراكية " كوبا " كانت ومازالت تعطي الأولوية للرعاية الصحية والتعليم والسكن والغذاء بدل ناطحات السحاب !!

ما الذي يعنيه هذا الأمر، إذن ؟!

يعني إنّ الفروق في التغذية والرعاية الصحية، والتي اعتادت الأدبيات الماركسية تسميتها بالفوارق الطبقية، وراء هذه الارقام العلمية المحضة التي هي وقائع لا تقبل الجدل.

بالطبع نحن لا نريد الحديث عن واقع مأساوي موجود في المجتمعات الطبقية منذ تغيّر أنماط الانتاج، وتشكّل بنى وأنماط اقتصادية ذات طابع استغلالي بدأ بعد تفكك وحدة المجتمع / القبيلة و"المشاعية البدائية" وانتهى إلى نظام العولمة الرأسمالية الربوية الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، أو ثُلّة من تجار السلاح والحروب ونظام الصيرفة والانتاج النهم من خيرات الكوكب على حساب المناخ والتوازن البيئي وصالح عامة الناس والشعوب.

ما نريد الوصول إليه هو البرهنة على إنّ المال والمنافع الاقتصادية، وتغوّل الرأسمالية الشرهة الشرسة، وراء كل شيء. وراء هذه الصدمة الجائحة التي هزت أركان الكرة الأرضية وجعلت ((التباعد الاجتماعي))، والخوف من الآخر، شعاراً لها .. مما عمّق مشاعر الاغتراب التي تحدثنا عنها مطولاً كما لو أنّ الصورة التي رسمها القرآن الكريم

ليوم المحشر تصير واقعاً مُعاشاً: هنا في هذه الحياة الدنيا وليس في الآخرة، أو ما سميّ بيوم القيامة !!

نحن لا نسيّس الأمور أو نؤدلجها. الواقع الحياتي والاقتصادي وحقائق الأرقام والاحصاءات تفرض نفسها علينا، وتؤكد ما كنا قد كتبنا عنه وأكدنا عليه في أكثر من بحث على إنّ جذور مشاعر الاغتراب تجد تربتها الصالحة في المجتمعات الطبقية ... وما نقصده بأنواع الاغتراب البشري، الذي له آلاف الصوّر عند الفنانين والأدباء، هو نفسه في حياة الناس الشخصية والنفسية ومعظم النزاعات البشرية بما فيها الأسرية.

موقف بلزاك من العلاقات الاجتماعية في ظل سيادة الطبقة البرجوازية

قبل ماركس بسنوات طويلة كان بلزاك، الأديب الفرنسي العظيم، يتحدث عن موضوعة الاغتراب - التي هي اليوم مصيبة التباعد الاجتماعي - وهو يُعلن: فتشوا عن المال ستجدونه وراء كل المصائب. وعلى الرغم من أن (بلزاك) كان ينحدر من اصول برجوازية، لكنه تحدث بلغة الأدب (وليس بلغة ماركس الاقتصادية العلمية الاحصائية) عن دور البرجوازية كطبقة خالقة للنظام الرأسمالي الشرس، ومساهمة هذا النظام في تدمير العلاقات الاجتماعية وخلق مشاعر الاغتراب والاضطراب وعدم التوازن في تلك العلاقات، إلى الدرجة التي عدّه فيها ماركس ورفيقه انجلز بوصفه أفضل من ((مؤرخيّ واقتصاديّ واحصائيّ عصره المحترفين أجمعين)).[2]

لقد جعلت الرأسمالية، كنمط انتاج، من المال ربّاً مسيطراً كما صورها بلزاك في ابداعاته الروائية لاسيّما في رواية ((الأب غوريو)) الخالدة .. وبسبب نقاء ضمير بلزاك فقد اضطر للسير في طريق يخالف الطريق الذي سارت فيه الطبقة التي كان تعاطفه كله معها، ومعتقداته السياسية كلها تؤازرها، كما أشار فريفل: "ولأنه رأى ضرورة أن يسقط النبلاء البرجوازيون من خلال الطريقة التي وصفهم بها وكانت منسجمة مع المصير الذي آلوا إليه؛ إذ طرح جانباً نموذج البطل الارستقراطي النبيل الذي كان يقضي يومه بمشاغل القلب وحده، وغاص في معترك الحياة وكشف عن العالم الحقيقي وسيولة الحياة اليومية بما فيها من طبقات وفئات متنوعة ومتصارعة: أصحاب أعمال كبار، باعة متجولون، شرطة ومحتالون، سيدات الطبقة البرجوازية والغانيات البائسات ..الخ، وما (الكوميديا الإنسانية) التي كتبها (بلزاك) إلا عبارة عن فضح رائع وخطير لمجتمع المال البرجوازي الذي يجعل من كرامة الإنسان قيمة قابلة للعرض والطلب والتحويل، ومن الحرية شعاراً خادعاً لتغطية واقع حرية التجارة وتجارة الحرية بدلاً من حرية الشعوب المضطهدة والطبقات الفقيرة.. وبذلك استطاع المال - من خلال هذه الكوميديا الرائعة - أن يشتري النساء، الغانيات والأبناء والبنات، الجمال والفن والفضيلة. ونتيجة لكل هذا فقد تحوَّل المجتمع البرجوازي إلى مجتمع أناني حقود قاسٍ يرفع شعار: "كل إنسان لنفسه والويل للمغلوب!!" كما لاحظ (فريفل) الذي يلخص هنا ما ورد في (البيان الشيوعي) لماركس وانجلز عن الواقع البرجوازي. (تُراجع صفحة 112 من كتاب فريفل المذكور سابقاً).

اليوم، وبعد صور بلزاك الروائية، وتحذيرات ماركس .. بعد الحرب العالمية الثانية ووصول الصراع بين معسكرين إلى صدامات دموية في مناطق كثيرة من العالم .. بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وانفراد الولايات المتحدة الامريكية للتحكم بالعالم، فإلى أين وصلنا بعد التغيّر المناخي والتصحر والكوارث الطبيعية وتحول لبنان (الذي كان يسمى بلبنان الأخضر) – على سبيل المثال لا الحصر – باتجاه قلة مياهه وانهيار عملته ورزحه تحت عبء المديونية بمليارات الدولارات، وتشتت أبنائه، وركوب الفقراء منهم لزوارق الموت ... الخ ... وكذا الحال بالنسبة لدول مثل مصر التي كانت تُسمى "أم الدنيا" – ذات الأساس الحضاري التليد – والعراق الذي ما يزال يعوم على بحيرة من النفط وغيره من الخيرات؛ اليوم أصبحت هذه الدول وعشرات مثلها فاقدة للسيادة وخاضعة لشروط البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وشارع المال (ويل ستريت) في نيويورك، والبورصات العملاقة، ومصارف الاستثمار الضخمة التي تزيد أرباحها الربوية عاماً بعد عام، وبقوة القانون الذي يصنعه ويشرّعه الأقوياء أصحاب شركات السلاح ومصانع الذخيرة وتجار الحروب، وبعض شركات الميديا ومؤسسة (مردوخ) الصحفية الإعلامية وأضرابها من جهابذة الصهاينة ؟

حتى قبل جائحة الكورونا ببضع سنوات أعلن الطبيب والعالِم النفسي الامريكي (إريك فروم) عن عجزه من عمليات شفاء المرضى كأفراد؛ بعد أن أصبح الاغتراب وحالات التباعد الاجتماعي كمرض من أمراض العصر، وشكل من أشكال الموّاتْ الداخلي فكتب ما يلي:

"وهذه المعاناة المشتركة هي الاغتراب عن الذات، والأقران، والطبيعة، وهي الاحساس بأن الحياة تتسرب من بين الأصابع كالرمال، وأن الموت سيأتي قبل أن يكون المرء قد عاش حقاً، وأن الوفرة التي يعيش فيها لا توفر له البهجة"[3].

هذا هو، إذن، الحصاد المُرّ للرأسمالية كطريقة انتاج .. والآتي أعظم.

*** كاتب عراقي مستقل مقيم في سورية**

المصادر والهوامش

1 - ليونارد جاكسون: نزع مادية كارل ماركس – ترجمة ثائر ديب – منشورات المركز القومي للترجمة / القاهرة 2014م.

2 - جون فريفل: الأدب والفن في ضوء الواقعية الاشتراكية – ترجمة محمد مفيد الشوباشي / دار الفكر العربي – مصر.

3 - صفحة 27 كتاب (فرويد وبوذا – التصوف البوذي والتحليل النفسي) تأليف إريك فروم + د. ت. سوزوكي / ترجمة د. ثائر ديب – دار المركز الثقافي للطباعة والنشر – دمشق 2007م

المؤلف.. موضوعاً

د. سعد الحسني*

قليلا ما تكون القصة او الرواية او الفيلم السينمائي منحازا نحو المؤلف بقدر ما يعكسه هذا المؤلف من موقف تجاه قضية معينة. وفي عالمنا العربي انحاز ابرز كتاب الرواية والقصة نحو هذا الموقف فاصبح المؤلف يقف بمثابة الاب الذي يحرر الرخص للشخصيات القصصية او الروائية كي تتصرف حسب رغباته. ويحاول المؤلف على الدوام ان يقنع القاريء بوجهة نظره على الرغم من ان تقييم القاريء قد يختلف في نهاية القصة او الرواية او الفيلم. فرؤية المؤلف وخصوصا في الرواية تاتي من الرؤية النقدية التي تساند توجه القاريء او ما تعرف بالـ (Reader-Oriented Approach). وقد تبنى الكثير من الكتاب والنقاد الاشتراكيون هذ التوجه للقاريء بوصفه المتلقي الوحيد الذي ينبغي ان يحسن التعامل معه كي يخرج بعد القراءة بعبرة اخلاقية من شأنها ان تصلح المجتمع. وهذا في الواقع كان سائدا في الكتابة المسرحية منذ زمن سوفوكليس وصولا الى وليام شكسبير حين برز عامل التطهير (Catharsis) كاحد ابرز العوامل التي تنمي فعل الخير واجتناب فعل الشر وذلك من خلال وازعين هما الخوف والشفقة.

وعلى الرغم من تباين المدارس الروائية او النقدية الا ان المؤلف بقي خفيا حتى ان بعض الاعمال ابرزت الشخوص الروائية بدرجة مؤثرة تناسى فيها القاريء ان هذه الشخوص هي في الواقع دمى يلهو بها الكاتب ويحركها كيفما يشاء. ومن هنا جاء فهمنا الخاطيء لكره الممثل الذي يقوم بدور الشخصية الشريرة. وفي هذا الاطار نرى ان الاعمال التي تتمحور حول ظهور المؤلف قليلة مقارنة مع الاعمال التي يكون فيها مختفيا. وهنا لاتكمن الاشارة الى الروايات او القصص التي يتحدث فيها المؤلف مباشرة عن نفسه فقط بل نتحدث عن تلك الاعمال التي يصبح فيها المؤلف هو الشخصية الرئيسية بغض النظر ما ان كان بطلا مأساويا او كوميديا او ان كان بطلا في الاساس. وحين شبّه احدهم الرواية بانها فن الممكن كالسياسة مثلا فلأنه عدّ الحدود الروائية بين المؤلف والشخصية هي حدود قابلة للعبور من قبل كليهما. فهناك العديد من الشخصيات التي تؤثر على

مؤلفيها فتصبح ملازمة لهم وتبتلع كل ما يقوم بتأليفه فيما بعد. بمعنى ان المؤلف له شخصية مؤثرة لا تستطيع ان تخرج من جلبابها الا بعمل اخر يتحرر به من تاثير الشخصية السابقة. بينماهناك اعمال يكون فيها المؤلف هو الطاغي والمسيطر الذي يصوغ حسب رغباته تصرفات وسلوكيات واخلاقيات شخصياته التي لا تتحرك الا بامر منه. والنوع الاخير السائد هو الذي يعكس نرجسية الكاتب ويلزمنا بكيل الاطراء له عند نجاح العمل او التنكيل به عند فشله.

ان هذا الاختراق هو الجهد الذي يبذله المؤلف للولوج الى اعماق الشخصية عاكسا عليها انفعالاته ونوازعه وعواطفه وارادته وتصويرها باتقان بعيدا عنه. فهو لذلك يراها وهي لا تراه تماما حيث يتحكم بها عن بعد ولكن حين يريد المؤلف ان يخترق الحاجز الروائي ويتكلم هو بنفسه مخاطرا بالنرجسية لديه فهو يلجأ الى تذويب نفسه بالشخصية وجاعلا منها اطارا له تستوعب انفعالاته. اي ان الشخصية تكون بحجم ومقاسات المؤلف نفسه.

اذن هناك علاقة ثلاثية القطب ما بين المؤلف والقاريء والشخصية التي يقوم المؤلف فيها باذابة الشخصية في ذاته ويصبح هو الشخصية وعندئذ تتحول العلاقة الى علاقة ثنائية بحتة. ولاغرو من القول ان نسبة كبيرة جدا من الاعمال الادبية ترتكز بشدة الى الاقطاب الثلاثة وصولاً الى اقناع المتلقي باعتبارها تخلق توازنا من شأنه ان يجعل العمل الادبي منطقيا. فالمؤلف يكتب ويرسم الشخصية، والشخصية تتفاعل وتمتزج وتخرج تاثيرا يتماهى مع القاريء والقاريء يتأثر ويعدل من سلوكياته بناء على ذلك. لكن الاعمال الادبية التي قامت في الاساس على معادلة القطبين فقط قليلة، حيث يزاحم المؤلف شخصيته او شخصياته في الوجود كما فعل تشيخوف مثلا في بعض اعماله او ايريس مردوك في روايتها (الامير الاسود).

ومعظم روايات مردوك تعتمد على عمق الشخصية وليس من مظهرها الخارجي الخادع. ويبقى التقارب او التباعد بين المؤلف والشخصية مرهونا بمقدار ما يراه المؤلف مناسبا كي يسهل عملية ايجاد الحلول القدرية منها. في هذا الاطار تقول احدى الناقدات، مايا السمان، ان ايريس مردوك قد تبنت في مجمل رواياتها مبدأ ينصب على اننا "نعيش في عالم خيالي، عالم من وهم، والعمل العظيم في الحياة ان تجد الواقع. ودور علم النفس ونظرياته في تحليل الشخصيات ودوافعها".

الى هنا يبرز التساؤل الكبير في مدى تأثير بيرسن على بافن ومدى تأثير مردوك على بيرسن. ان هذا التداخل بين المؤلف والشخصية قد تواتر بشدة ضمن مقتضيات سير القصة التي ما ان انتهت من موت الكاتبين اللذين هما في الواقع من صنع المؤلفة مردوك الا ان المؤلفة خرجت لتلم اوراقها وتنفضها من غبار التفاصيل وتعلن بان كل ما عشناه نحن

كقراء هو مجرد قصة عن كاتبين هما في الواقع عبارة عن ظل لها. ولاجل ذلك فلا غرابة ان نرى مردوك تختتم روايتها "الامير الاسود" بحواشي كتبتها راشيل بافن زوجة ارنولد بافن الذي قتلته وحاشية اخرى بقلم جوليان واخيرا حاشية المحرر الذي سينشر الرواية.

ان تبادل الادوار هو من صنع المؤلفة.

اما المحور الثالث فهو محور المؤلفة التي عمدت في النهاية الى التنائي عن شخوص روايتها وصعدت الى برجها العاجي لتعلن انها غير مسؤولة عما الت اليه الامور بالنسبة الى شخصياتها لكن المراقب الدقيق الذي رآها ترسم اقدار شخوصها بدقة لا يبرئها من النهايات الماساوية او غير المأساوية التي انتهت بها تلك الشخصيات. في هذا المحور تنتصر المؤلفة بوصفها ليس فقط شخصية من الشخصيات تمثلت في برادلي بيرسن بل والكاتبة المسؤولة التي شكلت خارطة الشخصيات الجينية وجعلتها تتصرف كما تهوى هي وليس كما تهوى الشخصيات.

ان ايريس مردوك تنكر، كأي مؤلف ذاع صيته، وجود ذاتها في اعمالها.

ان كتاباً كبار مثل شكسبير قد فعلوا الشيء نفسه، ففي مسرحية (هاملت) يبتعد شكسبير عن شخصية هاملت الذي خط لنفسه نهايته بعيدا عن المؤلف الذي كان همه الاساسي هو الاهتمام بلغته الشعرية. اما مردوك فكانت مهتمة بالمسار الروائي الذي تطلب منها لغة تتباين ما بين شخصية ادبية مثقفة وشخصية يومية عادية. وعلى الرغم من اننا لسنا بصدد اجراء اية مقارنة بين شكسبير ومردوك الا انه لابد من القول ان شكسبير قد ترك لشخصياته الفرصة ان تتصرف على وفق اهوائها لهذا كان في الاغلب يعتمد القالب القصصي من ادبيات عصر النهضة الايطالية كما فعل مع مسرحية (روميو وجولييت) التي هي في الاصل قصيدة شعرية ايطالية بعنوان (Romeos and Julieta). لكن الامر كان مختلفا مع مردوك التي احكمت قالب القصة ولم تسمح لاي من شخوصها ان تتحرك خارجها.

ان هذا التبادل الحركي كان ولايزال محور اهتمام الكتاب قبل الشروع في رسم اية قصة بغض النظر عن لون او قومية القصة. فما يصح على الرواية الانكليزية يصح على الرواية العربية ايضا الى جانب وجود فوارق معينة ليس من شأنها ان تؤثر على الاطار العام للقصة او الرواية المكتوبة.

ان مردوك قد اثرت في العديد من المدارس القصصية والروائية العربية عبر ابتكارها لاسلوب المراوغة ما بين وجودها ككاتبة واختبائها وراء شخصياتها. ومن الممتع ان نتذكر ان الروائية العراقية الرائدة لطفية الدليمي قد اشارت الى ذلك التأثر حين قالت.."حصل في عام 1978 أن التحقت بدورة صيفية في كلية غولد سمث – جامعة لندن للحصول على دبلوم الأدب الإنكليزي واللغة الإنكليزية، وكانت

رواية مردوخ المعنونة (الأمير الأسود) واحدة من الأعمال التي تناولناها بالدراسة والتحليل؛ الأمر الذي ساهم في تعزيز معرفتي بالعوالم الروائية لمردوك، وينبغي التأكيد هنا أنني وبحكم انشغالاتي الروائية أوليتُ اهتمامي الأعظم للأعمال الروائية التي كتبتها مردوك وتجاوزتُ نتاجها الفلسفي الخالص.“

ويبدو ان الرواية العربية قد تأثرت عن طريق ترجمة الاعمال العالمية او عن طريق تطور التجربة الروائية للروائيين العرب وبالاخص الكتاب المصريين والعراقيين. وقد جاءت رواية (عالم بلا خرائط) لجبرا ابرهيم جبرا وعبد الرحمن منيف معا كمثال بوصفها من الاعمال التي اثارت جدلا في القرن الماضي.

وفي الوقت الذي كان فيه اسلوب جبرا خبريا يميل الى الوصف فيما تقع عليه عيناه ويشطح احيانا الى تتبع الاسلوب الخيالي في ابتكار جملة من الاحداث تشكل خيوط القصة اعتمد منيف على اسلوب مغاير يعتمد السرد القصصي المستند الى جزالة العبارة وموهبة اختيار المفردة والاسلوب الاخاذ في الامكانية التصويرية. ومن هذا المنطلق يستطيع المتتبع لكلا الكاتبين ان يميز بسهولة الفرق في اسلوب الكتابة. فكان الاسلوب الخيالي لجبرا وسيلة الاقناع بينما تمعن منيف في الاسلوب الواقعي التصويري. وهذا قد يتلمسه القاريء في رواية (عالم بلا خرائط) حيث اكثر من ثلثي الرواية هي من كتابة جبرا والتي تحدث فيها عن مدينة فلسطينية اسمها عمورية تدور فيها احداث القصة.

في الواقع ان تبادل المؤلف للدور مع الشخصية التي يخلقها له اهداف عدة منها على سبيل المثال لا الحصر ان المؤلف يريد ان يسمو بنفسه بوصفه الواعظ الوحيد الذي له امكانية الهيمنة على مصير وسلوك الشخصيات الاخرى في القصة. وباقتباسه هذا الدور يذكرنا بوظيفة الكورس (Chorus) في الدراما الاغريقية القديمة حيث كان الكورس يقوم بعمل المعلق على الاحداث والواعظ حول ما يجري من احداث اضافة الى اشتراكه في بعض الاحيان كشخصية من شخصيات المسرحية. ان وجود المؤلف مختفيا وراء الشخصية الرئيسية قد اعطاه حق القيادة لانه يجعل جميع القصة تدور حوله وليس حول اية شخصية اخرى قد تتلاشى في اهميتها مهما بلغت من امكانية في تصعيد الحدث (incidence escalation). ومع بلوغ الذروة او الـ (Climax) تتراجع كل الشخصيات الثانوية لتتيح المجال للشخصية الرئيسية في رسم النهايات لها ولغيرها. وهذا ما حدث في (عالم بلا خرائط) حين تراجعت كل الشخصيات الفاعلة لتتيح المجال لشخصية علاء السالم كي تضع النهاية المناسبة للقصة. وبذا يمكننا ان ندرك السبب وراء تراجع شخصية بدت للوهلة الاولى مهمة في رسم احداث القصة وهي شخصية نجوى التي تعلق بها علاء الى حد الجنون وكاد ان يرسم لها مستقبلا معه

لولا ان طغت عليه نرجسيته او نرجسية المؤلف فبدأ في تقليل وهجها تباعا من خلال اتهامه اياها ربما بالتلاطف مع شقيقه صفاء رجل الاعمال او متهما اياها بالخيانة لزوجها الذي اصبح صديقه فيما بعد واخيرا متهما اياها بالانغماس تماما في عالم الاعمال مكونة ثروة كبيرة ارادت لعلاء ان ينجذب لعالمها ايضا دون جدوى.

بهذه الطريقة استطاع المؤلف جبرا وربما اقل منه عبد الرحمن منيف في الفصول الاخيرة للقصة ان يجد متنفسا للكاتب من خلال التباين بينه وبين كل ما حوله. ان التداخل ما بين الشخصية والمؤلف قد يجد له اصداء متباينة لدى القراء او النقاد.

ان السلبية التي يقع بها المؤلف تكمن كما قلنا في النرجسية الفاضحة من خلال استخدام الانا الكاذبة او المغلفة، بمعنى ان جبرا ومنيف معه قد اراد ان يعبر عن انطباعاته الشخصية الذاتية ولاجل ان لا تفضحه هذه النرجسية ابتكر فكرة الكاتب علاء كي يتحدث عنه لكنه شيئا فشيئا وعند نهاية الرواية بدأ المؤلف ينزوي بعيدا عن علاء الكاتب تاركا اياه يتعثر وربما يسجن مدى الحياة او يموت كما فعلت ايريس مردوك في روايتها او يواجه اي مصير اخر. لا يهم طالما ان المؤلف خرج من مصيدة التلبس بعدما اشبعنا واتخمنا بالكثير من نرجسيته واختلافه عن كل الاخرين. وهنا لابد من القول ان بعض النقاد لا يرون ضيرا في ان يكون المؤلف جزءا من الرواية ولايتحسسون من النرجسية التي طالما تفرض توجسا لدى الكثير من القراء.

في هذا الاطار يرى الناقد المصري مجدي توفيق بان من حق الكاتب ان يتداخل مع شخصية روايته طالما كان هناك مجال للحيوية والتأثر. ان تلخيص هذه التجربة التي تحتاج الى تمحيص ودراسة مكثفة من قبل الباحثين لانها تعمل على تشذيب طرق كتابة الرواية باسلوب اكثر نضجا وتمكنا يتطلب التمعن في جذور هذا التداخل ما بين، كما اسلفنا، الكاتب وشخصيته الروائية.

هذا في الواقع ما لم نجده في رواية (مدن الملح) مثلا لعبد الرحمن منيف وحده، وهو السعودي الذي قدم لنا صورة المجتمع السعودي ونهوضه من مجتمع البداوة الى مجتمع النفط القائم على اساس انتشار الثروة باسرع من انتشار الحضارة. هنا منيف لم يجعل من نفسه اداة يتحدث عنها في مستلب قصته الطويلة. بل انزوى بعيدا خلف الضمير الغائب ليجعل احداث (مدن الملح) تتحدث عن نفسها مما ترك تعاطفا كبيرا من قبل القراء مع الكاتب الذي توارى عن الانظار تاركا تأثيره مباشرا عليهم. ان ركون الكاتب الى التحدث مباشرة الى القراء يوقعه في مستنقع النرجسية مما يكون سببا مضافا الى ابتعادهم عنه. لكن يقينا ان كان الامر ينصب في كتابة السيرة الذاتية كما فعل مثلا طه حسين في كتاب (الايام) الذي يروي قصة حياته

فهذا امر اخر منوط بتقييم من نوع اخر ولا ضير من قيام كاتب برواية سيرته الذاتية. لكن حتى في مفصل كتابة السيرة الذاتية ينبغي ان يبتدع الكاتب اساليب خاصة يخفف فيها من حدة النرجسية الطاغية عليها والذاتية المفعمة بالانا، ولهذا ترى ان طه حسين مثلا لجأ حين تحدث عن نفسه الى استخدام الضمير الغائب (هو) بدلا من الـ (انا) للاشارة الى نفسه.

ان العلاقة بين الشخصية والمؤلف هي علاقة جدلية تأخذنا لمصطلحات عديدة من شأنها ان تؤطر هذه العلاقة حسب اهواء مؤلفيها لكن افضل تحديد لها هو مصطلح التخييل الذاتي (Auto fiction). وهذا المصطلح كما يشير الباحثون مكون من اشكالين في الواقع احدهما هو الذاتية (Auto) التي تنطوي في محتواها الواسع على السيرة الذاتية او الفعل الكلامي المرجعي فيما يضعنا الـ (Fiction) في الفعل الكلامي التخيلي. ومن هذا المنطلق يرى الناقد التونسي عبد اللطيف الوراري ان العلاقة الجدلية بين هذين الجزئين تدفع الرواية او القصة نحو الخضوع الى الواقع سواء كان متخيلا او واقعيا ملموسا. وازاء ذلك يضعنا الوراري في مفترق مشروط بمقدار " تطابق الاسم العلم (المؤلف- السارد- الشخصية) الذي يضعنا في المحور الواقعي". اما شرطه فينصب فيما " إن كانت القصة المروية تُحيلنا بوضوح إلى عالم التخييل بسبب التعارض الدلالي بين العالم كما نتلقّاه والعالم كما يُرْوى داخل الحكاية".

وفيما استخدم الروائيون هذا المحور الثلاثي غير المقدس بين المؤلف والشخصية والقاريء فان المخرجين السينمائيين من ناحية اخرى استخدموا هذه العلاقة الثلاثية الاقطاب في افلامهم رغم انهم استبدلوا القاريء بالمشاهد. واذا كان هم اي روائي هو التأثير في قرائه فان هم اي مخرج ان يمارس تأثيرا مرئيا ومسموعا اكثر على مشاهديه لانه في هذه الحالة يعتمد على الكاميرا التي تروي بصمت ما يريده المخرج رغم ان الكاميرا سواء بطريقة الـ (Zoom-in او Zoom-out او الـ Pan او الـ in-take) لابد ان تختصر الكثير من التفاصيل الممتعة والمسهبة التي عانى الروائي في سردها وانتقائها ليضعها بين يد قرائه وهو لا يعلم انها سوف تختصر بحركة واحدة: صفحات عديدة تختزلها الكاميرا وتحولها الى مشاهد مرئية قد يضيف عليها المخرج موسيقى تصويرية بغية الوصول الى المعنى الكلامي المكتوب فتعطي الانطباع للمشاهد عن الواقع المتخيل.

هذا في الواقع ما فعله اغلب المخرجين الذين قاموا بتحويل رواية (Wuthering Heights) لاميلي برونتي مثلا الى فيلم رغم ان نسخة محطة بي بي سي كانت الاهم والاقرب الى الواقع القصصي. فقرابة اربعين صفحة من الوصف الدقيق لمرتفعات ويذرينغ يختصرها المخرج في (Pan) كامل وينتهي بحركة (Zoom-in)

كي يدخل الى البيت الذي تجري فيه الاحداث. وما جرى في (Wuthering Heights) يجري في فيلم اخر جدير بالمشاهدة هو فيلم (موت مؤلف) والذي ابدع في تمثيله الممثل البريطاني بين كنكسلي وهو الممثل نفسه الذي قام بتمثيل شخصية غاندي. في هذا الفلم ايضا هناك تداخل يشكل المعادل الموضوعي ما بين المؤلف والشخصية والناشر. أذن في كل عمل ادبي او فني هناك تأثير متبادل غالبا ما يرسمه المؤلف بدقة وتتورط به الشخصية ويتحمل عبأه القاريء او المشاهد.

***استاذ مساعد - رئيس قسم اللغة الانكليزية / كلية الاسراء الجامعة**

الهوامش:

1 - Henry James, Portrait of a Lady, Foul Book, Intro.
2 - Charles E. Bressler, Literary Criticism, 5th edition, Pearson
3 - الامير الاسود. ترجمة /سعد الحسني، تمهيد/ مايا السمان، دار الحكمة – لندن.
4 - مقابلة اجرتها مجلة Paris Review مع ايريس مردوك، Wikipedia .
5- مقابلة مع الروائية العراقية الرائدة لطفية الدليمي، صحيفة المدى اليومية عام 2013
6- ابراهيم فتحي، ناقد مصري يساري، Wikipedia
7- سعيد الكفراوي، قاص وناقد مصري من جيل الستينات، Wikipedia
8- سلوى بكر، روائية وناقدة مصرية اختصت بالادب النسوي، Wikipedia
9- د. مجدي توفيق، ناقد مصري، ملتقى رؤى، Wikipedia
10- عبد اللطيف الوراري، نافد وشاعر مغربي عضو بيت الشعر المغربي، Wikipdia

لوحاتٌ لم تكتمل

خالد الحلّي

لوحة مائية

أيامٌ غرقى وزوارقُ مثقوبَةْ
ومياهٌ يجرحُها الملحُ
بَحّارون ينامون على موجٍ
ليسَ لديهِمْ فجرٌ أو صبحُ
ليلٌ يعقبه ليلٌ
جرحٌ يعقبه جرحُ
أيامٌ تتقافزُ كي تطفو
تغمرُها الأمواجُ عميقاً
فتنوحُ دموعُ الرسامْ
وبحزنٍ يصرُخُ: أينَ الأيامْ؟

لوحة ترابية

أيامٌ منهكةٌ
تتبعثرُ في البرّْ
تتساءل حيرى
كيف سننجو من صولاتِ الثأرْ
مابين الخيْرِ و مابين الشّرْ؟
سكَتَتْ سارحةً
سربُ حماماتٍ بيضَ يحلّقُ
أطفالٌ يلهون على مَهَلٍ
أنسامٌ تتراقصُ في غنجٍ
قالتْ بحنانْ
ما أحلاني من أيّامْ
كانَ الرّسامْ
يتأمّلُ نشوانْ
لكنْ .. ماذا يحصُلُ ..؟
ماذا حصّلَ الآنْ؟!
هبّتْ ريحُ

عَصَفَتْ بالفرشاةِ وبالألوانْ
قال الرّسامْ:
كيف سأرسمُ أياماً لا يأمنُها فنّانْ؟

لوحة زيتيّة

رسم الرّسامُ مساراً حلواً للأيامْ
قال سعيداً فرحانْ
سأحاولُ فالدنيا
تستأهلُ أنْ نحيا
ما طالتْ بهجتُهُ

قتلتْ متعتَهُ
أصواتُ صُراخٍ وبُكاءْ
أصواتٌ تتساءَلُ في هلَعٍ:
منْ يقتلُ منْ؟
صارَ الرّسامْ
يبكي و يتمتمُ:
كيف سأرسمُ أحلامي؟
أينَ ستمضي الأحلامْ؟

ملبورن
2020/ 1/ 22

لماذا لا تنحت حيوانات أخرى؟

إيڤون ڤيرا
ترجمة جودت جالي

يجلس خارج بوابات المستشفى المخصص للأفارقة، يصنع نماذج من الخشب. النتاجات المنجزة فوق صحف قديمة على الأرض حوله، فيما يجلس رسام على يمينه، وعمله المنجز يستند الى سياج المستشفى خلفهما. في المنطقة المكتظة، سيارات تطلق منبهاتها، وحشود تمر عابرة، وأصوات ترتفع، وسيارات إسعاف تسرع الى وحدة طوارئ المستشفى، وضوؤها البرتقالي الوامض يعطي تحذيرا واضحا للسيارات المقتربة. يجلب النحات الدغل الى المدينة من خلال الفيلة التي ينحتها، وكذلك الزرافات، برقابها المائلة بغرابة. حيواناته تمشي على صفحات الجرائد المطبوعة، ولكنه يقول بتفجع أنها لا حياة فيها، وأحيانا وهو في نوبة غضب يجمع حيواناته ويرميها بهياج شديد في صندوقه الكارتوني راغبا في أن لا يرى أشكالها معدومة الحياة إزاء حركة المرور الفوضوية عبر بوابات المستشفى. هل تريد ذلك التمساح؟ إنه تمساح جيد. هل تريده؟ امرأة تلاطف صبيا صغيرا يبكي بعد زيارته للمستشفى وقد ربطوا ضمادا بإحكام حول ذراعه اليمنى. يسند الصبي ذراعه بيده الأخرى مدركا لملاطفة الأم التي تجعله ينتبه لما في مظهره من تشوه مؤقت. تقرفص الى جواره وتنظر في عينيه وهو يشكو من الحقنة التي زرقت له. أبلغت الرجل قائلة "أنت تعلم كم يخاف الأطفال من الإبرة". إشترت التمساح وناولته للصبي. يراقب الرجل واحدا من حيواناته يذهب محمولا بين أصابع الصبي بالغة الصغر. حيواناته لا تمتلك حياة في داخلها، وحاول الرجل إرجاعها الى الصندوق. تساءل إن كان الطفل سيرى في حياته تمساحا متحركا وهو محاط بالمدينة القاحلة حيث الأنهار الوحيدة هي الطرق المزفتة.

يقف رجل أبيض ناظرا الى الفيلة، والى الرجل الذي يستمر بالنحت. التقط فيلا أحمر جعل النحات خرطومه على طول جسمه فلا يستطيع رفعه. أيوجد فيل أحمر؟ الغريب حائر في الأمر ومتأمل ولكنه يقرر شراء الفيل مع أنه منحوت دون اتقان ولا يستطيع رفع خرطومه. سيضعه جوار النافذة في مكتبه حيث يستطيع النظر خارجا الى طابور المرضى. لماذا لم تُنحت عينان في الفيل؟ ربما غمرهما الصبغ.

يأخذ النحات فجأة يتلفظ باللعنات. سأله الرسام "ما هي المشكلة؟ " فيقول النحات "أنظر الى هذه الزرافة!" ينظر الرسام الى

الزرافة وينفجر الرجلان بضحكة مضطربة فليس من السهل أن تضحك وأنت تجلس بهذا القرب من المرضى. تساءل النحات إن لم يكن قد نحت بهذا النحت صورة ما لنفسه هو. ينظر الى الصندوق الكارتوني الذي بجواره ويقرر أن يضعه في الظل بعيدا عن النظر. يسأله الرسام "لماذا لا تنحت حيوانات أخرى. مثل الأسود والشمبانزي. أنت تنحت دائما زرافات ولم تبع سوى تمساح واحد". للرسام بعض التأثير على عمل النحت بإعارته الأصباغ ليلون حيواناته. كان الفيل الأحمر فكرته فالفيل ساد الغابة زمنا طويلا وهو أقدم من الغابة، ولكن الزرافة تمد عنقها وتختال به فوق الأشجار كما لو كانت الغابة ملكها. تأكل أكثر الأوراق علوا بينما الفيل يقضي اليوم يتمرغ في الطين. ألا تجد الأمر مثيرا للإهتمام؟ هذا الصراع بين الفيل والزرافة، لأكل أكثر الأوراق علوا في الغابة؟ سيارات الإسعاف مرت خطفا داخلة الى وحدة طوارئ المستشفى المخصص للأفارقة.

فكر الرسام قليلا فيما كان يضع اللمسات الاخيرة على صورة لشلالات فكتوريا رسمها مما تخزنه ذاكرته من صور رآها في الصحف والمجلات. لم ير الشلالات أبدا، ولكنه فكر بأن الماء لا بد أن يكون أزرق ليعطي إحساسا للصورة، ولقد أخبروه أنه عندما يُرسم الماء في الخريطة فيجب أن يكون أزرق، وحقا عندما يوجد الكثير منه، كما في البحر، يبدو الماء كالسماء، ولذلك هو سخي بالألوان في تلوين تصويره والامواج ذات الزرقة المنفرة تسقط

بشكل غير طبيعي كالشلال على الجرف الصخري. الزرافة تسير بكبرياء، بخطوات ملكية، وذلك للزينة الجميلة التي تحملها على ظهرها. ذلك هو سبب الصراع، وإلا فهي والفيل سواء، فالفيل عنده خرطومه لبلوغ الأوراق والزرافة عندها عنقها الطويل.

أقحم الرسام رسم عاشقين في زاوية الصورة، يحتضنان بعضهما بعضا فيما يحدقان بنظرة محبة في الماء الازرق. يريد أن يجعل الماء يغني لهما ولهذا رسم طيرا في أعلى الرسم، يحوم فوق الشلالات، ومنقاره مفتوح بالغناء. يتمنى لو أنه رسم حمامة بدلا من هذا الطير الأسود الذي يبدو كالغراب.

استعار النحات بعض الصبغ ووضع بقعا سوداء وصفراء على الزرافة ذات العنق القصير. لقد اقتنع منذ زمن طويل بأنه لا

يستطيع نحت حيوانات كاملة- ولكنه لن يرميها بعيدا. ربما ينجذب شخص ما خارج من المستشفى المخصص للأفارقة الى بعض البهجة تتجلى في قطعته، ولكنه عندما انتهى من وضع البقع سال الصبغ على جوانب الحيوان وبدا كالحمار الوحشي نوعا ما.

لماذا لا تنحت كلبا أو قطة؟ تنحت شيئا رآه سكان المدن. حتى الفأر سيبدو مناسبا إذ يوجد الكثير من الفئران في المنطقة! يضحكان كثيرا. يدرك الرسام أن رذاذا كثيرا من الشلالات لا بد أن يصيب العاشقين، وهكذا رسم رأسيهما تغطيهما مظلة حمراء. يلاحظ فجأة أن شيئا ما مفقود في الصورة فأطال يدي العاشقين الحرتين وأعطاهما بعض الآيس كريم الأصفر. الصورة الآن مفعمة بالحياة.

ما الغاية من نحت كلب؟ لماذا لا تنحت كلابا وقططا وفئرانا؟ لم ير النحات في حياته الفيل أو الزرافة اللذين ينحتهما بحماس. يلتقط قطعة من الخشب غير المشكل. هل ستكون زرافة أم فيلا؟ إن نحته هو ممارسته للحلم أيضا.

المصدر:

Why Don't You Carve Other Animals. Yvonne Vera. 1992

(Yvonne Vera 1964-2005) ولدت في زيمبابوي ودرست في كندا. أصدرت مجموعتها القصصية الأولى (لماذا لا تنحت حيوانات أخرى؟) 1992 وصدرت روايتها (نهاندا) في زيمبابوي التي عادت اليها سنة 1995. رواية (تحت اللسان) 1996، ورواية (احتراق الفراشة) 1998 و(عذراوات الحجر) 2002. حازت جوائز عالمية عديدة. رجعت الى كندا حيث توفيت.

وهم الضوء وانكساره بين مكبث شكسبير وأوديب سوفكلس

د. جبار صبري

ان المرآة التي كانت اطوار تفكير وأفكاراً ومفاهيم كانت تعكس ظلالنا ولم تكن لتعكس صورنا، فما نراه عبر المراحل الثلاث من الخطابات: خطاب النص الميتافيزيقي والنص الحداثي وما بعد الحداثي، كان مجرد أضغاث حقائق، اعتباط وجود.. كان وهما يتراكض قدّامنا وكأنه حياة. وكأنه حقيقة عيانية وخالدة. وأن سرها يكمن بمقدار ظهورها.. وهكذا تتردد صرخة شكسبير في المرآة، وعن طريق بطله الدرامي/ الفلسفي مكبث: ما الحياة الا ظل عابر. كان هوسه باغتيال النوم بعد قتله الملك هوسا باتجاه قتل الحقيقة. هوسا يؤرخ انحراف حركته من الهدف المطابق للحقيقة الى الهدف الآخر الذي ليس من الحقيقة بشيء. إن مكبث بقتله الشنيع للملك إنما قتل اللانهائي فيه. لذلك هو عقيم، فادرك كم ضآلة النهائي الذي أراده.

أدرك مكبث أن اليقظة كانت غش يقظة وأن حركة القتل هي انحراف. لذلك استدركه العقم وأن الحياة بعد ذلك هي غش حياة. بل أن النوم الذي غالى في اغتياله والذي تراءى جنونا عنده كان اليقظة الكبرى والتناسل العظيم، فما كانت نتائج أفعاله الا أوهام أفعال لم تصل الحقيقة. بل وصلت أضدادها. وبدلا من أن يصيب سهم النور في العماء أصاب سهم العماء في النور. كل نوم هو سلام. وكل يقظة هي هلاك. لذلك الموت راحة والحياة شقاء والظهور فناء والاختفاء خلود.

الأمر الذي دفع مكبث لاغتيال النوم اعتقاده الذي توجّه به من وراء تأثير الشفرات السابقة عليه. اعتقاده القائل بأصل اليقظة وزيف النوم، وأنه يصل بقاءه من وصل ظهوره. من تلك الحركة التي أدركها في مجسداته، في ذلك الواحد بمسمّى الاعداد، في ذلك الفهم الذي جبله على شرعة النهار ولم يجبله على شرعة الليل. في كل ذلك الحضور المشروط بحسّه المرابط مع ما تخارج عنه. في مصداق ما يحتك اثناء الحركة. في التصارع والتصادم جميعا.

اذا كان الواحد جسما وكان الصفر عقلا/ حقيقة، وبالمنظور اللغوي نماثل

هذه الثنائية المتعالقة مع ثنائية الدال والمدلول، فان الواحد اعتاد السير، اعتاد الحركة، ومن هذا الواحد عرفنا المفهوم والتصقنا بالمكان وأهملنا الزمان. من هذا الواحد/ الظهور – بالضياء التمسنا القياس والمعيار والتفاضل. بل التمسنا الادراك والفهم والوجود. وبالنتيجة ذهبنا الى الصفر بوسيط الواحد، ذهبنا الى المعنى بوسيط الشكل. ذهبنا الى العقل بوسيط الجسم. ذهبنا الى الطاقة بوسيط الاحتكاك/ الحركة..

إن الواحد دالّ يؤجل مدلوله: يؤجله في ضوء الحركة. الدال هنا، والمدلول ميتا دال. وراء الدال. يعرف بأساس التعاقب عنه، هناك. لكن الصفر لا يؤجل الواحد. وبعبارة ثانية لن يؤجل المدلول داله. بل سيحتويه. سيجعله منضويا فيه، مضمرا به. الصفر سلسلة من الاعداد المنضوية والتي تؤلف الاختفاء. لأنها تريد أن تألف الطاقة لا الحركة وتألف المجال لا المفهوم.

نعم، أفرط مكبث في اغتيال النوم لذلك سقط في قعر نهاية تافهة. سقط في أقل الامتيازات التي تخصّ حضوره، وبقتله للملك اكتسب النهاية. بينما منح الملك المقتول البداية. بذلك الافراط زعزع تواجده في الظهور المؤقت الذي يقرن من بعد الفناء الابدي، لكنه منح السعادة بالاختفاء الدائم للملك. إن الملك من أسباب الصفر. بينما اتخذ مكبث نفسه ملكا في الواحد. لقد ادرك أن يقظة الواحد عقيمة. محددة. خطوة قرارها النسيان. لكن النوم ذلك الصفر احتواء، خلود، تمدد. وهو أصل في البقاء هناك وراء كل ظهور.

لكن أوديب/ في مسرحية سوفكلس عرف اليقظة. أدرك أخطارها: تلك اليقظة صدفة إغراء وشبكة صياد لزمنية الذات. وحش يمسخ فريسته ويهبها الضياع. لذلك فقأ اوديب عينه. ادرك أن الضياء مصدر شبهات. انعكاس من خارجه اليه يؤدي الى انحراف الرؤية. امتناع البصيرة عن عملها. تأدية منه لحركات او افعال درامية خاطئة. وهذا ما كان: قتل اوديب أبيه. تزوّج أمه. وكانت فاجعته أنه فهم الحقيقة من طريق الشبهات. من طريق اخرى تخلو من ايّما صدق. من ذلك السؤال الذي مفاده: من أنا ؟ وبدلا من أن يختار معادلة طاقة ← حركة لفهم السؤال والاجابة عنه اختار معادلة حركة ← طاقة. اختار الواحد لمعرفة من يكون. لكن هذا الواحد زيغ واحد. ايهام واحد. انحراف واحد.

لقد دلّت تجربة اوديب أن الابصار كان السبب وراء اخطاء سلوكه والابصار هو حركة – مفهوم – مكان: تعامل في انعكاسات تلك المصطلحات. وبالتالي كان هذا التعامل مصدر فاجعة. وكل انسان يفكر بطريقة الحياة/ النور/ الواحد/ اليقظة يقع في كثير من التفسيرات الخاطئة، كأنما الملاحظة التي تبدأ بالعين هي حصائلها المزيد من الافعال اللامنطقية والتي لا تقترب من اصابة الحقيقة. ولمّا عرف اوديب ذلك متأخرا، عرف أن العين عينه مصدر شقائه لذلك انتقم لنفسه بنفسه. استطاع أن يفقأها ليطفئ ذلك الضياء

الخدّاع وليدخل في عالم البصيرة. عالم الموت. عالم الصفر. إن العين تدمير واليقظة في النهار عشو وهلاك.

استطاع الوحش في مسرحية اوديب أن يكشف لأوديب توهماته. ضآلة فهمه. لقد أوقع بأوديب حين سأله: من ذلك الذي يمشي على أربع ثم على اثنين ثم على ثلاثة، ولمّا كانت اجابة اوديب: هو الانسان (أنا). أوقع به الوحش لأنه ادرك فيه سطوع اليقظة في النهار. انعكاس الضوء في مجال تفسيره. العين والملاحظة دليل فهمه. وأن مرآة اوديب لا تعكس الا ما تمظهر منه. لذلك منحه تأشيرة التجربة. آنذاك خرق اوديب المقدس بأبشع ما هو مدنس. آنذاك أصبح مليكا مدنسا بخطايا الزوجة/ الأم، والاخوة/ الأولاد. كل ذلك كان بسبب الفهم بالضوء. بدالة الظهور والحركة حتى ادرك سؤال الوحش مرة ثانية بإعادة انتاجه من جديد: أن المشي حركة وأن التحولات مفاهيم وأن المكان أصلها. وبذلك من هو الانسان المتمظهر فيها: بالنتيجة هو الذي ارتكب أخطر الاخطاء وأمات البصيرة حين اطلق عنان البصر. لذا عاقب نفسه اوديب من محل خطأه حين فقأ العين. هذه العين هي ضلالة الطريق. ضلالة الانسان. ضلالة الفهم والمصير.

وبوسيط العين وحده عرفت البشرية اطوار تفكيرها الثلاثة. ولأنها اعتمدت العين أصلا كانت لا تصيب الهدف بإصابة الحقيقة فيه. بل كانت تمنحنا المزيد من الشكوك. المزيد من تضليل الرؤية، وبالنهاية المزيد من المفاهيم المنحرفة. العين عبّدت الطرق بالشكوك. عبّدتها نحو اللاوحدة، اللاتوحيد، نحو التمايلات المستمرة عن كل مؤدى الى الوحدانية. كانت العين مرأى للتعدد والانحراف.

حورات الجسد في اعمال معاذ الالوسي

د .معتز عناد غزوان

يعد الفنان والمعماري الرائد معاذ الالوسي احد اهم رواد عمارة الحداثة في العراق منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضي الى يومنا هذا.

ظل الالوسي يعمل ويقدم وينجز العديد من المرتسمات المعمارية واللوحات الفنية فضلاً عن ولعه الكبير في الكتابة والنشر، حتى غدا صاحب اسلوب خاص في كتاباته التي جاءت بشكل مذكرات صنفها بحسب غرضها واحداثها وزمكانها الذي عاشه واحس بطعم حياته الطويلة فيها، فكتب (نوستوس) وهي الانتماء للوطن، اذ تعرض في هذا الكتاب الى مسيرته في عمله داخل الوطن لاسيما انجازه لمشروع عمارات شارع حيفا ببغداد في بداية ثمانينيات القرن الماضي وقد اسماه (حكاية شارع في بغداد). و(توبوس) وهي قصة حياته وطفولته وشبابه في بغداد وحكايته مع عائلته وعمله اليومي في بغداد، و(ذروموس) وهي مسيرته الفنية والعملية في ساحات العمل والتخصص.

لم يكن معاذ الالوسي معماريا وكاتبا حسب بل هو المثقف العضوي الذي ينتمي بكل ما طرحه نظريا وفنيا وجماليا الى وطنه، محملاً باشتياق قل نظيره على الرغم من ابتعاده الطويل عن ارض وطنه، لقد بات متعلقاً ببغداد، وشوراع بغداد، واسواقها، وبيوتاتها المعروفة، والمرأة البغدادية بما تمتلكه من خصوصية جمالية بارزة.

لقد بحث الالوسي في عمله الطويل عن خصوصية اراد ان يؤكد حضورها في العمل الفني على وجه الخصوص، اذ اتجه الى استخدام الاشكال الهندسية كالدوائر التي استخدمها كعجلات للدراجات الهوائية التي وضعها في العديد من اعماله الفنية وكأنه يدعو عين المشاهد الى عدم التوقف مع حركة دوران العجلات في دلالة واضحة الى استمرار الحياة والزمن الى عوالم لا تكاد تكون واضحة او الى اتجاهات مجهولة في مضامينها وحياتها التي غادرت السكون نحو الحركة المفعمة بقوة حضور لوني يتشكل من الوان غامقة احيانا كنغمة موسيقية ذات ايقاع عال في احيان وايقاع نازل باهت خفيف في احيان اخر.

لم يكن للون درجة خاصة او معنى ثابت عند معاذ الالوسي بل حاول ان يخرج بتلك الكثافات اللونية الى تحويل الدوائر الى وجوه او اقنعة منها ما يخيف ومنها ما هو متفاءل بلحظات قادمة قد تكون سعيدة او العكس، لقد حاول ان يظهر انطباعات متحركة غير ساكنه في حوارها المتدفق نشاطا وحيوية وكأنها حيوات ناشطة في عوالم اتسمت بالتدفق والتطور والتحول نحو المستقبل.

جاءت المرأة في عوالمه الخاصة تحاكي الحياة في انها الملهمة وانها الحياة نفسها، وبدونها لا حياة... لونها ولون جسدها بالوان جاءت مكدسة قوية متراكمة فيها ملمس واضح كدليل انفعالي يحاكي مخيلته الابداعية داعيا اياه الى التفكير بمستقبل لنسائه الافتراضيات في لوحاته، فتارة يميل الجسد الى جهة اليسار وتارة الى اليمين، وتارة تتجه نحو الاستثارة ومحاكاة غرائز دفينة... انها براعة الالوسي في محاكاته لجسد انثوي بلا رأس ... انها الجدلية في علاقة الحياة بالجسد وغياب الرأس، فكيف

يتنفس الجسد بعيداً عن الرأس.. معادلة وضعها الالوسي مثيراً بها القارئ المتلقي الناقد المستمع بهذا الجسد. لم تعطينا الوانه سوى لحظة جميلة من لحظات سماع صوت الحياة... معادلة حياة- مرأة، وقد يضيف الرأس لها، حتى غدت شبيهة بجنة يتعطش لها كل متذوق جميل ... يتذوقها ويعتاش على وصف جمالها من خلال شفافية لونية تعدت لغة الغزل وكلمات الحب.

ان حوار الالوسي في اجساد نسائه لم يكن حواراً نمطيا اعتيادياً بل هو حوار سريالي خرج عن واقع معتاش نحو واقع سحري لا يقترب للخيال المطلق بل بقيت حدود اشكال الجسد وانهاد النساء واضحة لتوحي بمديات ارادها الفنان ان تتحرك بإرادته نحو الجهات غير المعلومة... لقد جسدت تلك النساء حيوات قد تذكرنا بنساء افينيون لبيكاسو التي وضعها امام الحدث جامدة بيد انها ناطقة بأشكالها وحركتها واجسادها وانوثتها.

لقد عمل الالوسي في محاولته لوضع لمسات اسلوبية عبرت عنه بتعبير صادق وحساس في مدى العلاقة ما بين القبعة والمرأة، فالقبعة عنده معيار لجمالها وجمال جسدها وتألقها، واقفة، جالسة، نائمة... حركات وايماءات متعددة باتجاهات مختلفة. اعجب معاذ الالوسي اعجاباً كبيراً بأعمال الفنانين التجريديين بل ان التجريد كان واضحاً في معظم اعماله الفنية، لم يكتف بان غازل مفاتن المرأة ومحاسن جسدها وابراز انوثتها المغرية بل بات يعطينا ايحاءات تحمل لغة بصرية مؤثرة في بناء حوارات متبادلة ما بين الفنان ومكونات لوحته من جهة والفنان والواقع المحيط به من جهة اخرى.

فالحبيبة هي من تتزين بالوان الخصب والنماء كعشتار وفينوس وافروديت اليونانية التي ظل يحبها ويعشق مفاتن جسدها، وهو المتمسك بنوستوس الوطن لان المرأة هي الوطن وهي الام وهي المعشوقة والحبيبة.

ان ارتباط الالوسي بحنان المرأة هو ارتباط ازلي منذ الطفولة فقد كان الوحيد لامه كما ذكر ذلك في كتابه (ذروموس)، بعد ان شاء الله ان لا يكون لها طفل غيره،بعد ان يستذكر بنفسه فقدان اخ صغير له كان قد رحل وهو جنين، وهذا ما أثر فيه وجعله اكثر حساسية في موضوعة المرأة التي عدها ملهمة الحياة، على الرغم من ان الالوسي كان ابن عائلة رفيعة المستوى خجولاً في متابعة النساء، اذ يذكر في كتابه (توبوس) انه قد عاش حباً عذرياً خالصاً مع (ساجدة) التي رحلت بعد معاناة صحية مؤلمة وكان قد اخفي خبر رحيلها عنه... فالحب الهام عذري

عند الالوسي جعله يعش مخلصاً اميناً لحبه الذي انعكس في معظم اعماله الفنية التي جسد فيها حبه الازلي للمرأة، ان هذا الحب كان لا يتعدى مرحلة النقاء والعذرية وجمال المشاعر تجاهها، يتحدث الالوسي ببراءة عن وصفه للمرأة في ايام صباه حيث كان يعيش في منطقة الاعظمية ببغداد حول عمارة مدرسة الحريري للبنات اذ يقبلن بها جميلات من ابناء العوائل البغدادية المعروفة آنذاك، ويقول في كتابه (نوستوس): ((كانت تلك المدرسة رائعة بما حوته من جميلات الاعظمية... وقد كان دوام البنات ينتهي قبل دوام البنين... لذا كنا على الدوام متأخرين عنهن، ولا نصادفهن الا في الصباح الباكر.. كنا مع (الغباش) في انتظارهن، ولكن بكل ادب وتقدير فالجميع معارف واصدقاء))، انه الحب النقي المفعم بالبراءة مع انعكاس واضح للسلوك والتربية والوقار الذي نشأ فيه الالوسي، هكذا استطاع ان يطوع المرجعيات الاجتماعية والثقافية لبيئته في اعماله الفنية التي حاور فيها المرأة كأم صاحبة وجود وكيان، وحبيبة صاحبة الهام بجسد ناطق يرتدي احيانا القبعة متنهداً منادياً مغازلاً بخطوط تنساق بانسيابية شفافة رقيقة تتحدث بصمت عن خلجات حب وغرام، وتارة اخرى ترى جسد الحبيبة نائماً مخضباً بالألوان المتراكمة طبقات وطبقات بجرأة فرشاة وبالوان قاسية احيانا وشفافة في احيان اخرى، لتبق المرأة هي ملهمة فاعلة في اعماله الفنية التي امتازت بأسلوبها الخاص والوانها المتميزة.

عبد القادر حسن أمين
والرّيادة الأكاديمية في النّقد القصصيّ العراقيّ
(ج2)

أ.د. نادية هناوي

وسنبدأ بالتأشير أولا على الوقفات ذات المناحي التأصيلية، وثانيًا سنتناول أهم الظواهر الأدبية والثقافية التي تصدى لها الباحث، وثالثًا سنخصص القول في بعض الكبوات والهفوات الأكاديمية التي طالت الدراسة موضع الرصد.

أولا- الوقفات ذات المناحي التأصيلية /

1- التعامل مع الأنواع القصصية /

لا خلاف أن مسألة تحديد الأنواع القصصية لم تكن قد حسمت بعد على مستوى النقد العربي على الأقل فهناك الحلية والنوفل وقصة قصيرة طويلة ورواية قصيرة وقصة طويلة والمقالة القصصية. وقد ذهب الدكتور علي جواد الطاهر إلى أننا كنا نشرف على ختام الخمسينيات وليس لدينا مصطلح أو شبه مصطلح، فكان ما كتبناه من قصص على أنه طويل ليس في حقيقته من الرواية من شيء[1].

ونظرا لمائعية قالب القصة وعدم استقراره الفني تعددت مسمياته، بيد أن الباحث تبنى تعريف ادجار الان بو في تحديد المسمى الملائم للكتابة القصصية، والتعريف هو "قصة نثرية تقرا فيما بين نصف ساعة وساعة او ساعتين وربما حدد محرر المجلات عدد كلمات القصة القصيرة بما بين

ألفي كلمة وأثنى عشر ألف واعتبروا الألف فما دونها صورة"[2].

فإذا كانت القصة بهذا الوصف فهي عند عبد القادر حسن أمين تسمى (أقصوصة) ولم يعطها تعريفا، لكننا نستشف ضمنا من تحليلاته أنها تعني القصة الأقصر من القصيرة التي تتمتع بوحدة الأثر والتشويق الحافل بالحياة والحركة. بينما (القصة) تعني عنده الرواية، فالأعمال (الدكتور إبراهيم واليد والأرض والماء لذي النون أيوب والضايع لجعفر الخليلي وجلال خالد لمحمود احمد السيد) كلها برأيه تعد قصصا، وليست روايات. و(النوفيلا) تعني رواية قصيرة وهي أوسع وأرحب من الأقصوصة، ولم يمثل عليها من القصاصين العراقيين إلا قليلا، كما لم يرد لديه أي ذكر للقصة القصيرة[3]. وفرّق بين القصة[4] وفن الخبر الذي "يسرد على السنة الناس أو تحويه أعمدة الصحف اليومية".

ومن الأنواع القصصية التي وقف عندها (الخاطرة)[5] التي وجد عبد الوهاب امين يمارس كتابتها وهناك (السالفة) التي كتبها سعيد عبد الله الشهابي (صححه عبد الاله أحمد بانه سعيد عبد الاله الشهابي) يكتبها من دون ان يخضعها لقواعد الفن القصصي ووجد قصة (قرى الجن) لجعفر الخليلي لا تؤلف رواية واحدة متسلسلة الحلقات. وأنتبه في وقت كان مبكرا جدا نقديا إلى مسألة تداخل الأنواع من قبل أن يعرفه النقد الغربي، واجدا في (أصداء الزمن) لعبد المجيد لطفي وسيطًا ذهبيًا بين الشعر والأقصوصة، وأن الكاتب شاعر تجلت شاعريته في جميع ما كتب وإن كان بأسلوب النثر[6].

2- تدشين طرائق التحليل النقدي/

ابتكر الاستاذ عبد القادر حسن أمين طرائق في التحليل، سيعتمدها النقاد من بعده، ومنها:

1) الخطة البحثية التي قسمت الكتاب إلى بابين(الأقصوصة بين الحربين) و(القصة بعد الحرب العالمية الثانية) وفي كل باب فصل بعنوان(قصاصون) مع مقدمة تستعرض تاريخ العراق نهاية العهد العثماني وبداية الحرب العالمية الأولى وتمهيد عن الأدب العراقي الحديث والعوامل المؤثرة في نشأة القصص، فضلا عن ملحق هو عبارة عن فهرس يوثق لأعلام القصة العراقية. وهذا كله سيعتمده الباحث عبد الإله أحمد في كتابه (نشأة القصة وتطورها في العراق)

2) تنوع المصادر التي جمعت المقالات والكتب والأبحاث والكتب الأجنبية ذات الزمن القريب من زمن البحث بين 1950 إلى 1954؛ فضلا عن الرسائل المخطوطة التي علل اعتماده عليها[7] بالرغبة في توخي الصدق والدقة وكي لا يظلم قاصا أو يتعالى عليه.

3) الإكثار من الإرشادات والنصائح التي عبر فيها عن إحساسه بمسؤوليته النقدية، ومن دون تعال أو ترفع كقوله: "في الاستطاعة أن يتطور أسلوب الكاتب بعد أن ينفض عنه ما ينوء به من مادة قانونية ثقيلة ليستقبل الفن القصصي لا على انه مقالة او منصة استاذ في فصل بل فن يصور الحياة بإشراق وصفاء"[8] . وحذر من النظرة السوداوية للقصاصين

(صفاء خلوصي ومحمد روزنامجي) اللذين شبههما بفؤاد التكرلي فقال ناصحا: "هذا إسراف على النفس لا طائل تحته وإرهاق للأعصاب يكمن فيه خطر جسيم ..ولا جدال أن ما يصفه القاص أوهام تعشعش في ذهنه أدعو الله ألا تفرخ ففي تفريخها شر مستطير"[9].

4) عدم ايلاء القصة التي تكتبها المرأة أي اهتمام مع أنّ القاصة سافرة جميل حافظ كانت قد نشرت مجموعتها(دمى وأطفال) العام 1954 وقبلها نشرت حربية محمد قصتين في شكل رواية هما(جريمة رجل) 1953 و(من الجاني) 1954، ولا يمكن أن نستشف من ذلك أنّ لعبد القادر أمين موقفاً سلبيًا إزاء المرأة، بدليل أنه كثيرا ما أكد أهميتها، ودلل في غالبية تحليلاته على محورية وجودها في القصص، ووصفها بأنها عماد الفن والملهم الأكبر.

وعدَّ شاكر خصباك أكثر المنشدين لعالمها حتى أنه خشي عليه "أنّ يشد نفسه بوثاق متين الى ذلك العالم فلا يستطيع له براحا"[10]، وبالرغم من تأكيده أنّ ظِلَّ المرأة في القصص العراقي باهت غير ظليل وأن تجارب القصاصين في هذا المجال غير أصيلة وهي تعاني ضيق الأفق، فإنه أمن بأهمية أن تشترك المرأة في كتابة هذا الفن بوحيها وإلهامها، لتدفع بمياه جديدة فيه[11].

5) الالمام بمنجز القصاص الإبداعي، مع التأشير على التطور الذي طرأ على أدائه ارتفاعا أو نكوصا، منتقيًا في الأغلب قصة واحدة من مجموعة قصصه، ليدلل على مواضع الإجادة؛ لكنه غالبا يبحث عن مواطن الاخفاق من قبيل الإسهاب والافتعال والحشو او اخفاقات والاغلاط اللغوية والاسراف في التفاصيل وانعدام وجود سند واقعي للاحداث. ومن الاشادات ما لمسه عند فؤاد التكرلي في قصة (العيون الخضر) من اتجاه جديد وأنه "دخل ميدان هذ الفن بقدم ثابتة مما يحمل على الاعتقاد بأنه سيكون له مستقبل ادبي حافل"[12].

6) النظرة الاستشرافية التي بها يهجس ما سيؤول إليه نتاج كل قصاص في قادمه، كقوله عن ذي النون أيوب: "أغلب الظن أن الرجل لو أتيح له أن يتحرر من ربقة الوظيفة لينصرف إلى ميوله الخاصة لما رضي بغير الصحافة مهنة له ولصير من مادة كتبه مقالات افتتاحية تنتظم في ابواب السياسة والاجتماع"[13] ، والجميل رؤيته لمستقبل المجتمع العراقي و"أنه سالك سبيله إلى تطور سريع فيه مكان للمرأة المتعلمة والأمل يحدوها للمساواة بالرجل"[14].

7) الانتهاء من كل تحليل بحكم قيمة مثل : "هذه المجموعة ضعيفة كل الضعف لم يوفق القاص في واحدة من أقاصيصها"[15] وقوله: "إنه من خطل الرأي أن نعتبر كل ما يدبجه يراعنا ادبا أو قصصا يستحق الحياة والنشر، فالتأني والاستعداد الكافي واختمار التجربة اساس في النتاج الصحيح وهذا كله قد حرم منه كارنيك جورج"[16] وعادة ما يوظف عبارات إنشائية تنطوي على انطباعات ورؤى ذاتية وبعض الأحيان تكون شعرية كقوله:" لكنها احكام

القدر واحكام الرياح التي لا تخضع لمشيئة الربان في مجراها"[17] او قوله: "وفق القاص توفيقا رائعا فمزج تلك الألوان الجميلة التي يسبغها الربيع على الطبيعة بأحاسيس النفوس ومشاعرها وفعالية الغرائز وجنونها"[18] أو قوله: "أخشى أن يجري أسلوب الكاتب دائبا على ذلك حتى يلفظ اخر انفاسه فيمسي قنينة في مختبر او سلكا معلقا في الهواء يمر به تيار سالب"[19]

8) التحلي بروح التسامح والتواضع، حتى أنه كان يعلل بعض المآخذ التي يسجلها على القصاصين بطريقة تقلل من وقع المأخذ على القصاص، فمثلا وجد في الأقاصيص الغرامية لذي النون ايوب أنّ خيط الحب جاء فيها ضعيفا جدًا، فعلل السبب ان صاحبها لا يطيق ان يترك ميدانه المفضل السياسة والاجتماع الذي هو فيه ناقد اجتماعي[20].

9) ينتهي إلى عدم الفصل بين موضوع القصة وحياة كاتبها، كقوله: "أن هذه الأقصوصة تمثل رد الفعل لما أصاب الكاتب من إخفاق وهي بمثابة العزاء لنفس خبرت مر الحياة ولم تر امامها غير الأشواك وما ذلك الا الحلم الذي بنى عليه أمله في الظفر بكرسي النيابة"[21]

10) تقصي طبيعة الأسلوب القصصي أحداثا وشخصيات وهل كان الابطال كالدمى او هم متحركون؟ وطبيعة اللغة القصصية وهل تقترب من اللغة الصحفية وما طبيعة العبارات الكلاسيكية وصور السخرية والمفارقة وطريقة الترابط بين الاحداث وفرادة الطريقة في السرد فذكر أن ايوب الذي وصفه بانه اغزر القصاصين العراقيين كانت له طريقة ينفرد بها وذلك بأن "يضم في المجموعة الواحدة اقاصيص متشابهة ويشتق من موضوعها الواحد اسما يطلقه عليها"[22]

11) رصد المؤثرات محلية وعربية وأجنبية، ليجد مثلا لا حصرا أن لخلف شوقي الداودي صلات بكتاب أتراك وأنه ترجم كثيرا من القصص التركي وتأثر بأسلوب ارجمند اكرم الساحر. أو أن شالوم درويش تأثر بالقصص الروسية. وأن قصة (قرى الجن) لجعفر الخليلي من أطراف الكتب القصصية في المكتبة العربية الحديثة، تأثر فيها الكاتب بحكايات الجن في الأدب القديم "[23] او يقارن تشابه قصة مع قصص أخرى عالمية أو عربية فقصة (صراع) لشاكر خصباك تتشابه مع قصة(قلب عذراء) لمحمود البدوي.

(12) توظيف مصطلحات السرد والحرص على كتابتها باللغة الانجليزية مثل (شروط العقدة plot) و(الذروة climax وحل العقدة denouement) و(شخصيات ثابتة) (طريقة السرد المباشر) و(طريقة الوثائق او الرسائل المتبادلة) (الصورة) و(السخرية وروح الفكاهة) و(المشهد) و(اللاوعي)[24] (السرد) الذي يستعمله بلا ضابط فهو سرد الحقائق أو "بالرغم مما في هذه الاقصوصة من حس انساني وواقع مرير فان السرد غالب عليها"[25]. وهذا طبيعي لأن المفردات انذاك لم تكن قد أخذت استقرارها الاصطلاحي بعد.

ثانيا ـ تأشير ظواهر أدبية وثقافية/

وضع عبد القادر حسن أمين أصبعه على كثير من الظواهر الأدبية والثقافية، مدشنا لها لأول مرة في النقد القصصي العراقي، ومن ذلك:

1. إشارته إلى ظاهرة تضاؤل السجال الأدبي والنقاش العلمي اللذين يدفعان الإنسان إلى الاستزادة من المعرفة والإقبال على البحث والمطالعة[26]. ونعتقد أن النقد العربي بالعموم ما زال مرتهنا بهذه الظاهرة إلى اليوم. ولو كان هناك حراك علمي زمن نشر الكتاب موضع الرصد لناقش النقاد بعضا من آراء الباحث، ولاعترض قصاصون على ما أدلى به من بعض الأحكام.

2. أصاب الباحث كبد الحقيقة عندما أكد مسألتين، المسألة الأولى أنَّ في الأديب العراقي ميزة التعفف أو الانفة من الغرور والاعتداد بإبداعه، والثانية اعتياد "العراقي أن ينظر إلى نتاج مواطنه العراقي نظرة استخفاف وعدم اكتراث"[27] وسيقع الباحث في هذا الاعتياد نفسه كما سيمر معنا لاحقا.

3. ما أثبتّه حول ظاهرة ضعف اللغة العربية وعدم معرفة اللغة الانجليزية، وأرجع السبب إلى المدرسة والمناهج فقال: "ثبت أن الدراسة الجامعية قليلة الجدوى في إصلاح خطأ متأصل وإهمال متعمد ورغبة خابية. فلا غرو أن نجد مجازا من كلية يصعب عليه الافصاح عن مكنونات نفسه ويضيق افق اطلاعه"[28] وهو الامر عينه الذي ما زالت تعانيه مدارسنا وجامعاتنا. والمهم أيضا أثارته لإشكالية العامية والفصحى في العمل القصصي، ووقف موقفا وسطا يتبنى فيه ما تبناه الكتّاب المعروفون من ضرورة التوفيق بلغة ثالثة وسيطة فصيحة وليست فصحى.

4. ظاهرة ربط البعد الموضوعي للقصة بالبعد الفني وكان الباحث كثير المؤاخذة للقصاصين الذين يتناولون الحياة ببساطة تامة في قصصهم من دون أن يشبعوها بالفنية المطلوبة.

5. تأشيره ظاهرة نزرة المجلات الادبية عندنا، والسبب أنها لا تجلب غير عسر الحياة وضيقها، ولذلك تغلق أبوابها أو تتحول من الأدب إلى السياسة[29].

ثالثا ـ كبوات نقدية وهفوات أكاديمية /

قالت العرب قديمًا لكل جواد كبوة ولكل حكيم هفوة، ولا يخلو أي بحث أكاديمي مهما كانت دقته وموضوعيته من بعض المآخذ والهنات، كما لا يخلو أي بحث نقدي من زلات وسقطات، وفي كتابنا موضع الرصد بعض الكبوات والهفوات نوجزها بالاتي:

التناقض في إصدار الأحكام والاستدراك عليها/

من الآراء التي اشتملت على التناقض في الطرح ما ذكره الباحث في المقدمة من أن المثقف العراقي يقف في مؤخرة القافلة العربية، ثم ينقض ذلك بأن يذكر أن مصر استأثرت بالجانب الأكبر من سوق الأدب والعلم العراقيين[30]، فكيف يكون المثقف العراقي متأخرا ، والمجلات

المصرية تروج لأدبه وهو صاحب علم وأدب ؟ وقد استدرك الباحث في موضع آخر بعكس ما تقدم، فأكد أن شعور القاص العراقي بمسؤوليته الوطنية تجاه واقعه وانخراطه في السياسة دفعه إلى أن يكتب بعيدا عن أنظار السلطة متوجها نحو صحافة متطورة انذاك وجدها في بيروت والقاهرة[31] .

ومن الأوصاف التي فيها إطلاق، وصفه دراسته أنها "أول جهد مستكمل الجوانب، أحاط بجميع من كتب في الفن القصصي العراقي او حاول الكتابة فيه"[32] مع أنه تحاشى ذكر أي امراة قاصة في متن دراسته، باستثناء اسمين ذكرهما في ملحق الأعلام فقط، كما لم يحط بكل القصاصين العراقيين وبعضهم مميز، فأهمل القصاصين عطاء أمين ويوسف متي وعبد الرزاق الشيخ علي وآخرين.

وقرر الباحث أن تأسيس القصة العراقية كان رومانيتيكيا وأن محمود السيد من اوائل المتتلمذين على هذه المدرسة[33] وهو ما لا تؤكده وقائع ما نشر من قصص اتخذت منذ نشأتها طابع الرؤيا بقصد نقد الواقع وإصلاحه. والباحث نفسه هو القائل: "ابى ادباؤنا ان يكونوا بلابل الزينة في الاقفاص الملونة تطرب المترفين والمتخومين.. بل ساهموا في اصلاح الواقع ..مشهرين بالانحراف لاعنين المستغلين"[34]

ثم أن السيد لم يكن مبتدئا متعلما؛ بل كان كاتبا صاحب قضية إصلاحية تنتقد الواقع وتزدري عاداته ولا سيما اضطهاد المرأة.

وبعض الأحيان تتناقض عنده الخلاصة التقييمية مع التحليل النقدي للقصة، فمثلا قال عن غائب طعمة فرمان: "لست أعرف له مجموعة غير حصيد الرحى وان لغته يعوزها الكثير من الصقل والتهذيب "[35] وقبل ذلك كان قد سجل نجاحه في التصوير للواقع وتلوين ملامح الابطال في الوصف الخارجي، كما فعل الأمر نفسه مع يوسف رجيب وخالد الدرة ولطفي بكر صدقي الذين وجدهم صحفيين وليسوا قصاصين فالاول "ألمع كتاب العراق قوة اسلوب وتدفق وحيوية واتقاد حماسة..لكنه في كتابة الاقصوصة وسيلة للافصاح عما يريد من اراء"[36] والثاني وجده أوفر حظا في الصحافة منه في الأدب، ونتاجه القصصي قليل ضيق الافق معمي الخطوط باهت الألوان، وأن الثالث ليس قاصا الا تجوزا. ووجد عبد الوهاب أمين مقلا ولديه سطحية وعجالة وأسلوبه يعوزه الإفصاح؛ ثم استدرك بأن له فضلا على القصة العراقية، فقال: "لا يمنعنا أن تشير إلى فضل أمين على بروز هذا الفن في العراق وان نكبر فيه اثره في اقتحام ميدانه منذ سنة 1928"[37] .

الافتقار إلى معيار معين في تصنيف القصاصين إلى طبقات/

خصص الباحث في كل باب من أبواب الكتاب فصلين الأول عنوانه (قصاصون) والثاني عنوانه (قصاصون آخرون)، ولم يعطنا سبب هذا التخصيص، كما جمع القصاصين في الفئات من دون أن يحدد

السبب، فمثلا جمع كلا من (سليم بطي وانور شاؤول وعبد الوهاب امين وخلف شوقي الداوودي ويوسف رجيب ولطفي بكر صدقي وعبد الحق فاضل وسعيد الشهابي وجعفر الخليلي) في فئة لوحدهم، فلماذا؟ أهذا الترتيب مبني على أساس تاريخي، أم هو الاهتمام بالكم لا النوع ؟ أم أنه صنفهم على أساس الأغلاط التي وجدها عند كل واحد منهم وهي الحشو للتفاصيل والمفاجآت الغريبة والوعظ وعدم الصبر على معاناة القصة ومخاطبة المشاعر لا العقل والاضطراب والمبالغة والضعف الفني والأسلوب التقريري ونقل الواقع الحرفي ؟!

ورافق عدم عنايته بالمعايير تجاهله للتواريخ، فلم يأبه لتثبيت تاريخ نشر الأعمال القصصية، كما لم يراع سبق قصة على أخرى تاريخيا، فقدّم مثلا الروايات (الدكتور إبراهيم واليد والأرض والماء وقرى الجن والضايع) على رواية (جلال خالد) وهي منشورة العام 1928 [38]. ولم يكترث الباحث للبواكير من القصص والروايات العراقية، وظل متابعًا الباحثين العرب في ما ذهبوا إليه من أسبقية القصة المصرية وأن محمود تيمور هو رائد الأقصوصة العربية وأن محمود أحمد السيد تابعه في ذلك[39]. والصحيح أنّ أولى قصص السيد نشرت في العقد الأول من القرن العشرين، وكان من أوائل العرب المتأثرين بالأدب التركي والروسي مثلما كان عبد الملك نوري أول الكتاب العرب المتأثرين بجيمس جويس .

التقليل من شأن الأديب العراقي /

للباحث آراء يذكر فيها نصف الحقيقة ويتغاضى عن كلها، فلقد رسم الأديبَ العراقي قارئا للأفذاذ "طه حسين والمازني ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي وجرجي زيدان وغيرهم"[40]، ونسي أن أديبنا كان كاتبا مميزًا وهو ينشر قصصه مع هؤلاء الأدباء الذين كان بعضهم أصحاب تلك المجلات.

ورسم مشهدا للعراقي وهو يتأبط الهلال والمقتطف والرسالة والثقافة وكلها مصرية، وكتب في الهامش" كانت مجلة الحديث في حلب من أوائل المجلات ذات الفضل العميم على الأدب العراقي لعنايتها الفائقة بنشر ما يكتبه العراقيون والتعليق عليها"[41] في إشارة إلى أن الاديب العراقي لم يكن بمستوى المجلات الكبرى لينشر فيها، لذا كانت هذه المجلة المغمورة تنشر له.

والحقيقة أن السبب الذي جعل العراقيين يرسلون قصصهم للنشر في مصر ولبنان، هو ما وفره المستعمرن الفرنسيون لهذين البلدين من امكانيات متقدمة في الطباعة لم يكن البريطانيون قد أعطوا العراق مثلها. فانتعشت في مصر ولبنان الصحافة وتزايد النشر. ولولا أن فن القص كان عزيزا على أديبنا العراقي ووثقه من فنه ما كان ليصبر على ارسال قصته في مظروف بريدي يستغرق وصوله آنذاك شهورا ثم ينتظر إلى أن تعود إليه مطبوعة في مجلة أو لا تعود.

ومن تقليل الشأن أنّ يشيد الباحث بجودة

لغة الكتاب المصريين واللبنانيين، ويثني على معرفتهم لغات أجنبية، بينما ينكر على الأدباء العراقيين ذلك، متناسيا أنّ لهم باعهم في هذا المجال أيضا وأنهم كانوا على اطلاع على الآداب الأخرى. وأهل معرفة بأعلام الفكر والأدب العالميين.

ثم كيف ينكر الباحث ذلك وهو الذي خصص الفصل الثالث من الباب الاول للترجمة وأكد أن الرصافي هو أول من ترجم عن الأدب التركي رواية (الرؤيا) لنامق كمال عام 1909 وأن محمود السيد وخلف الداودي كانا ظالعين في معرفة التركية ومعجبين بالأدب التركي وسمى الداودي شيخ المعجبين[42]، وترجم عبد الوهاب أمين قصصا عن الفرنسية بينما ترجم ذو النون أيوب عن الانجليزية وهو الذي ترجم قصة (المعطف) لغوغول وفصلا من رواية (الاخوة كارامازوف)، ولعل بعض المحاباة للقصة المصرية على حساب القصة العراقية كانت تطفح على السطح بتأثير الإشراف.

والمؤسف أنّ الباحث عدَّ القارئ العراقي ناشئا وباحثا عن التسلية وقتل الفراغ، وأن الصحف "تعنى بتسليته وقتل وقته دون أن تهتم بغذائه العقلي.."[43] وبالمقابل عدَّ الباحث الأدباء المصريين كبارا وارستقراطيين يغلب عليهم الأدب الكلاسيكي، لذلك لم يتركوا "لناشئة كتاب العراق موضعا لقدم"[44] ليس ذلك حسب؛ بل أن الاديب العراقي ناشيء يحتاج إلى من يعلمه ويأخذ بيده ويناصره لمواصلة الكتابة، وأن نتاجنا القصصي كان مشبعا بروح القديم وذو صلة بالشؤون الدينية وأنه قطرة في بحر زاخر وقدح ماء إلى العين الثرة الدفاقة التي يمثلها الأدبان المصري واللبناني[45] ؟!!

وهذا ما تدحضه أعداد تلك المجلات التي نشر فيها الكاتب العراقي قصصًا كثيرة، حتى لا يكاد يخلو عدد من الأعداد من قصة لهم أو مقال في النقد والأدب[46]. والباحث نفسه أشار في المقدمة الى أن الصحف والمجلات المعنية بالأدب في العراق كانت قليلة التأثير في القصة وتطورها، لذا لم يجد القصاصون مناصا من توجيه أنظارهم إلى صحف البلاد العربية[47] ، ناهيك عن حقيقة أن المجلات الأدبية كانت تثير الازمة وأن السلطات كانت تترصدها وتضيق بما فيها من نقد ومعارضة، وأغفل ذكر كثير من المجلات العراقية المهمة في الفكر والأدب كانت موجودة في تلك الحقبة مثل مجلة المجلة ومجلة الثقافة الجديدة .

والكاتب العراقي لم يكتب القصة لأنه أراد ناقدًا يأخذ بيده؛ بل لأن القصة كانت وسيلته لتوصيل أفكاره التحررية الثائرة على المجتمع وعاداته المتخلفة. ومن هنا كان النهج السائد على القصص أبان البواكير حتى مرحلة الاستمكان ينماز بالواقعية، ثم واكبه في أواخر الخمسينيات نهج نفساني تمثل في تيار الوعي وبروز الفكر الوجودي.

استبعاد السبق عن القصة العراقية /

أكد الباحث وهو يقف عند محمود أبو الثناء الالوسي[48]، أنّ "في المقامة نفحات من القصة وانطلاقا بسيطا من قيود المقامة"[49] وبيّن أنّ هناك مقامة تحدث فيها الالوسي عن سفرته الى اسطنبول[50]

وأن فيها حوادث بغدادية صرفة ذات لون محلي، واجدا "فيها إدراكا ووعيا لإنشاء قصة ذات لون محلي خالف مفهوم المقامات الضيق، وانطلق بعض الانطلاق من قيود الهمذاني والحريري مع العلم انها لم تبرأ من السجع والفضول"[51]

أ فلا يكفي ذلك التأشير على أسبقية هذه المقامات الفني والتاريخي بوصفها أول قصص تمتح جذورها من التراث القصصي العربي المتمثل بفن المقامة وفي الوقت نفسه تسبر واقعها الحاضر اجتماعيا وتصور صروف الحياة والأبناء والعشق ؟

لكن المتحصل عند الباحث "أن القصة العراقية لم تبلغ بعد شأن أختها المصرية او اللبنانية"[52] وأن كتابة قصة عراقية ستحتاج وقتا طويلا إلى أن تلحق بركب هذا الفن بحجة تأخر البيئة الأدبية العراقية وضعف اللغة الاجنبية لدى الادباء.

ولو أنّ الباحث ترك الانبهار بالمصريين ونظر للقصة العراقية نظرة أنصاف لأعطى للأدب العراقي مكانته، ولأحرز لنفسه مكانة تميزه عن باحثين عرب وغربيين في مقدمتهم روجر الن الذي عدّ الرواية العربية نمطا أدبيا مستوردًا بالنسبة للعالم العربي، ونقل عن الروائي عبد الرحمن منيف قوله: " إن الرواية العربية بلا تراث" وعلّق على القول بأنه الاستعداد للاعتراف بالدين إزاء الغرب فيما يتعلق بالرواية ..على أنه يرفر دافعا إيجابيا في مسار عملية الكتابة..والمسار يوصف بأنه محاولة اللحاق بالركب"[53].

بيد أن هناك باحثين آخرين أكدوا أن القصة امتداد للمقامة العربية، ومنهم د.شكري عياد الذي أشار إلى أنّ بواكير القصص العربية الحديثة تعود إلى الجذور التي هي المقامات، واقفًا عند الهمذاني والحريري، مؤكدًا أن" عددًا غير قليل من هذه المقامات يصلح لأن يوضع في مجموعة مختارة من القصص القصيرة العربية من جميع العصور"[54]؛ لكنه لم يتتبع التطور الذي لحق كتابة المقامة فنيا على يدي كتّاب العصور المتأخرة. وهو في رأيه هذا يساند رأي محمود تيمور الذي عد القصة موجودة في آداب العرب ماضيا وحاضرا وأن سيرة ابن هشام "كتاب قصصي يمثل الانتقال من مرحلة التجميع القصصي الجاهلي إلى مرحلة القصص الاسلامي"[55].

ثم انتقل الباحث عبد القادر حسن أمين نقلة كبيرة ليصل إلى عام 1919 متجاوزا مرحلة مهمة في القصة العراقية هي مرحلة البواكير المتأثرة برواية الرؤيا للتركي نامق كمال. وكان عطاء امين في مقدمة المتأثرين بها وقد نشر بعض قصصه في مجلة المقتطف المصرية، كما تأثر بها سليمان فيضي في الرواية الايقاظية، التي سماها الباحث مسرحية، وأخذ عليها حشرها بالمواعظ والارشادات. وقرر أنها أقدم القصص في العراق وهي قريبة الصلة بالمقامات من حيث الاسلوب وان كاتبها اراد من وضعها ايقاظ النيام والقضاء على العادات[56]، ناسيا عطاء أمين الذي له مجموعة قصة(رؤيا صادقة أمنية عراقي)

ونشرها في مجلة المقتطف المصرية العدد الاول، فبراير، 1920، وقصص اخرة في مجلة السلام وهي بغدادية وقبله بكثير أبو الثناء الالوسي.

وللباحث إشادات كثيرة بمحمود أحمد السيد الذي عرض لنشأته ووقف عند روايته جلال خالد التي أعاد طبعها، وعرّج على مجموعاته القصصية. وبيّن الفضل في تميزه بهذا اللون هو تأثره بالأدب التركي وأنه قرأ كثيرا من مجلدات المقتطف والهلال ـ ولا يقول أنه نشر فيهما أيضا ـ ونقل عنه أنه ما عمد الى كتابة الروايات الا لانها أهم ما يكتبه الكاتبون في العصر الحاضر وهاله الا يرى كاتبا عراقيا يصرف همه الى ذلك[57] وأنه كان معروفا عربيا وقد قال عنه كراتشكوفسكي: "إنه من رواد الفن القصصي في العراق"[58]، وبالرغم من كل تلك الإشادات[59]، توانى عبد القادر أمين من الاعتراف له بالسبق عراقيا على الاقل.

وفي وقوفه عند الاقصوصة العراقية بعد الحرب العالمية الثانية اشادة واضحة بعبد الملك نوري.. وبين كيف أن الآراء اختلفت حول قصصه سلبا وإيجابا، وأنه تأثر بيوليسس بينما تأثر به فؤاد التكرلي ومحمد روزنامجي، وحلل شخصيات قصص(نشيد الأرض) معتمدا نهجا نفسانيا؛ لكنه بدلا من أن يعترف له بالريادة في كتابة هذا اللون من القصص، نجده يأخذ عليه تلوين قصصه بالعامية وأن فيها تكلفا وصورا بائسة وذهنية مع قلة حركة الابطال وهم يعيشون في عالم اللاوعي، والنقد اللاذع والسخرية الموجعة، لينتهي إلى القول إنها: "جديرة بأن تقف في مصاف الاقاصيص العربية الناضجة، وكم كنت اتمنى أن يزداد وضوح الكاتب وتعمق فكرته أسوة بمن أعجب بهم من كتّاب الروس"[60]، ليس جديرًا بأن يقف إلى مصافهم فقط؛ بل في مقدمتهم لأن فوزه عام 1948 بقصة(فطومة) كان على مستوى عربي وليس عراقيا، ونعتذر للباحث أن الكتابة بطريقة تيار الوعي كانت متقدمة على النقد آنذاك كل التقدم.

وجدير بالذكر أن أغلب ما كان يكتب من نقد قصصي كان يمارسه القصاصون بوعي عال ومسؤولية كبيرة[61]، وسيستمر الحال إلى الستينيات، كما ستظهر دراسات أكاديمية جديدة في النقد القصصي، لتبني معمارها على الأساس الذي كان قد دشّن قاعدته الأستاذ عبد القادر حسن أمين.

إجمالًا، أقول إذا كنا نحن أساتذة الجامعة مؤدين لأدوارنا في مجال البحث والدرس والنقد والاشراف، فإننا لن نجد من بيننا من يستطيع أن يتجاوز اسم عبد القادر حسن أمين كأول نموذج أكاديمي امتلك إحساسًا عاليًا بفاعلية النّقد القصصيّ، وعرف كيف يؤسس قاعدة لأكاديميين قادمين، ليكونوا بدورهم أعلامًا شاخصة وأسماءً لامعة في المشهد النقدي العربي المعاصر.

فهرس هوامش البحث ومصادره:

1 - ينظر: في نقد القصة والمسرحية، د. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987 ، ص23.
2 - القصة القصيرة في مصر دراسة في تأصيل فن أدبي، شكري محمد عياد، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1967-1968، ص21.
3 - ينظر: القصص في الادب العراقي الحديث، ص109-127
4 - المصدر السابق، ص83.
5- ينظر : المصدر السابق، ص93
6- ينظر: المصدر السابق، ص81
7- ينظر: المصدر السابق، ص85
8- المصدر السابق، ص155
9- المصدر السابق، ص 165
10- المصدر السابق، ص145
11- ينظر: المصدر السابق، ص208
12- المصدر السابق، ص130
13- المصدر السابق ، ص55
14- المصدر السابق، ص209
15- المصدر السابق، ص65
16- المصدر السابق، ص 172-173
17- المصدر السابق، ص55
18- المصدر السابق، ص175
19- المصدر السابق، ص77
20- ينظر: المصدر السابق، ص68
21- المصدر السابق، ص67
22- المصدر السابق، ص53
23- المصدر السابق، ص 190
24- ينظر: المصدر السابق، ص81 وص189 وص138 وص118
25- المصدر السابق، ص62
26- ينظر: المصدر السابق، ص16
27- المصدر السابق، ص11
28- المصدر السابق، ص17
29- ينظر: المصدر السابق، ص14
30- ينظر: المصدر السابق، ص9
31- ينظر: المصدر السابق، ص16
32- المصدر السابق ، ص206.
33- ينظر: المصدر السابق، ص22
34- المصدر السابق، ص23
35- المصدر السابق، ص166
36- المصدر السابق، ص99
37- المصدر السابق، ص96
38- أعادت مجلة الاقلام نشر الرواية في عددها الخامس لعام 1977 ، وقد وصف محمود السيد روايته بأنها(قصة عراقية موجزة)، وشبهها بالنوفل كأساس لقصة مطولة وافية، وروما تأمل أن يكتبها في المستقبل، وقال في الاستهلال: "استندت في كتابتها إلى مذكرات صاحبي جلال خالد الخاصة ورسائله الى اصحابه ورسائلهم إليه. وقد استاذنته أن اثبت بعضها في الجزء الثاني من القصة، فأذن لي بذلك ففعلت" ص95.
39- ينظر: المصدر السابق، ص24

40- المصدر السابق، ص10
41- المصدر السابق، ص10
42- ينظر: المصدر السابق، ص29
43- المصدر السابق، ص10
44- المصدر السابق، ص10
45- ينظر: المصدر السابق، ص16-11
46- فمثلا نشر محمود احمد السيد في مجلة الرسالة المصرية خمس أقاصيص بين الاعوام 1935و1937 وكُتب عليها اسمه مقدما بكلمة (الاستاذ) والاقاصيص هي: بداي الفايز ع 106 ، 1935 ونكتة عمامة ع 116 1935 ورصاصة في الفضاء ع 119، 1935 وابو جاسم ع 126، 1935 وحديث في سفر ع 211، 1937 . ونشر عبد الملك نوري قصصه بين الاعوام 1948 و1955 في مجلة الاديب اللبنانية. ونشر ذو النون ايوب بعض قصصه في مجلة الاداب اللبنانية في الخمسينيات وما بعدها.
47- ينظر: المصدر السابق، ص16
48- تاريخ كتابة الالوسي لمقاماته كان في العام 1273 هجرية وهذا يعني أنها سابقة لحديث عيسى بن هشام لمحمد المويحلي التي نشرت أول مرة في صحيفة مصباح الشرق بين الاعوام 1898و 1900 بينما كانت وفاة الالوسي عام 1854 أي قبل اربع سنوات من ولادة ابراهيم المويلحي عام 1858 وتوفي في عام 1930 ولعل اعتاد عبد القادر حسن امين على عدم ذكر التواريخ هو السبب في اغفال هذه الحقيقة، فضلا عن انه لو ثبت تاريخ كتابة مقامات الالوسي بالميلادي وليس الهجري، لكان ذلك سيشير ضمنا إلى أسبقية القصة العراقية عربيا.
49- القصص في الأدب العراقي الحديث، ص35.
50- ينظر: المصدر السابق، ص36.
51- المصدر السابق، ص206.
52- المصدر السابق، ص207.
53- الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية، روجر الن، ترجمة حصة ابراهيم المنيف، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص25-26
54- القصة القصيرة في مصر دراسة في تأصيل فن أدبي، ص18.
55- المصدر السابق، ص ج.
56- ينظر: القصص في الادب العراقي الحديث، ص38
57- ينظر: المصدر السابق، ص42
58- المصدر السابق، ص52
59- ذهب الناقد عبد الجبار عباس الى أن محمد احمد السيد هو واضع الاساس الاول لتقليد نقدي وانه كتب مقالات أهمها (فجر القصة في العراق) وفيها يدعو الى ادب قومي متجها اتجاها ذا نزعة انسانية وأنه كان واعيا لعناصر القصة وقانون احتمال الوقوع، وأن لا يكون الكاتب آلة فوتوغرافية ينقل ما يشهد من وقائع. ينظر: في النقد القصصي، ص 270.
60- القصص في الادب العراقي الحديث، ص123.
61- من هؤلاء القصاصين فؤاد التكرلي ونهاد التكرلي وغائب طعمة فرمان وعبد المجيد لطفي ومحمد خضير الذي أشاد به الناقد عبد الجبار عباس. ووجد في الحوار الذي أجرته معه مجلة الاقلام العدد الاول 1969"الوجه الناصع المشرق للوعي القصصي النقدي في أدبنا فقد دلت على قصاص بالغ الحساسية والذكاء" في النقد القصصي،ص 275، ووجد في عبد الملك نوري انعطافة مهمة في الوعي القصصي العراقي وسماه(القصاص الناقد) وقال عن مقالته التي كتبها عن رواية (صراخ في ليل طويل) لجبرا ابراهيم جبرا "من الوثائق النقدية الدالة على دخول النقد القصصي بتأثير ثقافة الغربية مرحلة الادراك الناضج الصحيح للقصة والنقد معا" في النقد القصصي،ص273 .

(نقرة السلمان)
جمهورية مضيئة في ليل العراق

ثامر الحاج امين

يعكف عدد من السياسيين والمفكرين والأدباء والفنانين والعلماء على تدوين جانب من مذكراتهم تتضمن حقائق واسرارا عن حياتهم الشخصية والمهنية، ومن الطبيعي ان تتفاوت المذكرات في اهميتها وقيمتها بحسب ماتكون عليه من شفافية وجرأة وثراء التجربة، فالبعض يجد في تدوينها فرصة لتجميل صورته والنفخ في تاريخه وعطائه وعلاقاته الشخصية، في حين يتخذ اخرون منها اطلالة على حوادث تاريخية مهمة كاشفين عن تفاصيلها و أبرز رجالاتها يضاف الى ما تقدمه من دروس وعبر لا غنى للأجيال عنها، وهذا ما تكشف لي في كتاب (نقرة السلمان) اصدار 2010 لمؤلفه الكاتب والصحفي المناضل « جاسم المطير» احد نزلاء ذلك السجن الرهيب الذي اتخذ منه المؤلف عنوانا لكتابه واعتمد فيه على التدوين اليومي عندما كان نزيل ذلك السجن لسنوات مهمة من تاريخ العراق تلك التي اعقبت انقلاب شباط 1963، متجاوز فيه التجربة الخاصة الى الأمور العامة المتعلقة بحياة السجناء ونشاطاتهم ومعاناتهم والصراعات التي كانوا يعيشونها نتيجة الضغوط النفسية والسياسية .

ففي سرد تغلب عليه الموضوعية الى حد كبير ولغة أدبية صافية يأخذك الكاتب في رحلة تبدو شيقة لك فلا تشعر فيها بالملل على الرغم من منعطفاتها ودهاليزها الكثيرة، لكنها مرّة وقاسية لمن عاشها واكتوى بحرارة جمرها، حيث يضعك المؤلف في صورة السنوات الدامية وما تخللها من انتهاكات انسانية رافقت ذلك الانقلاب المشؤوم كذلك الصراعات السياسية التي سبقت وتلت الحدث المذكور، كما يكشف عن صفحات رائعة من البذل والتضحيات التي قدمها مناضلو تلك الفترة والاسماء الفاعلة التي تحدت وحشة السجن وقيوده بالالفة والصبر وتحدت ايضا القسوة بالايثار والعطاء الثقافي، حيث يستعرض النشاطات الثقافية والمواقف الانسانية التي كانت تدور في ذلك المكان الذي اراد له الحكام ان يكون مقبرة للمناضلين لكنهم بصبرهم ومهاراتهم ووعيهم وايمانهم بعدالة قضيتهم استطاعوا ان يحيلوا تلك الصحراء القاحلة النائية الى ارض مزهرة بالعطاء ويجعلوا منها جمهورية مضيئة في ليل العراق الدامي، ومن المواقف التي تفيض شهامة وانسانية عالية تلك التي تحلى بهما نزلاء النقرة يذكر المطير في مذكراته التي استحقت ان تكون مرجعا للدراسين وللبحوث التاريخية يذكر هذا الموقف :

(يوجد مستوصف صغير لايداوم فيه طبيب ولا مضمد ولا يزود بالأدوية، فقط توجد لافتة على الباب مكتوب عليها "مستوصف قضاء السلمان"، أغلب الحالات المرضية الصعبة لدى سكان القرية يعالجها الأطباء السجناء، أغلب الأدوية من صيدلية السجناء.

في مرة من المرات، في الثامنة ليلا حضر احد السجانة الى باب السجن داعيا السجناء الى انقاذ زوجته التي تواجه الموت المحقق هي ومولودها بسبب عسر في الطلق بعد ان عجزت القابلة الوحيدة في القرية من توليد المرأة.. لم يكن مسموحا للبدو بأي حال ان يقوم رجل بتوليد امرأة، تموت الحامل ولا يسمح لأي رجل غريب، طبيب او غير طبيب بملامستها، لكن السجان استنجد بقسم الأطباء السجناء، خرج السجين جبار الموصلي مع جنطته بموافقة وكيل مدير السجن، حيث المدير غير موجود بسبب ذهابه قبل يومين الى بغداد في اجازة مرسلا من اطباء السجن لاستجلاء وضع المرأة الوشيكة الولادة واذا صارت هناك حاجة يذهب احد الاطباء السجناء، جبار الموصلي ليس طبيبا، معاون طبيب نشيط جدا يمتلك خبرة طبية واسعة صقلتها تجربة العلاقات

السجنية وصار الجميع يثقون به كثيرا، عاد جبار في تمام الساعة الثانية عشرة ليلا في غاية الانشراح والسرور فقد ولدت المرأة ذكرا، وفي صباح اليوم التالي أحضر السجان كمية من حليب الماعز هدية الى جبار قال وهو في غاية السرور والانشراح: سمّوني ابو جبار، اطلقت اسم جبار على ولدي، سأله احد السجناء بماذا كنت تسميها لو جاءك المولود انثى؟ أجاب: جبارة).

الاحتفاء بالمرأة في عتبات رواية (موت الأم)*

محمد رشيد السعيدي

الإحصاء الأولي لعتبات رواية (موت الأم) للروائي حنون مجيد، يكشف لنا عن أربع، هي: العنوان، ولوحة الغلاف، والإهداء، والنص الخالي من العنوان والمذيل باسم الشاعرة الإيرانية فروغ فرخزاد.

ليس مهما هنا البحث عن عفوية أو قصدية وجود قواسم مشتركة بين تلك العتبات، لأن ذلك يتعلق بأشخاص خارج النص، المهم هنا هو إن العتبات الأربع تقوم على، قاسم مشترك أعظم، هو المرأة!!

المرأة الأولى هي الأم، هي أم الرواية، وهي - قبل كل شيء - حواء أم الناس كلهم، بما للأم من موقع مقدس ومحترم في الأعراف والأديان، تستثمر هنا، وهي أم - أيضا – خاصة بموقعها على غلاف الرواية، العنوان: موت الأم، وصورة الغلاف فتاة صغيرة في السن، صورة رسمية، ربما هي لوحة أو تصميم طباعي، ليبحث المتلقي عن علاقة بين الأم الكلمة، والبنت الصورة، وربما توجد علاقة بين الموت الكلمة، وبين ملامح الفتاة وحركة يديها، ربما هي ابنة الأم الميتة، تعاني من يتمها!

المرأة الثانية هي التي أهديت الرواية اليها، واحتوى الإهداء على اسمها الصريح: "الى ليلى.. الى روح ليلى"، والصراحة هنا قائمة على غموض تام وعلى تناقض، والأقرب الى التلقي هو الرمزية، إذ يرمز اسم ليلى الى الفتاة العاشقة والمعشوقة، والى الحب العذري، ليكون الاسم رمزا للفتاة الطاهرة بشكل عام، ويركز الإهداء على الاسم، فيكرره أولا، ويحيطه بهالة من غموض وحزن وتساؤل، عند إضافة مفردة روح الى الاسم: أهي ميتة؟! بغض النظر عن التناقض بين جزئي الإهداء، أو بالانتباه الى التكرار واختيار الروح، قد لا يكون رمزا للموت، بقدر ما هو رمز للطهارة!!

والمرأة الثالثة هي مؤلفة النص الذي جاء قبل متن الرواية مباشرة، وهي شاعرة، نالت كثيرا من الاهتمام في التلقي والقراءة في العراق، بعد صدور كتاب عنها يحمل عنوان (امرأة وحيدة.. فروغ فرخزاد وأشعارها) عن سلسلة إبداعات عالمية الكويتية سنة 2007، وهي أيضا محملة بكثير من التفرد كونها شاعرة، وفي مجتمع شرقي محافظ، وتوفيت بعمر (32) سنة فقط، وحسب الذين قرؤوها لديها شعرية جذابة، واختار المؤلف من

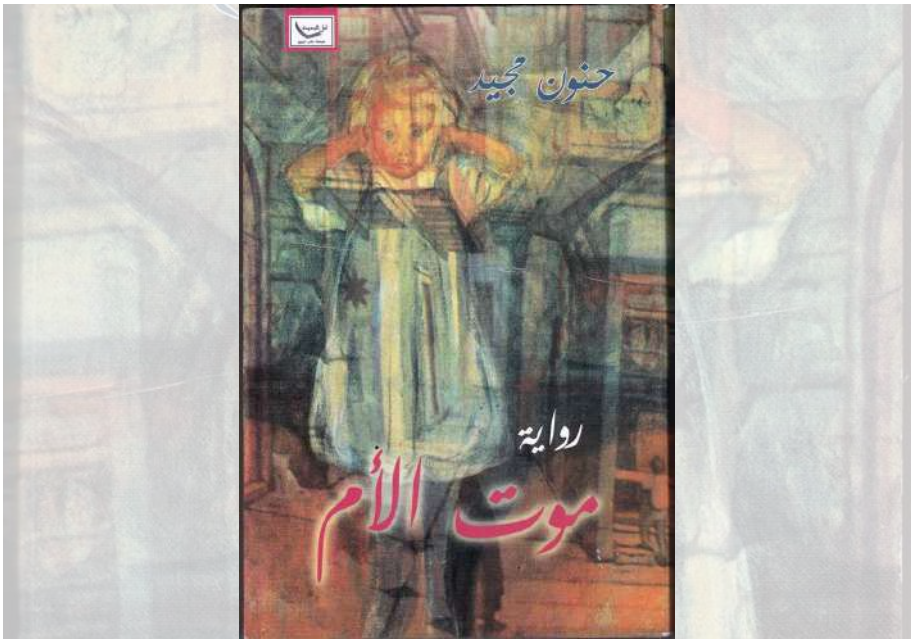

شعرها مقطعا قصيرا مؤلفا من سبعة أسطر شعرية، ذيله باسمها خاليا من الإشارة الى المصدر.

لا يعني هذا إلا الاهتمام المكثف بالمرأة، والتركيز عليها، للاحتفاء بها، والعتبات الأربع يمكن أن تكون أضلاع المربع، مما يشير الى أن هذا المربع خاص بالمرأة، والمربع يمكن أن يعني الرواية ببساطة، ويمكن أن ينفتح تأويله على الكون، فتكون المرأة مركزه!

كان الروائي العراقي مهدي عيسى الصقر متميزا في الاهتمام بالشخصيات النسائية في قصصه ورواياته، ومنحها مساحة كبيرة، تنافس بوضوح المساحة الممنوحة للرجل، تسبب في ذلك – ربما - كون (م. ع. ص) أحد طلاب جيل الأنوار العراقي، ذلك الجيل الذي نشأ على التعليم والصحافة وحرية التفكير والتعبير، وترعرع وأثمر أثناء العصر الملكي 1921 - 1958، وتطورت وازدادت ثمراته في العصور اللاحقة، وهو أحد أضلاع المربع الذهبي للسردية العراقية، المتكون من: عبد الملك نوري، ومهدي عيسى الصقر، وفؤاد التكرلي، وغائب طعمة فرمان، بدون أية أهمية للتتابع، ولجيل التنوير ذاك تأثير كبير على الأجيال التالية، ولحد الآن.

عتبات رواية (موت الأم) تقول للقارئ انك مقبل على رواية تهتم بالمرأة وتحتفي بها، ربما ستكون بطلتها، وربما ستحظى – مفردة ومتعددة – بكثير من الرعاية والتعاطف، ويمكن استشراف الرواية

بأنها نسوية، إلا اذا كانت المفاجأة قائمة على المفارقة بين العتبات والمتن، مما سيفتح الباب على تأويلات أخرى.

عنوان هذه الرواية يرتبط بشبكة علاقات تناصية، فلا يمكن لقارئ خبير أن لا يتذكر رواية (الأم) لمكسيم غوركي، وهي رواية شهيرة، ولها أكثر من ترجمة وطبعة بالعربية، تتعلق بالمبادئ الإنسانية والتضحية والشجاعة، من قبل الأم/ المرأة، فضلا عن علاقتها بالحزب الشيوعي، وقد لا يقتصر التناص على الكلمة في العنوان، وقد لا يكون تركيبها من مضاف ومضاف اليه خاليا من استثمار للأم في رواية غوركي، لاسيما وان تلك الشخصية كانت محملة برموز ثقيلة، ومعززة بتاريخ إنساني حافل.

والكلمة الأخرى في العنوان (موت) – أيضا – سبق استخدامها، وبهذه الصيغة النحوية عينها، قبل ربع قرن تقريبا، في رواية عراقية مشهورة هي رواية (موت الأب) للروائي احمد خلف.

وشبكة العلاقات تلك هي التي تسمى نقديا التناص، وهو المخالف لما جاء في المدونة النقدية التراثية، التي كانت تقول بالسرقة، بينما يقول التناص بالاستثمار، والتطوير، وتجديد التعامل مع الأشياء، مع الكلمات أو الرموز أو الأحداث أو الشخصيات، أو المواضيع، وإعادة الكتابة أيضا، التناص على وفق الرؤية النقدية الحداثية منذ المؤسس باختين الذي يرى أن أي نص هو تجميع لنصوص أخرى بطريقة جديدة، والمطورة المختصة جوليا كرستيفا - هو فعل إبداعي يدل على تعامل واعٍ مع الأشياء، ويحتوي على ذكاء تأليفيٍ.

*** دار أمل الجديدة السورية سنة 2020**

مصطلحات عراقية سومرية مشتركة مع اللغة الكردية

مؤيد عبد الستار

الدراسات المقارنة للكلمات المشتركة بين لغتين او اكثر تدل على العلاقات التاريخية بين تلك اللغات واثر كل منها بالاخر، ولذلك من البديهي ان نجد العديد من الكلمات المشتركة بين اللغة الكردية واللغة العربية - اللهجة العراقية - مثلما يرجع العديد من الدارسين اصول الكثير من الكلمات في اللغة الانجليزية الى اصولها السومرية ولذلك نجد لها مشتركات في اللغة الكردية. وفيما يلي بعض الامثلة من تلك المشتركات التي وجدتها شائعة على سبيل المقارنة.

كلمة مُلا أصلها سومري وتستخدم في اللهجة العراقية الدارجة والكردية / الفارسية.

انتشرت في البلدان والمجتمعات الشرقية كمصطلح يطلق على الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة، وشملت من يعرف قراءة القرآن والادعية الدينية أو يقوم بتعليمها.

اشتهر العديد من الرموز الثقافية والسياسية بلقب الملا مثل الملا عبود الكرخي - شاعر شعبي عراقي - والملا مصطفى البرزاني - زعيم سياسي كردي - واطلقت تسمية الملا على معلم الكتاب وكان جد أمي الملا درويش من معلمي الكتاب المعروفين في مدينة الكوت اوائل القرن العشرين، وهو أيضا أول معلم في مدرسة الكوت التي تأسست بعد تشكيل الحكومة العراقية ولكنه ظل محتفظا بلقب (ملا) كونه يعد لقبا محترما للصفات الدينية التي يحملها.

تطلق تسمية ملاية على المرأة التي تقرأ القرآن والادعية وعلى السيدات اللواتي يقرأن التعازي الحسينية في مجالس النساء أيام عاشوراء واشتهرت بعضهن بالصوت الرخيم وأصبحت أشهر ملاية في العراق مغنية بالاذاعة العراقية وهي صديقة الملاية التي احتفظت بلقبها وهي صاحبة أشهر أغنية عراقية :

الله يخلي صبري.. صندوق أمين البصرة.

ويذهب الباحث الراحل علي الشوك في كتابه اسرار الموسيقى ص 200 الى ان سيدة العويل عند السومريين، التي تنشد الاناشيد البكائية - النواح - تسمى مو- لو- را- جه MU - LU - ER - RA - GE

ويقول نعتقد ان لفظة مولو السومرية هي أصل لفظة مُلا الايرانية الحالية، وان المعنى الاصلي لكلمة ملا السومرية هو؛ سيد؛ أو رجل حر، لكنها استعملت في السومرية لتفيد معنى مرتل المزامير*.

ونستطيع تفسير تسمية علي الشوك بانها لفظة ايرانية انها تشمل الكردية والفارسية لان الكردية لغة أساسية في بلاد عيلام منذ القدم.

كما يرجع علي الشوك التهليلة المعروفة في القداس الكنسي - الهللويا - الى المعابد السومرية وانانا وعشتار وان التهليلة تجد أصولها في الهلهولة العراقية وانها انتقلت عبر الكنيسة الشرقية الى انطاكية وشاعت في الاناشيد الكنسية عامة**.

ولدينا في الكردية جذر التهليلة التي مازالت مستخدمة - كلو لوش - وهي مرتبطة بالجذر السومري كلو كلو، او لو لو لو وتستخدم في الافراح والاحزان بترانيم مختلفة. ومن المقامات الكردية المشهورة مقام لولو ومقام حيران.اشتهر الفنان محمد عارف جزراوي بغناء هذين المقامين.

من الجدير بالذكر ان كلمة دين مرتبطة بالممارسات الطقوسية في المعابد السومرية والتي تجد صداها في الزرادشتية والاصل (آيين) وانتقلت منها الى المجتمعات الاخرى عن طريق العبادات والمعابد السومرية والزرادشتية.

يذهب الباحث د. جميل رشيد أحمد في كتابه المعتقدات الدينية في بلاد سوبارتو، الى ان كلمة دين ظهرت غربي قارة آسيا - بلاد عيلام - خلال العهد الساساني وأصبح عنوان الكتاب دين كرت أو دين كرد أي الاعمال الدينية، الذي كتب باللغة البهلية - الفيلية القديمة - وهي إحدى اللهجات الكردية حاليا، واستنادا الى هذه الحقيقة فان كلمة دين هي مصطلح كردي مشتق من كلمة - داينا - الميدية التي كانت تعني الخصائص الروحية وقوة الوجدان غير المادي، وبمرور الزمن استعارت شعوب آسيوية عديدة هذا المصطلح ومنها الفرس والترك عن طريق العربية التي اشتقت منه مصطلحات مثل التدين والدنو والديانة ودان ويدين بمعنى الخضوع...الخ *

وفيما يلي أدرج عينة من بعض الكلمات المستخدمة في اللهجة العراقية لها علاقة وثيقة مع اللغة الكردية التي لها جذورها البعيدة في بلاد عيلام ووسط وجنوب العراق.

كلمات عراقية وجذورها السومرية / الكردية

1 - دسته = مجموعة من الاوراق أو الرزم أو اللوازم التي بالامكان الامساك بها باليد وهي مقتبسة من كلمة ده ست الكردية اي يـد وتستخدم في لعبة الورق فيقال عن الرزمة من ورق اللعب ده سته، وتسمى ايضا الشدة أو الكوتشينة، وكذلك في الشطرنج وغيرها من الالعاب أيضا فيقال ده ست الشطرنج اي لعبة شطرنج أو نقلة حجر من أحجار الشطرنج. واستخدمت في العامية العراقية ايضا كلمة داس وهي من نفس الجذر، استخدمت كلمة الداس بمعنى شوط من اللعب.وكثيرا ما تستخدم في لعبة النرد فيقولون داس طاولي وكذلك في الدومينو.

وجاء في الاغنية الشهيرة لطلال مداح:

تعلق قلبي طفلة عربية / تنعم في الديباج والحلي والحلل

القصيدة التي تنسب لامرئ القيس والتي يقول فيها

فلاعبتها الشطرنج / خيلي ترادفت....
وقد كان لعبي كل ده ستٍ بـقبلة
اقبل ثغرا كالهلال اذا أفل

وقبلتها تسعا وتسعين قبلة.. وواحدة أخرى وكنت على عجل

2- خانه = مكان معين صغير مخصص لحفظ الاشياء وهو مصغر خان وهي لفظة كردية / فارسية - مغولية، بمعنى مكان او نزل أو مجمع سكني. ومنها خانة المستخدمة في الموسيقى العراقية وكذلك الـ (حان) التي تعني المقصف او البار فالخمر في الكردية والفارسية تسمى: مَـي ولذلك يدعى البار في العراق مي خانه أي مكان شرب الخمر، ونقلت الكلمة الى حانه، مقصف أو مشرب واستخدمت في أغنية ناظم الغزالي الشهيرة مي حانه مي حانه.. غابت شمسنه الحلو ما جانه.

3- چ رخ (بالجيم المثلثة) = العجلة ومنها في الكردية جرخي فلك أي عجلة الدنيا التي تدور دون توقف. ومنها كلمة الجرخجي اي الحارس والصفة متأتية من دورانه في الطرقات ليلا للحراسة.

ومهنة (جراخ سكاكين) مهنة قديمة كانت معروفة في العراق لحد السكاكين.

4- لدانه = ترددت في الاغاني الشعبية (هَـي.. لـه دانه.. لـه دانة) دانا من الكردية وهي اسم للاناث وللذكور أيضا، بمعنى ذكي، واللازمة (هَـي - لَـه - دانه) تعني آه من دانه. ومثلها الاغنية الريفية - الغجرية - قريشن بابا قريشن، فالكلمات لامعنى لها بدون إعادتها الى أصلها الكردي وهي أغنية كانت شائعة في الفولكلور الكردي في بلاد عيلام والكلمات في الاصل أغنية تتغنى بالفتيات اللواتي يذهبن الى عين الماء او الحمام ليغتسلن، فيتساءل المغني:

كوره جين، كوره جين = أين يذهبن، أين يذهبن؟

تمام خانمن / رفتن به ماشين = الفتيات (السيدات) غادرن بالسيارة...

وانتقلت الاغنية معربة عن طريق الغجر الذين ينتقلون بين العراق وايران.

5- كليلة ودمنه = عنوان الكتاب الشهير لابن المقفع، كليلة = من كلمة كـليل الكردية وتعني المفتاح، وديمن - ديدن - من الكردية ايضا وهي مصدر بمعنى الرؤيا، والفعل دي : رأى، ديم = رأيتُ، والمعنى الاستعاري للعنوان هو رؤية المفتاح أو رؤية الحل لان المفتاح فلسفيا هو مفتاح المغلق من الابواب والمعروف ان الاديب الشهير ابن المقفع من منطقة عيلام يجيد الكردية/ الفارسية والعربية، كان يلقي الخطاب باللغتين العربية والفارسية / الكردية، ولا يعرف الناس أيهما لغته الام لاجادته اللغتين.واتهم بالزندقة وقتل شر قتله لاسباب سياسية.

وقد نجد علاقة بين كلمة كليل وكلمة كي Key الانجليزية التي تعني المفتاح.

6- دَرد : وجع، ألم، مرض. تستخدم في اللهجة العراقية دلالة على الالم أو البلوى أو المرض ومن أشـهر الامثال التي وردت فيها : فوك درد الله ضربني بميجنه. اي بالاضافة الى المرض الذي ابتلاني به الله ضربني بالميجنة، وهي مدقة تستخدم مع الجاون لدق الحبوب.

7- كوخ وهي تسمية سومرية استخدمت في اللغات الارية ومستخدمة في اللهجة العراقية بمعنى بيت صغير من الطين

والسعف ولها مشابه في الانجليزية (البيت الريفي) يسمى - كوتج cottage -.

8- كبره KAPREH ما زالت مستخدمة في كردستان وهي سقيفة من القش والاعمدة الخشبية، وقد تلفظ في بعض اللهجات Chapreh چپره ولها جذر مشترك مع جبيشه او جبشه وهي الارض المشيدة من طين الهور لكي تصبح قاعدة للاكواخ ومنها تسمية الاهوار بالجبايش. اما تسمية الهور فلها علاقة بالكردية وتعني الغيوم لان مياه الاهوار كانت تبدو مثل الغيوم من أعالي جبال عيلام يوم كانت مياه الاهوار تصل الى مشارف جبال بلاد الكرد الفيليين في سالف الازمان.

9- بَدّ بمعنى رديء، سيّئ وغالبا ما تستخدم مركبة مثل كلمة بد وفه أي عديم الوفاء وهو تركيب كردي / عربي. وقد تجد هناك علاقة مع كلمة باد الانجليزية Bad والتي تعني سيّئ أو رديء.

10- چول Chool بمعنى أرض خالية، لا أحد فيها وللمبالغة يقال في الكردية: چولهول، ودخلت العامية العراقية بهذا المعنى في كلمة چول.

11- زنكَين بمعنى غني كما يوصف بها الشاي الثقيل وأصلها سنكَين بمعنى ثقيل تستخدم في الكردية والفارسية.

12- خنياب وهو سيل الماء، او الماء الخابط الذي يغمر الحقول جراء الفيضان او فتح القنوات المائية، والكلمة تستخدم في الوسط والجنوب العراقي، وهي تركيب كردي او فارسي، متكون من مقطعين الاول خنيه دلالة على العكر او السائل الكثيف ويستخدم للحناء ايضا، وكلمة آب وتعني الماء في الكردية والفارسية وتلفظ احيانا مخففة آو، فالكلمة تعبير عن الماء العكر - الخابط - الذي يفيض من الترع والانهار ويجرف معه الطمى فيكون عكرا مثل الحناء. واشتهرت الكلمة في اغنية انوار عبد الوهاب: عد وانا اعد وانشوف.. ياهو اكثر هموم..

فتقول: يالما عليك هموم عونك يا هالماي..
جا خنيبت ومحيت لو بيك الوياي.

خنيبت من خنياب، وهو مصطلح يستخدمه الفلاحون والمزارعون كثيرا.

*** ينظر اسرار الموسيقى، علي الشوك، دار المدى، 2003 دمشق، ص 200.**

**** نفسه، ص 226**

*** ينظر المعتقدات الدينية في بلاد سوبارتو، جمال رشيد احمد،2017 اربيل، ص 21.**

S
O